كيف ضاعت فلسطين

دراسة للمؤثرات الاقتصادية والثقافية والسياسية
في ضياع فلسطين

الدكتور / عيسى بن محمد الماضي
كلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مكتبة المعلا
الكويت

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

مكتبة المعلا
ص.ب : ١٩٦٧٣ خيطان 83807 الكويت
تلفون : ٤٧٣٧٨٢٨

الإهـــــداء

إلى كل من جاهد بسلاحه وقلمه ولسانه
لإعادة أرض الأنبياء
ومسرى الرسول صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

قبس من آي الذكر الحكيم

يقول سبحانه وتعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (آل عمران : ١٦٩-١٧٣) .

المقدمـــة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

فإن نكبة فلسطين بصورتها عام ١٩٤٨ وما تطورت إليه عام ١٩٦٧ حيث استكمل تشريد شعبها وأخرجوا من ديارهم ثم قتلوا تقتيلاً عام ١٩٨٣ في مذابح صبرا وشاتيلا في بيروت وقبلها بسنين قليلة في مخيم تل الزعتر ، علاوة على الهجمات الإسرائيلية المتكررة على مخيماتهم في صور وصيدا وبيروت والأردن وسورية مستعملة أنواعاً من الأسلحة الحديثة والعرب حولهم واجمون يتفرجون ويتنهدون ولشفاههم يعضون كل هذه الحوادث تجعل المسلم الواعي يرجّع الفكر في الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج[١] فإذا عُرفَتْ أمكن توقيها حتى لا تحدث نفس النتائج في بلد آخر ، ولا شك أن ضياع فلسطين ومن قبلها شرق أوروبا والأندلس وديار كثيرة من أيدي المسلمين هو دلالة على التراجع المستمر للمسلمين أمام قوى الكفر التي تستهدف المسلمين أنفسهم بل دينهم لأن التاريخ والمعارك التي خاضوها مع المسلمين قد علمتهم أن قوةالمسلمين في دينهم لأنهمأصحاب رسالة سماوية ، وتاريخ الأديان يخبر أن الشعوب والأقوام المكلفة برسالة سماوية إذا تخلت عما كلفت به أصبحت مطمعاً ونهباً لشعوب أخرى ولعل حكمة الله سبحانه اقتضت أن يدب الوهن في الأمم التي تتخلى عن مقومات قوتها في مبادئها كدليل على صحة هذه المبادئ ونكاية لها في الدنيا يقول سبحانه وتعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[٢] .

---

(١) لم يعرف التاريخ على مر عصوره وإلى الآن نكبة حلّت بشعب مثل النكبة التي حلت بالشعب الفلسطيني سواء في أسبابها أو أطوارها أو نتائجها .

(٢) سورة طه آية ١٢٤-١٢٦ .

ولا شك أن كل مسلم يؤمن أن ضياع فلسطين كان قدراً من الله ولكل قدر حكمة ولعل المصائب التي تلحق بالمسلمين هي تحذير من الله سبحانه إلى وجوب العودة إلى الإسلام لأنه لا سعادة للمسلمين بدونه ولعل هذا يكون برهاناً على صحة الإسلام بل اعجازه إذ لو صلح حال المسلمين بغيره لكان غيره مثله سواء ومن يستعرض تاريخ المسلمين إلى اليوم يجد أن المصائب تختلف عليهم حسب قربهم أو بعدهم عن الإسلام ولعل العصر الحديث منذ القرن التاسع عشر يشهد أكثر من غيره على ذلك فقد عجزت القوانين الوضعية أن تحقق أبسط مفاهيم الحياة الكريمة للمسلمين وأصبحت المفارقة واسعة بين حالتهم في العصر الحديث وحالتهم في العصور الماضية حتى في عصور الضعف والانحطاط سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات وعندما نقرأ مشاهد للعزة والأنفة والشجاعة وغيرها من القيم في العصور الماضية ونلتفت لحالنا اليوم يخيل إلينا أنها ضرب من الخيال والأساطير ، والحقيقة أن مسلم الأمس هو نفسه مسلم اليوم ولكن المؤثرات التي واجهت ذلك وعليها نشأ غير المؤثرات التي واجهت هذا المسلم وعليها ينشأ ، فعلينا أن لا نستفظع النتائج بل ننظر إلى الأسباب التي أوصلت لهذه النتائج . وقد علمنا الرسول ﷺ هذا المنهج في البحث بقوله (يأتي زمان على أمتي يسب الرجل أباه فاستفظع الصحابة ذلك كيف يسب الرجل أباه فقال الرسول الكريم بأن يسب أبا الرجل فيسب الرجل أباه) .

ولا شك في أن قتال الباغي وحد الحرابة وغيرها من الحدود على صرامتها لا تعتبر ظلماً لأنها نتيجة لعدوان المعتدين وتجاوزات العاصين لمحارم الله ويحدثنا التاريخ أن عمار ابن ياسر رضي الله عنه كان يقاتل إلى جانب الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في معركة صفين فقتل فسبب هذا حرجاً لجماعة معاوية وفرح جماعة علي لأن الرسول ﷺ قال لعمار « تقتلك الفئة الباغية » ولكن معاوية بدهائه استطاع أن يَخَرِّجَها بأن الفئة الباغية هي التي أتت به للقتال أي أن معاوية لم يناقش النتيجة أي القتل بل ناقش الأسباب ولعل في عفو عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن السارق عام الرمادة وكذلك عفوه عن المرأة التي رفض الراعي أن يسقيها الماء إلا إذا مَكّنَتْه من نفسها وقد فعلت لشدة عطشها فأقام الحد على الراعي ولم يقمه عليها كل هذا مراعاة لأسباب السرقة أو الزنى وما أحوجنا أن نستفيد في حياتنا من القواعد التي بنى عليها ديننا لأنها خلاصة الإسلام في مقاصده .

وفي هذا البحث المتواضع سرت على هذا النهج فدرست المؤثرات – أي الأسباب –

التي أوصلت إلى ضياع فلسطين من سياسية وثقافية واقتصادية ومع أن كل واحد منها يكفي لبحث كبير ولكنني ركزت على صلب الموضوع فيها بحيث تَكَوَّن مجتمعة لدى القارئ فكرة متكاملة في موضوعها (**ولعل هذا اللون من الدراسة يعد رائداً في موضوعه حيث أني لم أعثر على مثله فإن الذين كتبوا عن السياسة والاقتصاد والثقافة في فلسطين كانت كتابتهم منحصرة في المواضيع التي كتبوا فيها ولم يكن غرضهم بيان أثرها في ضياع فلسطين فكانت دراستهم وافية في بيان الحالة السياسية والاقتصادية والثقافية فقط**) ، وقد اعتمدت على المصادر الأولية لهذا الموضوع كالدوريات التي كانت تصدر في ذلك الوقت والكتب وتقارير اللجان التي كانت ترفع مباشرة إلى الحكومة البريطانية في فلسطين وعلى المقابلات الشخصية التي أجريتها لمن عاصروا الأحداث ولم يخل البحث من الكشف عن قضايا جديدة أو التنبيه على أثر لم يؤخذ بالعناية لدى الباحثين وإني لأرجو لمثل هذه الدراسة النجاح بمشيئة الله لتتبصر الأمة بأسباب علتها المسببة لأمراضها السياسية والفكرية والثقافية والاقتصادية لأن علاج الأسباب كفيل بالقضاء على الأمراض والطبيب الناجح هو من يعالج مسببات الأمراض لا الأعراض ، لقد حان لأمتنا أن تنتبه إلى أسباب أمراضها فتعالجها معالجة جذرية تقضي على أصولها .

وقد أوصلني البحث إلى ثلاثة فصول رئيسية وهي :

الفصل الأول :

المؤثرات الاقتصادية : تكلمت فيه عن ثروات فلسطين الزراعية والحيوانية والصناعية والتجارية وقد كان واضحاً أن فلسطين بلد زراعي بالدرجة الأولى وأن الصناعة الموجودة فيها لا تزيد عن كونها يدوية وقد كان فيها بعض الصناعات الكبيرة المحدودة التي تركزت في المدن وكان لموقع فلسطين الجغرافي بين مصر وبلاد الشام أهمية تجارية كما تكلمت عن الحالة الاقتصادية قبل الاحتلال الانجليزي حيث كانت فلسطين تابعة للحكم العثماني فقد كانت الحياة الاقتصادية متدهورة يسيطر عليها المتنفذون وقد كانت ميزانية الدولة تقع على من يفرض عليهم من الضرائب وهم المسلمون فقط نتيجة لنظام الامتيازات الذي أخرج المواطنين غير المسلمين من تبعية الدولة سوى التبعية السياسية وقد وصلت الفوضى الاقتصادية لدرجة أنه لم توجد وحدة للمكاييل والموازين وللعملة المتداولة فقد كان المكيال الواحد يختلف مقداره من منطقة إلى منطقة ، ولم تكن الحال

في فلسطين بأسوأ من غيرها من المناطق العثمانية الأخرى . وتكلمت عن الاقتصاد بعد الاحتلال حيث حدث شيء من الانتعاش من جهة وسوء حال من جهات أخرى فقد ظهرت الصناعات الآلية التي تغذيها رؤوس الأموال الكبيرة فماتت الصناعات اليدوية التي كان يعتمد عليها قطاع كبير من الفلسطينيين مما جعلهم يتركون حرفهم ويعملون عمالاً في المدن . وقد كانت الحكومة البريطانية المنتدبة ترسل لجاناً لدراسة الأحوال الاقتصادية لتحسينها . انتهى بعضها بتوصيات موضوعية لم تنفذ الحكومة منها شيئاً وقد كان واضحاً منذ اليوم الأول الذي وضعت فيه فلسطين تحت الانتداب البريطاني أنها تقوم بتنفيذ البند الثاني من صك الانتداب وهو جعل فلسطين تعيش في ظروف اقتصادية وسياسية تمكن من إقامة الوطن القومي اليهودي فيها لذلك كثرت الضرائب وارتفعت رواتب الموظفين الانجليز فيها لدرجة الضعف عن أمثالهم من الموظفين الفرنسيين في سوريا ولبنان ، وقد وضَّحْتُ هدف الانجليز من هذا الظلم الاقتصادي وهو دفع المواطن للتخلي عن أرضه لينتقل إلى المدينة عاملاً براتب يومي غير مضمون لا يكاد يكفيه فيعجز عن دفع الضرائب الباهظة على أرضه فيضطر لبيعها إلى اليهود وقد فشلت هذه الخطة وما تم بيعه كان من ملاكين سوريين ولبنانيين بصورة عامة ولا يتجاوز ٥٪ من مساحة فلسطين .

الفصل الثاني :

المؤثرات الثقافية : تكلمت فيه عن الحياة الثقافية في فلسطين إبان الحكم العثماني حيث كانت المدارس الحكومية قليلة جداً وكانت تستخدم اللغة التركية حتى في تدريس النحو العربي . وقد فَرَّعْتُ الكلام في هذا الفصل إلى أقسام :

الأول : التعليم تكلمت فيه عن نظام التعليم قبل الاحتلال البريطاني وقد كانت مدارس الحكومة العثمانية محدودة وفي المدن الكبيرة فقط والأمية هي الأصل وقد كان للارساليات التبشيرية والمدارس المِلِّية أثر واضح في كثرة المتعلمين ولكنها كانت حرة في اختيار المادة والمنهج وبالطبع لم تكن تعلم من الدين الإسلامي شيئاً لذلك كان يتخرج منها أولاد المسلمين بعد السنين الطويلة من التعليم دون أن يستفيدوا شيئاً عن إسلامهم بل يتخرجون علمانيين وقد قويت هذه المدارس بعد الاحتلال الانجليزي أما مدارس الحكومة فقد زادت وخصوصاً المدارس الابتدائية . أما من يكملون تعلم الاعدادية والثانوية فهم قليلون جداً حيث لا يسمح للطالب أن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة إلا

من كان ترتيبه الأول أو الثاني أو الثالث في فصله وباقي الطلاب يخرجون للحياة العملية وقد كان واضحاً أن الانجليز يقصدون من هذه السياسة التعليمية هو تخريج أفواج من الموظفين والمستهلكين للبضائع الانجليزية ومع هذا فقد كان التعليم في فلسطين أفضل من غيرها من البلاد المجاورة فقد كان ٢٥٪ من الطلاب في الجامعة الأمريكية في بيروت من فلسطين والحق أن هذا يعود لكثرة الارساليات التبشيرية وكثرة المدارس الملّية لكثرة الطوائف غير الإسلامية في فلسطين ولهذا نلاحظ أن نسبة المتعلمين من غير المسلمين في فلسطين تفوق كثيراً مثيلتها لدى المسلمين .

الثاني : الطباعة : تكلمت عن منشئها في القدس وأول ما طبع فيها الكتب الدينية وأن الارساليات التبشيرية أول ما طبعت عليها كتبها التعليمية ومن يلقي نظرة على أسماء المطابع ومنشئيها يتبين له ذلك بوضوح ... إلى أن كثرت المطابع في مختلف أنحاء فلسطين كان لأغراض تجارية

الثالث : الصحافة : لقد انتعش النشاط الصحفي في فلسطين على يد الارساليات التبشيرية وخصوصاً بعد الاحتلال الانجليزي حيث بلغت الصحف إحدى وثمانين صحيفة حتى عام ١٩٢٩ كما كان لأبناء فلسطين مشاركة صحفية خارج فلسطين سواء بإنشاء صحف أو بالكتابة فيها .

الرابع : الأندية والجمعيات الأدبية : لقد نهضت بها الطوائف الدينية كما يظهر من أول جمعية في فلسطين باسم « سوسنة صهيون » أنشئت سنة ١٨٧٧ ومن استعراض أسماء الجمعيات نلاحظ بوضوح أن معظمها من إنشاء الطوائف والارساليات الأجنبية وقد تنبه المسلمون إلى إنشاء هذه الجمعيات متأخراً فتأسست جمعية تهذيب الفتاة الإسلامية وقد كثرت هذه النوادي والجمعيات كثرة ملحوظة بعد أن تحقق الجميع من فوائدها وشهرت بعض النوادي الأدبية التي كانت تضم الطبقة الممتازة من الأدباء كما يظهر من رسالة الأستاذ سليم سركيس إلى الأستاذ خليل بيدس التي أشاد فيها بما وجده من نشاط أدبي متمثل بهذه الجمعيات التي لا يوجد مثيلها في دمشق .

الخامس : الإذاعة : تأسست الإذاعة في فلسطين مبكراً واختارت الشاعر إبراهيم طوقان لإدارة البرامج العربية وفي ٢٩ مارس ١٩٣٦ نقل الأثير لأول مرة صوتاً عربياً هو صوت إبراهيم طوقان وقد كان الناس يتطلعون لوضع الإذاعة في خدمة القضية الفلسطينية وقد أذاع على الناس تحقيقاً أدبياً أن السموأل الشاعر الجاهلي اليهودي كان ذا

نزعة مادية وأن هذه النزعة هي التي دفعته إلى إيثار النبح لابنه خارج الحصن ولم يكن في الأمر عامل الوفاء وإنما كان ذلك طمعاً في مال جم وعده به امرؤ القيس إذا حفظ ما أودعه عنده من مال وسلاح وقد أذاع هذا التحقيق بنفسه في ٢٠ سبتمبر ١٩٣٦ فاهتاجت الصهيونية وظلت تدس له حتى انتهى الأمر بإقصائه . وتولى بعده الأستاذ عجاج نويهض الذي هدف من براجه إلى خدمة القضية الفلسطينية حيث وضع سلسلة من المحاضرات موضوعها شخصية فلسطينية ، وأخذ يستدعي كتاباً وباحثين من فلسطين والبلاد العربية لالقاء المحاضرات والبحوث فاستقدم بشارة الخوري وعبد اللطيف الطيباوي والعقاد والمازني وغيرهم وهكذا نلاحظ أن الإذاعة سخرت منذ يومها الأول لخدمة القضية وقد قاومت سلطات الاحتلال ذلك بكل ما تستطيع . هذه هي العوامل المباشرة في نهضة فلسطين الثقافية وقد تفاعلت هذه العوامل مع عوامل داخلية أخرى فولدت نهضة تمثيلية كان رائدها عزيز ضومط الذي لمع اسمه في الأوساط الثقافية الألمانية حيث مثلت روايته « والي عكا » على مسرح بلدية (شترالسون) فنالت استحساناً كبيراً وقد عدوه في الطبقة الأولى من شعراء المانية وهو من أبناء حيفا وقد وضحت أن حكومة الانتداب لم تشجع التمثيل لأن كثيراً من المسرحيات ذات طابع سياسي وطني والذي يلاحظ أن النشاط التمثيلي قد استأثر بنشاط النصارى وذلك لطبيعة تعلمهم في مدارسهم الملية كما ظهر العنصر النسائي في التمثيل لأول مرة في تمثيل رواية « هاملت » لشكسبير التي قامت بها فرقة الكرمل التمثيلية في حيفا حيث مثلت فيها « آسيا خوري وثريا أيوب » .

وازدهرت الترجمة ازدهاراً واضحاً لكثرة الارساليات الأجنبية التي تعلم باللغة الفرنسية والانجليزية والإيطالية والروسية والألمانية واليونانية . إن أول ما ترجم كان من الكتب الدينية سنة ١٨٦٠ حيث ترجم مينا يوسف دباس « مرشد الأولاد » لفرنسيسكو سوافيوس وقد كانت مجلة النفائس التي يصدرها خليل بيدس تترجم القصص والروايات من مختلف اللغات وقد ترجمت عدة أعمال من العربية إلى اللغات الأخرى ومن أوجه نشاط الترجمة ما كان يفعله المجلس المختلط للطائفة الأرثوذكسية حيث أعضاؤه اثنا عشر عضواً منهم ستة من الرهبان وستة من العلمانيين وكان من بين العلمانيين الأستاذ خليل بيدس وكان البطريرك يتلو خطابه في المجس باللغة اليونانية ثم يقوم عضو من الأعضاء ويقرأ الترجمة العربية للخطاب . هذا ولم تقتصر الترجمة على القصص والمسرحيات بل تعدتها إلى طرق التربية المدرسية والنفسية . فقد ترجم الأستاذ أحمد سامح الخالدي عن

الانجليزية كتاب « الطريقة المنشورية في التربية والتعليم » طبع في القدس في ١٩٢٥ وترجم « أهمية التحليل النفسي » طبع في القدس ١٩٤٦ واعتمد في وضع كتابه « أركان التدريس » على كتاب « ارشادات المعلمين » الذي نشره مجلس التعليم البريطاني وطبع في القدس عام ١٩٢٧ وترجم كتاب « الحياة العقلية » لورد زوورث كما كان لزوجته عنبرة الخالدي نصيب من الترجمة أيضاً . واحتلت الترجمة عن الفرنسية المرتبة – بعد الانجليزية – الثانية في النشاط الثقافي ويعد الأستاذ محمد روحي الخالدي من أوائل من عنوا بالترجمة من الفرنسية إلى العربية وكان لظهور الأستاذ عادل زعيتر فاتحة عهد جديد للثقافة العربية على الثقافة الفرنسية فمنذ كان في باريس سنة ١٩٢٣ طالباً في الحقوق وهو ينقل الروائع من الثقافة الفرنسية إلى العربية في مختلف المجالات من أدب وسياسة وغيرهما فقد ترجم سبعة وثلاثين كتاباً .

وقد خصصتُ عنواناً بارزاً لأثر الإرساليات التبشيرية في الحياة الثقافية في فلسطين وضحت فيه أن الحياة الثقافية في فلسطين قد صبغت بأهداف المدارس التبشيرية فظهر من يفصلون الدين عن الدولة ومن يدعون إلى الرابطة العلمانية . هذا وقد كان النشاط الثقافي في فلسطين بمختلف فنونه مظهراً للنشاط التبشيري سواء بمدارسه أو بعثاته الطبية والاجتماعية .

وقد جعلت الفصل الثالث في الحياة السياسية تكلمت فيه عن النظام الإداري في فلسطين زمن الدولة العثمانية ولم تكن فلسطين بحدودها المعروفة الآن تتبع نظاماً إدارياً واحداً بل قسم منها يتبع ولاية بيروت وقسم آخر يتبع ولاية دمشق وفي عام ١٨٨١ أنشئت متصرفية القدس وصارت تتبع وزارة الداخلية في العاصمة العثمانية مباشرة وقد كانت البلاد تدار من الوطنيين الفلسطينيين سواء في حكم البلاد أو في جمع الضرائب وعلى رأسهم اقطاعيون محليون إلى أن جاء السلطان محمود فجعل مسؤولين أتراك متنفذين فساءت الأحوال لتقرب الوصوليين إليهم . ثم تكلمت عن المسألة الشرقية التي تعني أطماع الدول الغربية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية – الرجل المريض – بحجة حماية الأقليات الدينية وتحرير الشعوب وقد ظهرت المسألة الشرقية واضحة بعد ثورة اليونان على السلطنة العثمانية وبعد حرب القرم عام ١٨٥٣ وبعد ثورة البلغار على السلطنة وقد كانت الأقليات تمارس سلطة الدلال على السلطنة كما يظهر في تقدير اليهود لمنهوباتهم من قبل المسلمين في صفد والتي لم يناقش الأمير خليل الشهابي الوالي العثماني صحة المبالغ الخيالية

بل أمعن في أهل صفد عذاباً وتشريداً حتى مات الكثير منهم تحت التعذيب وأرسل وجوههم إلى سجن عكا وقد قرر المبالغة في المنهوبات جرمانوس بحري مبعوث محمد علي باشا لدراسة هذه المنهوبات وأخيراً لم يجد محمد علي باشا بداً من الاذعان لمطالب قناصل بريطانيا وفرنسا وروسية وبروسيا وأمر ببيع أملاك المسلمين في صفد لتعويض اليهود عن منهوباتهم ، هذا وقد أيقظت المسألة الشرقية شعوب المنطقة ونبهتهم إلى أسباب غلبة الغرب عليهم فنهم من دعا إلى وجوب اقتفاء الغرب في الصناعة والفكر ومنهم من دعا إلى تعلم الصناعة والاحتفاظ بالفكر الإسلامي وهم علماء الإسلام عامة وتكلمت عن الجامعة الإسلامية وبينت أهميتها بالنسبة للدولة العثمانية لأنها الرابطة الوحيدة التي تجمع الشعوب العثمانية . وقد كانت إسلامية الدولة العثمانية مثيرة لعداء الدول الأوروبية لها في الدرجة الأولى كما كان السلطان عبد الحميد يلوح بعصا الجامعة الإسلامية كلما أحدق بدولته خطر الدول الطامعة التي كانت تحكم بعض الشعوب الإسلامية فكانت تخاف من ثورة هذه الشعوب إذا سمعت بنداء الخلافة الإسلامية للالتفاف حول العلم النبوي وقد كشفتُ لأول مرة – فيما أعلم – عن عزم اليابان للدخول في الإسلام كما ظهر مما نشرته صحيفة « ثمرات الفنون » التي كان يصدرها الشيخ عبد القادر القباني في بيروت وبطلب من اليابان أصبحت الصين تعامل المسلمين فيها على قدم المساواة مع البوذيين . ويبدو أن الخلافة الإسلامية كانت حقيقة مخيفة أمام الدول الطامعة في الدولة العثمانية لذلك أخرت اقتسامها للسلطنة ما لا يقل عن نصف قرن ولكن السلطنة العثمانية لم تستفد منها في جمع وتقوية الشعوب الإسلامية نفسها . ولعل الحالة السيئة التي وصلتها الدولة العثمانية سدت عليها طرق الاستفادة من كل الفرص التي تملكها فلم تستطع أن تستفيد من عطف المسلمين عليها في نهضتها بل ظلت الخلافة الإسلامية مجرد قضية معنوية تلاشت عند أول امتحان لها وهو سقوط دار الخلافة بسقوط السلطان عبد الحميد ومجيء حزب الاتحاد والترقي إلى الحكم وهو معروف بعلاقته بالماسونية . ثم تكلمت عن السلطان عبد الحميد الذي يعد بحق أقوى سلاطين آل عثمان فقد شهد له معاصروه بالحنكة والسياسة مع التقوى وقد استطاع أن يؤخر اقتسام ممالك السلطنة مدة حكمه حيث وصل إلى الحكم بعد خلع عمه السلطان عبد العزيز الذي أغرق الدولة بالديون الكثيرة وقد أوليت اهتماماً خاصاً للسلطان عبد الحميد لأنه يمثل الوجه الإسلامي الأخير لدولة الخلافة وتكلمت عن المؤثرات الخارجية على سياسته وهي أربع مؤثرات .

الأول : الخطر الأوروبي .
الثاني : تدخل الدول في شؤون السلطنة .
الثالث : الوعي القومي عند عناصر الدولة .
الرابع : فراغ الخزانة .

كما تكلمت عن سياسته الداخلية التي تمثلت في المظاهر التالية :

أولاً : السلطة العليا إلى المابين .
ثانياً : النضال بين السلطان والدستوريين .
ثالثاً : سياسة التفرقة بين العناصر .
رابعاً : الخلافة والاتحاد .

وقد كان السلطان مسوقاً بسياسته الداخلية بسبب من المؤثرات الخارجية ولهذا شهر عند عامة المثقفين بالطاغية لأنه فوت الفرصة باجراءاته الإدارية على الدول الطامعة التي أرثت نار الحقد لدى جملة المثقفين العرب الذين درسوا في مدارسها وتربوا على مناهجها فأصبحوا يرددون في صحفهم ونواديهم أن السلطان عبد الحميد طاغية وسفاح وقد كان من الواضح لدى العناصر العثمانية التي بقيت متمسكة بالرابطة الإسلامية أن الذين يرددون هذه الاتهامات هم من الذين درسوا في المدارس الأجنبية التي كانت تقوي عنصر الانفصال بتكوين هالة مظلمة للسلطان ورجاله من جهة وإثارة النعرات العرقية والعنصرية من جهة أخرى ولكن المنصفين من الذين عاصروا الأحداث شهدوا للسلطان بعدم تفريقه بين عناصر شعبه وعطفه عليهم مثل الأستاذ محمد جميل بيهم ومن هوية الذين ذموا السلطان عبد الحميد تتبين مقاصدهم فالأستاذ ولي الدين يكن كان عضواً في حزب الاتحاد الترقي وقد نفاه السطان إلى سيواس وله قصائد ألقاها في محفل نيازي في القاهرة احتفالاً بسقوط السلطان عبد الحميد وقد صرح فيها بفضل الماسونية وملك الانجليز على أسقاط السلطان كما اعترف بأنه كان يختلق التهم والافتراءات ضد السلطان حتى يشوه صورته ويؤلب عليه وعلى أية حال لم أجد مثقفاً واحداً بثقافته الإسلامية قد هاجم السلطان عبد الحميد بل نجد الذين يؤيدونه من العلماء وذوي الثقافة الإسلامية وبهذا نستطيع أن نتبين شخصية السلطان عبد الحميد وشخصية أعدائه وشخصية محبيه . ثم تكلمت عن السلطان عبد الحميد والقضية الفلسطينية وجعلته شهيدها الأول لأنه عارض بشدة محاولات اليهود المتكررة والمغرية في الحصول على فلسطين وطناً قوميا لهم مع حاجة

الدولة إلى المال والعون ولكن عاطفته الإسلامية لا تقبل المساومة ولذلك عمل اليهود على سقوط السلطان عبد الحميد العقبة الأولى أمامهم والعقبة الثانية قيصر روسيا لذلك عملوا على اسقاطه لأنه كان يعد نفسه حامياً لقبر المسيح وقد نهجوا لاسقاط السلطان عبد الحميد عدة طرق منها إثارة القلاقل والفتن الداخلية عليه وتشويه صورته أمام الرأي العام العالمي وتفسير تمسكه بالإسلام بأنه رجعية وتخنط واغراء الدول الأخرى بالدولة العثمانية حتى لا تدعها تفكر في اصلاح نفسها وبناء قوتها وتوجيه نشاط الماسونية التركية نحو الاستيلاء على السلطة وتم لهم ما أرادوا وبذلك سقط الوجه الإسلامي لتركية وظهر وجهها العنصري القومي ونادى الانقلابيون بالتتريك فثار عليهم ما تبقى لهم من القوميات التي يحكمونها وَزُجَّ بتركيا بالحرب العالمية الأولى وأخيراً انهزمت مع المانيا واحْتُلَّت وصدر وعد بلفور وكان لليهود ما أرادو وأقاموا دولتهم المزعومة ، رحم الله السلطان عبد الحميد فقد ضحى بعرشه ولم يضح بفلسطين فانطلقت قصائد الشعراء ومقالات الأدباء بين مشفق وشامت وتكشفت كثير من الحقائق حيث جاهر أعضاء الاتحاد والترقي بماسونيتهم وبقي المخلصون للسلطان عبد الحميد أوفياء له . ثم تكلمت عن الحركة العربية الحديثة وضحت فيها أن لا فرق بين العروبة والإسلام كما تمثل في نظام الولاء وفي عدم التفريق بين المسلمين مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم .

ولم يظهر العرب عداءهم للدولة العثمانية بصورة سافرة إلا بعد أن أعلن حزب الاتحاد والترقي الدعوة الطورانية التي أدت إلى تفتيت الدولة العثمانية حيث أخذت كل قومية تقوي نفسها حباً في بقائها أمام الدعوة الجديدة كما أخذت الدول الطامعة تقوي روح الاستقلالية مدفوعة بأطماعها المختلفة ، ولما دخلت تركيا الحرب حاولت جمع شعوبها بالدعوة إلى المساواة بين رعاياها ولكن الفرصة قد فاتتها حيث وطئت نفسها على الثورة وساعدت الحلفاء ولما خسرت الدولة العثمانية خسرت كل شيء ونحن لا ننكر أن بداية الوعي العربي تمثل بحركات الاصلاح التي اتخذت الدين قاعدة لها مثل دعوة الاصلاح التي قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية أما في القرن التاسع عشر فقد اتخذت من توضيح الإسلام بروح عصرية والاستفادة من المدنية الغربية كما يظهر في حركة عبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد عبده وأخيراً اتخذت طابع الحركة القومية المعروفة لدى الأمم الأخرى وقد كان واضحاً لدى المؤرخين أثر الفكر الأوروبي في القومية العربية الحديثة وأنها مستفادة من تجربة الأوروبيين القومية ويبدو أن السلطان عبد الحميد قد تنبه لهذا الوعي فقرب العرب وجعلهم خاصته ولكن القوة الغربية المؤيدة

لدعاة القومية كانت أقوى من خطط السلطان وجاءت قضية التتريك لتزيد في الدعوة القومية قوة وتأييداً حتى أصبح الاستقلال عن الدولة العثمانية مطلباً إسلامياً وقومياً .

ولما اشتركت تركيا في الحرب العالمية الأولى إلى جانب المانيا أوقفت الأحزاب القومية نشاطها المعادي وأرسل الشريف حسين العلم النبوي إلى جمال باشا الوالي التركي على سوريا وسيرت تركيا حملتين فاشلتين بمساعدة الألمان لتخليص مصر من الانجليز وبقي الشريف حسين يترقب الموقف حتى ظهر واضحاً أن مستقبل الحرب للحلفاء وعندها ثار على الدولة العثمانية أملاً بوعود الانجليز الذين قدموا له ورقة بيضاء مذيلة بالختم البريطاني ليكتب عليها ما يشاء من شروط ومطالب . وكان انضمام الشريف حسين للحلفاء تجسيداً للمشاعر العربية التي بنيت على أسس ثقافية واجتماعية أسهمت في تكوينها جهود الحلفاء عن طريق سفاراتهم وبعثاتهم التبشيرية كما أن القيادة العربية كانت تتطلع إلى حياة أفضل بمساعدة الحلفاء المعروفين – يومئذ – بنزعتهم للتقدم والحرية ومع هذا فقد وجد تيار إسلامي مضاد لثورة الشريف حسين ، لا يسوّغ مناصرة الكفار على المسلمين منهم مصطفى كامل وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وشكيب أرسلان وغيرهم فقد كانوا يكتبون القصائد في تحريض السلطان على الشريف حسين ذاكرين ما كان يلاقيه الحجاج من مصاعب لأنه لم يستطع أن يضبط الأمن في ربوع الحجاز وقد أكد كثير ممن التحق بثورة الشريف حسين أنه قد غرر به الانجليز وخدعوه مثل المغفور له رمضان باشا الشلاش والرئيس السوري السيد الحكيم والنجل الأكبر للشريف حسين والحقيقة أن وقوف الشريف حسين إلى جانب الحلفاء لم يكن السبب في انتصارهم لأن مصير المعركة قد تقرر على الجبهة الألمانية الروسية وباشتراك أمريكا ضد المانيا وقد كان الرأي العام العربي معبأ ضد تركيا ولم تكن بريطانيا وفرنسا قد مارستا تجربة في الشرق الأوسط ولو لم يشترك الشريف حسين مع بريطانيا المنتصرة في الحرب للحصول على الاستقلال لكان اللوم عليه أشد بحجة أنه قد ضيع فرصة العمر أمام العرب في الاستقلال .

وإن تركة الدولة العثمانية سوف تقسم أمام الدول المنتصرة فلم يكن هناك مفر من النتيجة المحتومة ولكنها كانت درساً عملياً لمن تعلموا في البلاد الغربية ومدارسها وارسالياتها فأعطوها ثقتهم وولاءهم باسم الحرية وإذا بها تمارس كل صنوف الاضطهاد وكل ما ينسب للعثمانيين من ظلم واستبداد لا يساوي شيئاً من فظائعها التي كان ختامها إضاعة فلسطين وإقامة إسرائيل وقد أفردت عنواناً مستقلاً لضياع فلسطين لأهميته وضحت فيه

الأسباب المباشرة وهي تبني بريطانيا – الدولة المنتدبة – لفكرة إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين وتنفيذها لها بل وضع فلسطين في أوضاع اقتصادية وثقافية وسياسية تمكن من إنشاء الوطن القومي كما جاء في البند الثاني من صك الانتداب والسبب غير المباشر وجود روسيا القيصرية والسلطان عبد الحميد ولما تم للصهيونية اسقاطهما أصبح الطريق خالياً لهم وقد قامت في فلسطين عدة ثورات عام ١٩١٩ و١٩٢٠ و١٩٢٢ وقامت عدة مؤتمرات للفلسطينيين قرروا في جميعها رفضهم التعامل مع الحكومة البريطانية التي انحازت في تحقيقاتها عقب كل ثورة وأن الهجرة مستمرة وقرر المؤتمرون أن فلسطين هي الجزء الجنوبي من سوريا وقامت المظاهرات الصاخبة في وجه اللورد بلفور ١٩٢٥ لافتتاح الجامعة العبرية في القدس ولما سافر إلى دمشق استقبلته دمشق بمظاهرات صاخبة أيضاً وكانت ثورة ١٩٢٩ قمة في العنف حيث اشتبك الفلسطينيون مع اليهود في عدة مناطق من قرى فلسطين وقتل من الطرفين الكثير وكانت بريطانيا تزود اليهود بالسلاح والعصي وقامت المحاكمات بعدها لتحكم على عشرين فلسطينياً بالاعدام والسجن على ٨٠٠ منهم لعدة سنوات وحكمت على يهودي واحد بالاعدام لأنه مثّل بإمام جامع في حيفا مع أسرته وقد قضى الشرطي القاتل بعض السنوات في السجن ثم أُطلق سراحه .

وقد كانت بريطانيا تكوّن لجاناً لدراسة الوضع وتخرج بقرارات مخدرة وغير صريحة وسرعان ما تعود الثورة مرة أخرى حتى جاء عام ١٩٣٦ وأضرب الفلسطينيون فيه ١٨٦ يوماً دون أن يمارسوا الحياة العامة وقد كان له أبلغ الأثر على بريطانيا حيث لم تجد من تتعامل معه ولكن الاضراب أُنهي بوساطة بعض الزعامات العربية . وفي مساء ١٩٤٨/٥/١٤ أعلن المجلس الوطني اليهودي قيام الدولة اليهودية (إسرائيل) وتولى دافيد بن جوريون رئاسة الحكومة وتولى فايتزمان رئاسة الدولة وبعد دقائق من اعلان قيام إسرايل اعترفت الولايات المتحدة برئاسة هاري ترومان بهذه الدولة وكان الاتحاد السوفيتي ثالث دولة معترفة . وفي ١٩٤٨/٥/١٥ دخلت الجيوش العربية السبعة لتنقذ فلسطين وخاضت معارك مشرفة مع العصابات اليهودية ولكن سياسة التفاوض والهدنة أبطلت قوة هذه الجيوش ووقعت أربع اتفاقات هدنة بين مصر ولبنان والأردن وسوريا من جهة وبين « دولة إسرائيل » من جهة أخرى وضاعت فلسطين ﴿ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ صدق الله العظيم .

د. عيسى بن محمد الماضي

(الفصل الأول)

المؤثر الاقتصادي :

فلسطين بلد زراعي من الدرجة الأولى فقد كانت الحاصلات الزراعية هي عماد الاقتصاد الفلسطيني شأن باقي البلاد العربية وكان ثلث أهالي فلسطين يعيشون على الزراعة وتبلغ مساحة الأراضي الزراعية مليون دونم أي ثلث مساحة البلاد ومن أهم ثروات فلسطين :

١ - الثروة النباتية : وهي :

أ) الأحراج فقد كانت المساحة التي تكسوها الغابات حتى أواخر عهد الانتداب ٣٪ من مساحة البلاد .

ب) المزروعات أهمها الحمضيات التي كانت تزرع على الساحل وتقدر مساحتها بـ(٣٠٠) ألف دونم وقد قدر عدد أشجار البرتقال قبل النكبة بـ١٥ مليون شجرة زاد انتاجها السنوي على ٧٠٠ ألف طن .

جـ) الحبوب وتعتمد في زراعتها على مياه الأمطار ويقدر متوسط ما تنتجه الأرض الفلسطينية من القمح والشعير والسمسم والذرة بـ٣٠٦ ألف طن سنوياً .

د) الزيتون ويصل محصوله حوالي ٤٥ ألف طن سنوياً وقد ينخفض إلى ٥ آلاف طن .

هـ) الخضروات ومعظمها يعتمد في زراعته على مياه الآبار وفلسطين مكتفية ذاتياً منها ما عدا البطاطس - وتوجد فيها الفواكه بأنواعها والتبغ .

٢ - الثروة الحيوانية :

اهتم المزارع الفلسطيني بتربية الأبقار والأغنام والماعز ويقدر عددها بربع مليون رأس لكل منها وقد كان لقرى ومدن فلسطين الساحلية نشاط هام في صيد الأسماك خصوصاً سواحل بحيرة طبرية[1] .

---

(١) جغرافية فلسطين ص٤ .

٣ - الثروة المعدنية :

وأهمها الفوسفات والكبريت ومواد البناء وهي الصخر الكلسي والجير وهناك الأملاح المعدنية وأهمها ملح الطعام والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم وجميع الأملاح موجودة في البحر الميت .

٤ - الثروة الصناعية :

لم تنشأ في فلسطين صناعة معدنية لعدم اكتشاف الحديد والفحم الحجري وقد قامت صناعات خفيفة تعتمد على الخامات الموجودة في البلاد وأهمها استخراج الزيوت من الزيتون والسمسم وصنع الحلوى بأنواعها وطحن الحبوب وصناعة التبغ وصناعة الصابون والمنسوجات القطنية والحريرية وصناعة التحف الخشبية من خشب الزيتون وهناك صناعات أخرى مثل الأسلاك والأنابيب والمسامير وشفرات الحلاقة ولكن على نطاق ضيق(١).

هذا وإن كانت الصفة الرئيسية للاقتصاد الفلسطيني قائمة على الزراعة ولكن الصناعة التي نشأت فيها لا يستهان بها بالنسبة للبلاد المجاورة(٢).

٥ - التجـــارة :

كان لموقع فلسطين المتوسط بين ثلاث قارات أثر في نشاط التجارة فيها منذ أقدم الأزمنة وكانت تصل إليها البضائع من الشرق الأقصى ومن مصر والحبشة لتنقل منها إلى أوروبة وقد كانت القوافل العربية القادمة من اليمن والجزيرة العربية تلتقي في غزة منذ آلاف السنين(٣).

وكان ميناء حيفة وعكة ملتقى قوافل الشرق ومنها تنطلق السفن محملة بالبضائع المختلفة إلى موانىء البحر المتوسط وقد كان لتجار حيفة وعكة وكلاء في فرنسا وإيطالية وأسبانية واليونان وكان التجار الأجانب من إيطاليين ويونانيين مسيطرين على التجارة الخارجية بفضل الامتيازات التي كانت تمنح لحكوماتهم . إلى أن صدر القرار السلطاني لعام

---

(١) جغرافية فلسطين ص٤٢-٥٠ .

(٢) مجلة الطريق جـ١٦ ص٢١ .

(٣) التعلم والتحديث في فلسطين ص٣٥ .

١٨٥٦ والذي قبل وصاية الدول الأوربية على الأقليات المسيحية في الشرق[١] ومنحهم بعض الامتيازات فأقبل المسيحيون الوطنيون على التجارة الخارجية وساعدهم على ذلك انتشار العلم عن طريق الارساليات الأجنبية وإتقانهم للغات الأوربية . كما أن الضغط الأوروبي على الدولة العثمانية جعلها تقبل برسوم جمركية زهيدة وقد استغل موظفو القنصليات الأجنبية من الوطنيين في المدن العثمانية والشرق عامة وكلهم من المسيحيين وظائفهم لاستيراد بضائع باسم القنصلية وبيعها باسمهم وذلك تهرباً من دفع رسوم الجمرك أو الاسراع في ادخال السلع دون دفع رشوة وزاد من ثراء التجار المسيحيين اهتمام مصانع الحرير في مدينة ليون بالانتاج اللبناني السوري عامة خصوصاً ما بين ١٨٤٥-١٨٨٠ فكانوا هم الوسطاء لتصدير هذا الانتاج من خلال احتكاكهم بالأسواق الأوربية وقد أنشأت الارساليات المسيحية خصوصاً الفرنسية صفوفاً لدراسة العلوم التجارية .

وقد استفاد عدد كبير من العائلات المسيحية من الظروف المواتية التي مكنتها من الدخول في جميع المجالات الاقتصادية الممكنة[٢] .

هذا وقد كانت الحضيات تشكل ٧٠٪ من صادرات فلسطين وهي عماد الاقتصاد الفلسطيني ثم الصابون والبطيخ والشعير والذرة والسمسم . أما الواردات فهي المنسوجات والآلات والمأكولات .

التجارة الداخلية :

بين المدن والقرى حيث كانت تقام أسواق أسبوعية مثل سوق الاثنين في اللد وسوق الأربعاء في الرملة وبيسان وسوق الخميس في الجدل وغيرها[٣] .

طرق المواصلات :

يوجد في فلسطين مختلف طرق المواصلات فالسكك الحديدية تمتد من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب وهناك خطوط داخلية أخرى يبلغ طول هذه الخطوط ٥٨٣كم وجميع هذه الخطوط أنشئت في العهد التركي وفي عهد الانتداب البريطاني لم يزد أي

---

(١) التعلم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني جـ١ ص٢٥ .
(٢) التعلم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني جـ١ ص٢٦-٢٧ .
(٣) تاريخ فلسطين ص٢٦٠ .

شيء وهناك موانيء مهمة في حيفة ويافة وغزة وكان في فلسطين ثلاثة مطارات هي مطار اللد ومطار غزة ومطار قلندية في القدس .

الاقتصاد الفلسطيني قبل الاحتلال الانجليزي :

كانت فلسطين معرضاً تجارياً لسلع وبضائع دول أوروبية شأنها شأن باقي البلاد العثمانية فقد كانت المعارض التجارية المتجولة تطوف الموانيء تعرض المصنوعات الغربية بأنواعها[1] وكانت التجارة مقيدة بسلاسل الامتيازات الأجنبية ومغلولة بأغلال المذاهب الدينية التي كانت مدعاة للتدخل الأجنبي في شئون الدولة العثمانية وكان أصحاب المذاهب الدينية يتمتعون بامتيازات كثيرة ويعفون من دفع بعض الضرائب في حين أن المتوطن العثماني المسلم تقع على كاهله ميزانية الدولة العثمانية كلها فقد شاهد عالم الآثار لورتيت نفسه كيف أن أحد المشرفين على أملاك آل سرسق قرب الناصرة يهدم بمساعدة الجند بيت أحد الفلاحين لأنه لم يستطع دفع الديون إلى صاحب الأرض كما ألقي القبض على الفلاح وتركت أسرته في العراء وعلى الرغم من أن أكثر هذه الحوادث هذه جرى في حوالي سنة ١٨٨٠ لكن ظلت هذه الحالة كما هي حتى الحرب العالمية الأولى[2] وقد أدى هذا الوضع إلى العجز عن السيطرة على اقتصاد البلاد بشكل عام وفلسطين بشكل خاص لكثرة المذاهب الدينية وللأطماع الاستعمارية المركزة فيها لموقعها الاستراتيجي والديني الذي أفادها تقديساً من الأديان الثلاث .

ومن مظاهر العجز أنها كانت غير قادرة على نشر نقودها في مملكتها من توحيدها وترويجها بسعرها القانوني . لذا أخذ كل بلد يتداولها كما يريد وتفاوتت الأسعار وتعددت الموازين واختلفت المكاييل .

فالمسافر الذي يزور فلسطين يحتاج إلى درس طويل واختبار كبير لمعرفة النقد وأسعاره وفهم الموزونات والمكيلات ... فكيف به إذا ساح في جميع الأقطار العثمانية[3] فإذا كانت الفوضى قد بلغت هذه الدرجة في الموازين والمكاييل والأسعار .. فكيف تكون الحالة بالنسبة للجوانب الاقتصادية الأكثر أهمية ؟ أضف إلى هذا أن الضرائب كانت تُجْبى

---

(١) مجلة النفائس العصرية جـ٤ مجلد ٢ — ١٩١٠ — ص٢٤٢-٢٤٤ .

(٢) نقلاً عن كتاب التعلم والتحديث في فلسطين ص٥٣ بتصرف .

(٣) تاريخ فلسطين ص٢٥٧—٢٦٠

بالمزاد العلني مما يعطي الوالي التركي في المدينة وأمراء الإقطاع في القرية الحرية في استرداد ما يدفعونه من أتاوات للحكومة من الفلاحين وزيادة ...

وتصور كتب الرحالة أوليفنت ماس حالة الفلاحين في العقدين الثامن والتاسع من القرن التاسع عشر أدق تصوير فقد حدثه الأهالي عن فقرهم الزائد وشاهد هو نفسه نفوذ الملتزمين واضطهادهم للفلاحين وتآمر شيوخ القرية مع الملتزم في افقار القرويين وسلب الأرض مع اعطاء الشيخ حصة منها(١).

والرحالة أوليفنت أرسلته وزارة الخارجية البريطانية لدراسة إمكان استيطان اليهود في فلسطين فدعا بحماس لهذا التوطين على الرغم من تقديره للفلاحين العرب إلا أن النظرة الاستعمارية أوحت له بامكان الاستفادة من هذه اليد العاملة في المزارع المقبلة وأما العشائر النصف الحضرية فيمكن عزلها كما حصل في الولايات المتحدة(٢) وكندة .

الاقتصاد الفلسطيني بعد الاحتلال الانجليزي :

لقد تبدلت الأحوال في فلسطين بعد الاحتلال الانجليزي ونشطت الصناعة نشاطاً ملحوظاً وتركزت بأيدي عدد قليل من أصحاب رؤوس الأموال لأنها اتجهت نحو الاحتكار وتركيز الثروة وقد أصبحت نسبة عدد المشروعات الصناعية الكبيرة في فلسطين عام ١٩٣٧ ٢٧,٧٪ من مجموع الصناعات ونسبة المشروعات الصناعية الصغيرة ٧٢,٣٪ ونسبة عدد العمال المشتغلين بالصناعات الكبيرة ٧٣٪ وفي الصغيرة ٢٧٪ وقد بلغ عدد المؤسسات الصناعية في فلسطين عام ١٩٢٩ (٢٤٧٥) مؤسسة وزاد العدد إلى (٥٦٠٦) عام ١٩٣٧ وتضاعف رأس المال إلى خمسة أمثال وتضاعف الانتاج إلى أربعة أمثال .

وقد أصبحت فلسطين مركزاً لتوظيف رؤوس الأموال الأجنبية وأنشئت عدة بنوك منها البنك الانجليزي الفلسطيني والبنك الصناعي وبنك العمل .

وقد كانت تشترط هذه البنوك الاشراف على المؤسسات الصناعية لأجل مدها بالقروض اللازمة .

وبعد الحرب العالمية الثانية أنشئت مصفاة البترول في حيفا وقد تحسن الاقتصاد في

---

(١) المرجع السابق ص٢٥٠

(٢) المرجع السابق ص٢٥٥

أثناء الحرب الثانية نتيجة لاختفاء أملاح البوتاس التي تصنع منها المفرقعات فتضاعف دخل الفلسطينيين منه وارتفع سعره إلى أربعة أمثال[١].

وكان نصيب العرب من هذه الصناعات قليلاً فنسبة المشتغلين في صناعة الصابون العربية ٥٪ من السكان وقد كانت السياسة البريطانية تتجه إلى دعم الصناعات اليهودية عن طريق تهيئة الظروف الصعبة أمام الصناعات العربية[٢] وقد بلغت أرباح شركة (تنوفا) التي كانت تحتكر الاتجار في المنتوجات الزراعية في المنطقة اليهودية مليوناً من الجنيهات الفلسطينية وقد كانت الصناعات الفلسطينية تقع تحت السيطرة الملكية لرأس المال الأجنبي .

وقد كانت شركة بوتاس فلسطين انجليزية ومالكة لشركة فلسطين للكهرباء ، وكان الاشراف على مالية البلاد من عدة شركات بنكية معظمها انجليزية وكان المسيطر الفعلي على تداول النقد في فلسطين هو (بنك باركليز) في لندن[٣].

ولكن هذه النهضة الاقتصادية لم تستفد منها البلاد كثيراً لأنها كانت موجهة لخدمة القضية الصهيونية من أولها ومن جهة أخرى كانت استثماراً انجليزياً لأجل الربح وليس لانعاش البلاد وتقدمها إذ أن البلاد لم تكن تسير على سياسة اقتصادية سليمة ... إذ أن دخول السلع الحديثة سوق فلسطين وتقبل الناس لهذه السلع وما نتج عنه من تغيير في الاستهلاك أجبر العديد من المصانع على اقفال أبوابها وترك العديد من الحرفيين لعملهم ، كما أن السياسة الاقتصادية الاستعمارية أقفلت أبواب الأسواق العربية المجاورة أمام الصناعة الفلسطينية التقليدية ويؤكد تقرير سمبسون هذا الوضع وفي الوقت ذاته كانت البطالة منتشرة بكثرة آنذاك بين الصناع العرب[٤] وتفاقمت الحال بعد ١٩٣٠ إذ بدأت العصابات الصهيونية بتشريد آلاف العمال العرب لتشغيل العمال اليهود مكانهم وأكثرهم من المهاجرين الجدد ونتج عن هذا الوضع انخفاض في الأجور نتيجة المنافسة الكبيرة بين العمال .

ولتكوين صورة واضحة عن الوضع من مصادر أصيلة يستحسن الاعتماد على تقرير سيمبسون عام ١٩٣٠ وشهادة جورج منصور أمام اللجنة الملكية عام ١٩٣٧ .

---

(١) مجلة الطريق مجلد جـ١٩ ص٤٠٢ .

(٢) مجلة الطريق مجلد ٥ جـ٤ ص٢٦-٢٧ .

(٣) مجلة الطريق مجلد جزء ١٦ ص٥-٦ ، ٢١-٢٢ .

(٤) تقرير سيمبسون ص١٩٢ .

يقول الخبير سيمبسون في تقريره « أمام هذه المعلومات المستقاة من مصادر مستقلة لا مناص لنا من الاستدلال بأن البطالة بين العرب في الوقت الحاضر أصبحت من المظاهر الخطرة في حياة البلاد الاقتصادية ولقد عرض عليَّ أساس معلومات كثيرة من تلقاء أنفسهم عن حالة أجور العمال من العرب فظهر لي أن البطالة قد أثرت في مستوى المعيشة وهذا أمر طبيعي بين العمال غير المنظمين ويستدل من هذه المعلومات على أن أجرة الصناع الحاذقين والنجارين والنحاتين قد انخفضت نحو ٥٠٪ وأصبح الصانع الماهر يشتغل بـ١٥ قرشاً إلى ٢٠ قرشاً في اليوم أما العامل والفلاح فيقتنع بثمانية إلى عشرة قروش وقال لي حاكم مقاطعة القدس إن أسعار العطاءات لمناقصة بلدية القدس في سنة ١٩٣٠ كانت نصف أسعار سنة ١٩٢٩ وقد نجم هذا النقصان في الأكثر عن سقوط أجر العامل العربي ومن يسمع أقوال العمال العرب يتأثر لأحوالهم ويرثى لهم فقد كان كثيرون منهم في الأيام السالفة يتمتعون بقسط وافر من البحبوحة والرخاء فساءت أحوالهم في السنوات الأخيرة[1] .

أما شهادة النقابي جورج منصور فكانت دقيقة وشاملة تعطي صورة محزنة لوضع الطبقة العاملة الكادحة ، فقد جاء في التقرير الذي قدمه :

« فقد قمنا باحصاء آخر في شهر تشرين الثاني نوفمبر سنة ١٩٣٦ لألف عامل في يافا لمعرفة معدل دخل العامل الشهري فحصلنا على النتائج الآتية :

٧٠٠ عامل دخل العامل منهم الشهري يقل عن ٢,٧٥٠ من الجنيهات .

١٧٠ عاملاً دخل العامل منهم الشهري يقل عن ٤,٢٥٠ من الجنيهات .

٧٠ عاملاً دخل العامل منهم الشهري يقل عن ٦,٠٠٠ جنيه .

٤٥ عاملاً دخل العامل منهم الشهري يقل عن ١٢,٠٠٠ جنيه .

١٥ عاملاً دخل العامل منهم الشهري يقل عن ١٥,٠٠٠ جنيه .

وقمنا باحصائية أخرى لمعرفة نسبة المدينين فوجدنا أن ٩٥٪ من العمال مدينون إما لأصحاب الأعمال أو لأصحاب الحوانيت .. وقد تساءلنا كيف يمكن للعامل أن يتدبر معيشته على الرغم من ضآلة هذه الأجور فوجدنا أن الأسرة فيها عدد من المنتجين وهؤلاء جميعاً يتعاونون في الانفاق على البيت وإذا كانت الأسرة خلواً من الأفراد المنتجين فإن

---

(١) تقرير سيمبسون ص١٢٤ .

المرأة وأطفالها يشتغلون خدماً في البيوت وأجرة المرأة الشهرية تبلغ من جنيه إلى جنيهين والولد من ٢٥٠ مليم إلى جنيه . أما تكاليف المعيشة في يافا فغالية جداً وقد قدرت الحكومة النفقات التي تحتاجها الأسرة المتوسطة من عشرين مادة غذائية ضرورية فوجدت أنها بلغت ٥,٥ من الجنيهات وإذا أضفنا إلى هذه ثلاثة جنيهات للسكن وجنيهاً ونصفاً للملبس وجنيهين للنفقات الإضافية (التسلية/ المرض/ التنقليات) وجدنا الأسرة المتوسطة تحتاج إلى (١١,٥٠٠ جنيه) على أقل تقدير وهذا معناه أن ٩٨٪ من طبقة العمال يعيشون في حالة دون المتوسط بكثير وهذا الرقم يفسر أيضاً السبب في اتخاذ العمال السراديب والتخاشيب مسكناً لهم والاكتفاء بالمواد الغذائية الفقيرة طعاماً لهم[1].

ولا بد من القول أنه منذ اليوم الذي وُضِعَت فيه فلسطين تحت الانتداب البريطاني انتهجت في البلاد سياسة اقتصادية واجتماعية يمكنها من تطبيق نصوص وعد بلفور التي تلزم الدولة المنتدبة بوضع فلسطين في احوال تمكنها من إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين وكانت أولى تلك المحاولات أن عينت « هربرت صموئيل » مندوباً سامياً لبريطانيا في فلسطين وهو أحد زعماء الصهيونية في بريطانية . وتحت وطأة الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تعيشها البلاد أمرت الحكومة بتكوين «لجنة لدراسة أحوال المزارعين الاقتصادية في فلسطين . لتقدم تقريرها السنوي إلى جامعة الأمم[2] برياسة و.ج. جونسون . ل أندروز مفتش منطقة نابلس و.أت . أ . ليز مفتش منطقة حيفة وغيرهم من كبار الموظفين الانجليز في فلسطين . وقد نشر الاعلان عن اللجنة في الجريدة الرسمية عدد ٢٥٨ المؤرخ في «آيار سنة ١٩٣٠»[3]. وقد تجولت اللجنة في مختلف أنحاء فلسطين وأقامت دراستها على القرى المذكورة في إحصاء ١٩٢٢ وعددها ٨٤٤ قرية وقد ورد في ذلك الإحصاء أن عدد سكان فلسطين يبلغ ٧٥٧١٨٢ نسمة منهم ٣٨٩٥٣٤ من سكان القرى عدا مناطق العشائر وتبين اللجنة أن معدل الزيادة السكانية في الريف بلغت $\frac{1}{3}$ ٣٣٪[4].

---

(١) الشهادات الأساسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين ص٢٨٧-٣٠٢ .

(٢) النظام الاقتصادي في فلسطين سعيد حمادة المقدمة .

(٣) حكومة فلسطين تقرير اللجنة التي عينت لدرس حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين والتدابير التي تتخذها الحكومة بشأن الضرائب بالنسبة لتلك الحالة ص أ .

(٤) المصدر السابق ص٥ .

ونحن لا يمكننا في هذا المقام أن نفصّل ما أوردته اللجنة من مختلف التقارير عن أحوال المزارعين في الريف الفلسطيني ولذلك نكتفي بالإشارة إلى التقارير التي تبين المعوقات القائمة في طريق تقدم المزارع الفلسطيني وأهمها الضرائب الفاحشة ونظام ملكية الأراضي ثم إهمال الدولة للمزارع من حيث تقديم القروض إليه أو ارشاده للزراعة الحديثة والمنافسة الأجنبية لمحاصيله وقد ختمت اللجنة تقريرها بتوصيات أهمها :

أ - على الحكومة أن تعمد إلى القيام بتجارب زراعية على مرأى من المزارعين تدريب القرويين على اتباع أساليب زراعية أفضل من التي يتبعونها الآن وأن تعين هيئة استثمارية لإيجاد الأسواق كما يعهد إليها باسداء النصح والمشورة للمزارع بشأن تصريف حاصلاته وبيعها .

ب - وجوب تأسيس هيئات تعاون في القرى يعهد إليها بإصدار قروض زراعية وبعدئذ شراء اللوازم الزراعية وتحسين الزراعة في القرى وإيجاد أسواق للحاصلات وتعيين خبير لاسداء النصح للحكومة بشأن الطرق التي تؤدي إلى تحقيق هذه الغاية .

جـ - التخفيف قليلاً عن دافعي الضرائب في الأرياف اعتباراً من أول شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٠ بتنزيل ضريبة العشر إلى ٧ ويرفع ضريبة الأملاك في المدن لتلافي هذا النقص .

د - على الحكومة أن ترصد في سنة ١٩٣٠ مائة ألف جنيه فلسطيني لتوزيع قروض قصيرة الأجل على صغار المزارعين لتمكنهم من زراعة أراضيهم في الموسم المقبل[١] .

هذا بعض ما أوردته اللجنة بخصوص المزارع العربي في فلسطين . ويجدر بنا أن نذكر ما أوردته اللجنة بخصوص المزارع اليهودي لتكون الصورة الاقتصادية شاملة .

ذكرت اللجنة تحت عنوان حالة المزارع اليهودي المالية قبل ١٩٢٩ :

(..... ومن رأينا على العموم أن الدخل الاجمالي للمزارع اليهودي هو تقريباً ضعف

---

(١) تقرير اللجنة ص٢٥-٣١ . بتصرف

المزارع العربي من أرض بنفس المساحة ومن الجهة الأخرى نجد أن ما ينفقه على الانتاج وعلى معيشته يزيد كثيراً على ما ينفقه المزارع العربي وبالتالي نرى المزارع اليهودي ملزماً بإيجاد مبلغ كبير من المال لتحسين أرضه ولدفع فائدة القروض التي استدانها ثم إن الزراعة اليهودية منظمة تنظيماً جيداً كما أن لدى المزارع اليهودي طرق عديدة للاستقراض وبالإيجاز نرى حالة المزارع اليهودي ميسورة ولديه العدد والأدوات الزراعية لتحسين زراعته أكثرها مما هي ميسورة لدى المزارع العربي ومستوى معيشته أرفع وهو يتمتع بوسائل اجتماعية وثقافية مجهولة لدى المزارع العربي[1].

عبء الضرائب على المزارع اليهودي :

جاء في تقرير اللجنة : « ... فإن ما يدفعه المزارع اليهودي من الضرائب بالنسبة إلى دخله الصافي أقل مما يدفعه المزارع بالنسبة إلى دخله الصافي وهذا رأي مزارعي اليهود في المستعمرات يؤيد هذه النظرية فقد أفهموا اللجنة أنه لا يعدون الضرائب نبذة مهمة من نفقاتهم بالنسبة لغيرهم[2].

حالة المزارع اليهودي المالية في الوقت الحاضر :

لا مندوحة لنا عن القول بأن المزارع اليهودي كالمزارع العربي قد عانى من هبوط أسعار الحاصلات في المدة الأخيرة ومع ذلك قيل في إحدى المستعمرات أن هبوط الأسعار عاد بالفائدة وليس بالضرر على المزارعين ذلك لأن أسعار الحاجيات الأخرى هبطت أيضاً وأصبح في وسع المزارع أن يحسن مستوى معيشته مع هبوط قيمة حاصلاته .

ومثال ذلك متى ارتفع ثمن البيض يشعر المزارع أنه مضطر إلى بيعه جملة أما متى

---

(١) تقرير اللجنة التي عينت لدراسة حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين ص٦٩ .

(٢) تقرير اللجنة ص٧٠ أقول لأنه ليست الضريبة بحد ذاتها هو العبء بل مقدار دخل المزارع هو العبء فإن إسرائيل اليوم تتقاضى ٧٥٪ من الإيراد العام كضرائب ومع هذا فإن مستوى المعيشة في إسرائيل مرتفع جداً .

كان رخيصاً فإنه يبقيها له ولأسرته[1]

أقول هذا صحيح بالنسبة للمزارع اليهودي لأنه يجد الوكالة اليهودية تسدد له نفقات معيشته الأخرى متى احتاج لذلك فإنه يغتبط لانخفاض الأسعار لأن الحاصلات ستكون من نصيبه ونصيب عياله أما المزارع العربي فليس له مورد آخر سوى حاصلاته .

كما أرسلت الحكومة الانجليزية أيضاً إلى فلسطين لجنة للبحث في تشكيلات إدارة فلسطين وفي الطرق التي تؤمن زيادة الواردات ونقص النفقات . فكتب الأستاذ محمد عزة دروزة عدة مقالات في جريدة الجامعة العربية ثم جمعها في رسالة واحدة تحت عنوان « كتاب مفتوح إلى اللجنة المالية الانجليزية » وقد نوه في مقدمة الكتاب بالآمال المعلقة على اللجنة مشيراً إلى الضرائب الفاحشة التي يدفعها المكلف الفلسطيني والتي هي أكثر من ٦٠٪ من الانتاج العام طالباً موازنة الوضع المالي في سورية ولبنان لتشابه الظروف السياسية والاجتماعية والمعيشية والعمرانية مع غض النظر عما في سورية من أرض واسعة ومدن كبرى مما يجعلها أقوى اقتصاداً ، من فلسطين ثم يدعو إلى المقايسة بين ما هو موجود في فلسطين وما هو موجود في سورية ولبنان من تشكيلات ومرتبات ونفقات وإيرادات وضرائب وسكان وثروة وانتاج .

مقايسة بين ميزانيات سورية ولبنان وفلسطين :

يقول الأستاذ دروزة : « ..... وأريد أن أقدم بعض نماذج لترى – أي اللجنة – كم أن الفلسطينيين معذورون حينما يعتقدون أنهم مظلومون جداً دون إخوانهم في سورية ولبنان وأن أعباءهم المالية أشد جداً من أعباء أولئك الإخوان ... أريد أن أقول أن عدد السكان في لبنان حسب آخر احصاء ٨٢٥,٠٠٠ نسمة تقريباً وسورية ١,٦٣٠,٠٠٠ نسمة تقريباً وفلسطين ٨١٦,٠٦٤ نسمة تقريباً كما جاء في الكتاب الأزرق سنة ١٩٢٩ عدا البدو الرحل وإلى هنا نرى أن عدد سكان فلسطين يتقارب مع عدد سكان لبنان .

إن اعتمادات نفقات الحكومة اللبنانية ١٩٢٩ (١,٠١٤,٧٨٤) جنيهاً فلسطينياً واعتمادات

(1) تقرير اللجنة ص١٧ .

الحكومة السورية ١٩٢٩ (١,٨٠٨,٥٢٢) جنيهاً فلسطينياً ، واعتمادات نفقات حكومة فلسطين ١٩٢٩ (٢,٧٨٣,٦٤٦) جنيهاً فلسطينياً .

وإذا أنزلنا من هذا الرقم اعتمادات السكك الحديد التي ليس لها مقابل في ميزانية لبنان وسورية البالغة (٣٩٢,١٩٢) جنيهاً فلسطينياً وكذلك دائرة المكوس والجمارك (٦٦,٨٠٤) جنيهات فإن الصافي لاعتمادات حكومة فلسطين عام ١٩٢٩ هو (٢,٣٢٤,٦٥٠) جنيهاً فلسطينياً أي أكثر من اعتمادات حكومة لبنان وأكثر من اعتمادات حكومة سورية التي سكانها ضعف سكان فلسطين بنسبة ٢٣٠٪ للبنان و١٢٩٪ لسورية وبمضاعفة هذه النسبة لتضاعف السكان تصبح ٢٥٨٪ وأظن أن هذه المقاييس اليسيرة كافية لتصوير الظلم السني كان يقع على أهل فلسطين من جراء النفقات التي تتقاضاها منهم إدارة حكومتهم[1] .

أسباب الفروق بين نفقات سورية ولبنان وبين فلسطين :

أولاً : رواتب الموظفين :

في لبنان ٤٧ موظفاً فرنسياً رواتبهم ٢٠,٤٣٩ جنيهاً فلسطينياً ١٩٢٩ وفي فلسطين ٢١٣ موظفاً انجليزياً ما عدا الموظفين اليهود من الانجليز رواتبهم ١٦٠ ألف جنيه فلسطيني عدا ميزانية المندوب السامي وموظفي دائرته مع التخصص الإضافي مبلغ ٨٧٤٠ جنيه فلسطيني فيكون مجموع ما يتقاضاه الموظفون الانجليز الكبار ١٧٠ ألف جنيه فلسطيني تقريباً فتكون نسبة الموظفين الانجليز في فلسطين إلى ما يوجد في لبنان ٤٥٢٪ وإلى ما يوجد في سورية ٢١٥٪ .

وإذا ضاعفنا النسبة تصبح ٤٣٠٪ .. أي .. أن راتب أعلى قاضي فرنسي في سورية ١٠١٤ جنيهاً فلسطينياً وهو أعلى راتب يتقاضاه موظف فرنساوي في سورية ولبنان على الاطلاق وأعلى راتب يتقاضاه قاضي فرنساوي في لبنان هو ٦٢٧ جنيهاً فلسطيني بينما راتب أعلى قاضي انجليزي في فلسطين ١٦٠٠ جنيه فلسطيني وفي الأملاك والأراضي راتب

---

(١) كتاب مفتوح إلى اللجنة المالية الانجليزية ص٧ .

أعلى موظف في سورية ٦٧٢ جنيهاً في لبنان ٧٢٢ جنيهاً وفي فلسطين ١٤٠٠ جنيه[1] وهكذا يستمر الأستاذ دروزة في سرد فروق الرواتب بين سورية وفلسطين ولبنان ثم يقول الأستاذ دروزة :

« ويمكنك أن تقيس رواتب الموظفين الآخرين بهذا المقياس طبعاً وأحب أن يلاحظ القارئ أنني ذكرت الرواتب مجردة من العلاوات وبدلات السكن وبدلات الاغتراب وعليه أن يقدرها بما يتقاضاه الانجليزي والفرنسي من ذلك بحسب ما يوجد بين رواتبه من فرق عظيم ويكفي أن أذكر مثلاً واحداً على هذه العلاوات وهو أن السكرتير العام لفلسطين الذي يتقاضى ١٦٠٠ جنيه فلسطيني يتناول أيضاً ١٢٤٧ جنيهاً باسم بدل اغتراب بينما لا يوجد إلا شيء زهيد جداً في ميزانيتي لبنان وسورية بصرف علاوات للموظفين الفرنسيين مثلاً تعويض سكني لرئيس محكمة ١٠٣٣ ليرة سورية وتعويضات أسرية ٩٨٣ ليرة لخمسة قضاة فرنساويين في ميزانية ١٩٢٩ وكذلك يلاحظ أن دائرة المفوض السامي الفرنساوي في سورية ولبنان وما يتبعها من تشكيلات خاصة به وبوكلائه أو مندوبين له خارج بيروت التي هي المفوضية يتقاضى مخصصاتها من ميزانية الدولة الفرنساوية لا من خزانة الحكومة الوطنية بينما تدفع مالية فلسطين كل شيء لكل موظف انجليزي سواء في ذلك دائرة المندوب السامي أو غيرها من الدوائر[2].

وبعد أن يوازن الأستاذ دروزة مديري الناحية والقايمقامية والأطباء وغيرهم بين فلسطين وسورية ولبنان يقول :

« وأظن أن هذه الأمثلة تكفينا مؤونة الموازنة من ذكر أمثلة ومقايسات أخرى للدوائر الأخرى فإن مقايسة الرواتب والدرجات في كل دائرة من دوائر فلسطين مع مثيلاتها من دوائر سورية ولبنان تؤدي بنا إلى النتيجة نفسها وهي أن رواتب فلسطين مع ملحقاتها مرة ونصف مرة ومرتين ونصف مرة أحياناً على مثيلتها التي في درجتها في سورية ولبنان ثم يستمر الأستاذ دروزة في عمل مقايسات بين لبنان وسورية وفلسطين في تشكيل الحكومة وعن موظفيها وفي الأمن العام ونفقاتها الفاحشة موازناً بين رواتب الإنجليز والفلسطينيين ممن هم في الرتبة نفسها وكذلك سائر دوائر الحكومة ثم تطرق إلى

---

(١) المصدر السابق ص٨-١٠ . (بتصرف)

(٢) المصدر السابق ص١٠-١١ . (بتصرف)

عجز البلاد المالي وأن هذا العجز يسدد من الضرائب الفاحشة التي يدفعها الشعب ووازن بين سعر الحاجيات في فلسطين وسورية ولبنان وكذلك رسوم المحاكم الفلسطينية والسورية واللبنانية ثم يوضح الأستاذ دروزة في خاتمة التقرير مغالطة الانجليز عندما يواجهون بهذه الحقائق حيث أن الضرائب قد وصلت إلى ٦٠٪ من انتاج البلاد وهم يقولون أن النسبة نفسها تؤخذ أيضاً من الانجليز في بريطانية بل وزيادة وعلى حد المثل « من ساواك بنفسه ما ظلم » يقول الأستاذ دروزة :

« إن هذه الحجة مغالطة إذ أن فلسطين يجب أن تقاس بأمثالها من حيث الظروف والثروة والمقدرة على الانتاج مثل سورية ولبنان » .

أما جزر بريطانية فإنها تجني لها خيرات امبراطورية تبلغ ٤٠٠ مليون نسمة وفيها من المصانع والمعامل والمشاريع ما يغذي أسواق هذه الامبراطورية العظيمة وهناك فرق بين إنسان يكسب ألفي جنيه فيدفع مائتين وألف جنيه ويبقى له ٨٠٠ جنيه تقوم بأوده وزيادة وبين رجل يكسب أربعين فيدفع منها ٢٤ جنيهاً ويبقى له ١٦ جنيهاً لا تكاد تبلغ كلفة قوته علماً بأن أكثر الأسر وهي أسر العمال والمزارعين لا يزيد معدل كسبها عن ٣٠ جنيهاً أو ٢٠ جنيهاً فأخذ ٦٠٪ من هذا الكسب الزهيد هو في منتهى الظلم والقسوة التي لا تجيزها أي عاطفة إنسانية[1] .

أقول ومن خلال هذه الظروف الاقتصادية الصعبة خطط الانجليز واليهود لامتلاك الأراضي الفلسطينية فقد كتب أوسيكشين وهو من زعماء اليهود في إحدى مجلاتهم عن افتداء اليهود للأراضي المقدسة فقال :

« ... فإن لم نستملك نحن أيضاً أراضي فلسطين ونستثمرها بإنشاء القرى فلا أمل في أن نجعل فلسطين وطناً لنا وستبقى عربية وليس صعباً على اليهود عاجلاً أو آجلاً أن يحتكروا التجارة والصناعة والتعليم أما امتلاك الأراضي فليس في وسعنا إنما هو منوط بالبائع إننا نرى العرب قد انتهى فكرهم إلى صالحهم وأصبحوا يشعرون بكيانهم ومن ثم

---

(١) كتاب مفتوح إلى الحكومة الانجليزية ص٢٦-٢٧ بتصرف .

تحسب كل تأخير في امتلاك الأراضي الفلسطينية جرماً لا يغتفر ، إن مساحة الأراضي في فلسطين تبلغ عشرين مليون من الدونمات للحكومة ٣٠٪ ، ٣٥٪ أملاك الفلاحين ، ٣٥٪ للملاكين الأغنياء أمامنا إذن فئة الأفندية والأغنياء الذين لا يأبون بيع أملاكهم إن وجدوا ربحاً في بيعها وغايتنا خاصة امتلاك سهل أسدرلون « مرج ابن عامر » وساحل البحر والبلاد الممتدة بين يافا والقدس من هؤلاء الأفندية[1].

ومن هنا يظهر لنا أن مستقبل الأراضي الفلسطينية كان بأيدي الانجليز وكبار الملاكين وقد تسربت أملاك الحكومة وأملاك الأفندية من العرب خارج فلسطين أمثال سرسق وغيرهم إلى اليهود واشتروا أرض الناصرة من الحكومة[2].

أما كيفية انتقال هذه الأراضي إلى سرسق وغيرها من العائلات فهي في منتهى الغرابة . حدثني الشيخ طه المولى المستشار الصحفي والثقافي لسفارة تشاد في بيروت في ١٩٧٥/١/١٣ فقال :

« إن الدولة العثمانية منذ أن بدأت الدول الغربية في التسلط عليها وحماية الأقليات الدينية فيها حتى إن هذه الأقليات كانت تعفى من دفع الضرائب وعندما كان يأتي محصل الضرائب لأخذ حق الدولة من المحصول الزراعي كان الفلاحون يتهربون من دفع هذه الضرائب بادعاء أن هذه الأراضي ليست ملكهم وهي ملك سرسق مثلاً وما هم إلا فلاحون لخدمة الأرض وكان الموظف المختص يسجل هذا في سجلاته حتى عرفت هذه الأراضي أنها ملك لهذه الأسر بصفة رسمية عند الدولة ولما خضعت فلسطين للاحتلال الانجليزي انتقلت هذه السجلات والقيود إليهم ولما بدأت المنظمات اليهودية في امتلاك الأراضي لتكوين مستعمرات لتثبيت أقدامهم توجهوا إلى هذه الأسر في لبنان والتي فوجئت بأن لها أراضٍ واسعة في فلسطين وتم البيع فما كان من الانجليز إلا أن طردوا هؤلاء الفلاحين الأبرياء من أراضيهم التي فوجئوا أيضاً ببيعها وليس لهم ذنب إلا سذاجتهم » .

ويخبرنا أوليفانت في أحد كتبه أن بيت سرسق اشتروا عام ١٨٧٢ مرج ابن عامر بسعر ١٨ ألف جنيه ولم يدخل صندوق الدولة العثمانية إلا ستة آلاف جنيه بسبب

(١) نقلاً عن مجلة المشرق عدد ٢ ص٢٧ سنة ٢٣ شباط ١٩٢٥ .

(٢) تاريخ الناصرة ص١٧ .

الرشوة والسرقة وقدر دخل هذه الأسرة السنوي من السهل وعن طريق استغلال الفلاحين ٢٠ ألف جنيه وقد اشترى هذا السهل الصندوق القومي اليهودي في أوائل العقد الثالث من القرن الحالي[1].

وهناك بعض التجار الذين استغلوا الدعوة القومية والاصلاحية في سبيل أطماعهم ولو دققنا النظر في أسماء أعضاء الجمعية الاصلاحية في بيروت عام ١٩١٣ ، لوجدنا بينهما أكثر التجار الكبار الذين أدوا أدواراً كبيرة في الصفقات التجارية والمالية وهي التي كانت قد ألحت في طلب اللامركزية وإحلال اللغة العربية محل اللغة التركية .

بل أن بعض رجال الجمعية العمومية مثل سليم علي سلام ومختار بيهم وآخرين استغلوا إيجابية الاتحاديين في الآستانة نحو مطالبهم بالحصول على التزام تجفيف مستنقعات الحولة ومساحتها ٥٠ ألف دونم وبعد الحرب طلب سليم سلام من الأمير فيصل التدخل – خلال إقامته في لندن – لدى الحكومة البريطانية لتثبيت هذا الالتزام وتنازل في ١٩٣٤ للصندوق القومي اليهودي مقابل مبلغ جسيم[2].

كما حدثني الشيخ طه الولي أيضاً بأن السيد سليم سلام لما عرض عليه الصندوق القومي اليهودي شراء أراضي الحولة بمبلغ مئة ألف ليرة اتصل بالمرحوم الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين وزعيم نضالها لأجل شراء الأراضي فأجابه المرحوم الحسيني بأن هذه الأرض ليست ملكاً له لأنه لم يشترها بماله ولم يرثها عن آبائه وأضاف إلى ذلك أن صندوق الجهاد الفلسطيني لا يملك هذا المبلغ ولكن الصفقة تمت مع الصندوق القومي اليهودي[3].

وهناك عائلات سورية ولبنانية ومن كبار الموظفين والمتنفذين في الدولة العثمانية كانت لهم أملاك في فلسطين على اعتبار أن بلاد الشام بلد واحد في زمن الحكم التركي وقد كانت الحكومة التركية تأخذ عشر الانتاج والباقي يتقاسمه المزارع الفلسطيني مع صاحب الأرض ولما تنبه المواطنون إلى أهداف الصهيونية في فلسطين رفض هؤلاء أن يبيعوا أرضهم فاحتالت الحكومة البريطانية عليهم باصدار قانونين الأول – يقضي بأن لا يخرج المزارع من أرضه بسبب ولا بغير سبب وقد سمى الانجليز هذا القانون حماية المزارعين كما

---

(١) نقلاً عن التعليم والتحديث ص٣٧ .

(٢) القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ج١ ص٩٥–٩٦ .

(٣) المقابلة تمت في بيروت في ١٩٧٥/١/١٣ .

سمي القانون الثاني « قانون الضرائب » وينص على أن المطالب بضريبة الانتاج هو المالك أما المزارع فإنه معفى منها كليةً وهو بهذا يحرض المزارع على التنكر للمالك صاحب الأرض والامتناع عن دفع حصته من انتاج الأرض، ولذلك وجد الملاكون السوريون واللبنانيون أنفسهم بلا أرض وهم مطالبون بدفع الضرائب عليها بالإضافة إلى أن معظمهم قد نزح إلى موطنه بعد أن أصبحت فلسطين دولة مستقلة وكذلك كل من سوريا ولبنان، وبهذه الطريقة الشيطانية استطاع اليهود أن يمتلكوا مليوني دونم[1].

هذا وقد استطاع المجلس الإسلامي الأعلى شراء الأراضي التي كان يضطر أصحابها لبيعها لسبب ما، وقد اشترى بمبلغ ٤٥٠ ألف جنيه بالإضافة إلى وجود جمعيات تأديبية كونها المناضلون الفلسطينيون لقتل كل من يبيع أو يتعامل مع اليهود في بيع الأراضي ولذلك فإن الأراضي التي انتقلت إلى اليهود كانت قليلة جداً - بالبيع - وإن معظم ما حصلوا عليه كان عن طريق المندوب السامي البريطاني حيث سجلت الأراضي التي تملكها الدولة باسمه لذلك كان يعطي منها ما يشاء لمن يشاء، وقد سلكت إسرائيل نفس الطريق في تملك أراضي الدولة في الضفة الغربية عام ١٩٦٧م[2].

من هنا يتبين لنا بطلان الشائعة التي تقول إن الفلسطينيين باعوا أرضهم وهي أكذوبة أطلقها الصهاينة وتقبلها العرب[3] علماً بأن المزارع الفلسطيني يخاف أن يبيع أرضه لأنها مورده الوحيد ويخاف أن ينفق ثمنها على معيشته ثم يقعد ملوماً محسوراً لأنه

---

(١) راجع مذكرات د. وايزمن ص٥٧ تعريب فتح الله محمد مشعشع، نقلاً عن كتاب « افتراها الصهاينة وصدقها العرب » فهد المارك ص٤٧-٥٢ (بتصرف).

(٢) أذاعت هيئة الإذاعة البريطانية في لندن في برنامجها « العلم هذا المساء » يوم السبت الموافق ١٩٨٢/٢/٥، ١٤٠٣/٤/٢٢ حديثاً عن كيفية امتلاك إسرائيل للأراضي في الضفة الغربية بعد ١٩٦٧ نقلاً عن مجلة التايز اللندنية جاء فيه:

« لجأت الحكومة الإسرائيلية إلى امتلاك الأراضي في الضفة الغربية عن طريق القانون العثماني القديم الذي يخول السلطان امتلاك الأرض التي لم تسجل بوثائق رسمية ولم تكن الأراضي المسجلة بوثائق رسمية بأكثر من $\frac{1}{3}$ مساحة الأراضي، وهي أراضي المدن لأن تسجيل الأراضي والحصول على وثائق بها كان من أصعب الأمور وأعقدها لدى الدولة العثمانية. واليوم فقد لجأت إسرائيل إلى امتلاك الأراضي في الضفة الغربية بهذه الطريقة حيث تعلن أنها ستمتلك الأراضي الفلانية فمن كان عنده وثيقة بتملكها فعليه أن يبرزها أمام المحكمة خلال ٢٢ يوماً من تاريخ الاعلان وبهذه الطريقة تستطيع إسرائيل امتلاك ٥٥٪-٦٠٪ من الأراضي الفلسطينية ». هذا نموذج من الطرق الملتوية التي حاولت وتحاول إسرائيل اتباعها لتملك الأرض وطرد أهلها.

(٣) كما يقول الأستاذ فهد المارك رحمه الله في كتاب له بعنوان « افتراها الصهاينة وصدقها العرب ».

لا يحسن الصناعة أو التجارة ، والذي تقوله – أيضاً – هل أخرج الفلسطينيون الذين باعوا أرضهم فقط لنقول هذا جزاؤهم أم كان الاخراج لجميع الفلسطينيين . علماً بأن إسرائيل لا تقول في المحافل الدولية أنها أخرجت الفلسطينيين لأنهم باعوا أرضهم بل لأن لها حقاً تاريخياً يمتد إلى أكثر من ألفي سنة ، ولأن تملك الأراضي لا يعطي المالك أي حق سياسي على هذه الأرض .

الفصـــل الثانـــي

المؤثر الثقافي :

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت البلاد العربية التابعة للخلافة تعيش أضعف عصورها الثقافية وإلى هذا يشير الأستاذ بطرس البستاني يصف حال الثقافة في زمانه سنة ١٨٥٩ وما قبلها في أسلوب تهكمي حيث يقول :

« لو كلفت الوقوف أمام سيادتكم لأجل الكلام عن هذا الموضوع – الثقافة والتعليم نحو ثلاثين سنة قبل الآن لكنت أخجل ... لأنني حينئذ كنت التزم أن أجول في أسواق هذه المدينة – حتى لا أقول في كامل البلاد التي كانت في الأزمان السابقة مُرْضِعةٌ للآداب وسريراً للتحدث – وأفتش باجتهاد على من يقدر أن يقرأ مكتوباً أو كا يقال « يفك الاسم » ثم يقول « وأما الآن فإنه يوجد أمور كثيرة تقوي آمالنا في المستقبل ومع إننا مدينون في أكثر هذه الأمور للغرب يمكننا أن نرفع رؤوسنا بما وجد عندنا من الثقافة مع قطع النظر عن مصدرها »[1].

وفي هذا القول دلالة على مدى الجهل الذي وصلت إليه هذه البلاد وفيها إشارة إلى مطلع نهضة ثقافية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مدينة للغرب بالفضل والولاء - وكان من أهم بواعثها :

أولاً : التعلـــيم :

كان التعلم في الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر يكاد أن يكون دينياً فهناك معاهد دينية يتعلم فيها الصغار ومعاهد أخرى للكبار وكان بعضها ملحقاً بالمساجد وبعضها مستقلاً في مبان مشيدة لهذا الغرض مع مساجد خاصة بها وكان أسلوب التعليم فيها قديماً لم يتغير منذ عدة قرون بل تقهقر إلى تعليم العلوم النقلية فقط ونتيجة

---

(١) عمالي الشرر لكتاب القرن التاسع عشر ص٢٨ .

للاحتكاك بالدول الأوروبية في النصف الأخير من القرن الثامن عشر والأول من القرن التاسع عشر فقد تفتحت أنظار المفكرين إلى عدم كفاية هذا النوع من التعليم إذا ما أرادت الدولة أن تواكب حضارة العصر ولعل الضرورات الاجتماعية المتولدة عن هذا الاحتكاك هي التي أوحت بضرورة هذا التحديث للتعليم وليس « الترتيب المنطقي » .

كما إنه من المفروض أن الهزائم العسكرية المتلاحقة التي منيت بها الدولة العثمانية أمام الجيوش الأوربية جعلتها تفكر في أسباب هذه الهزائم فوجد المفكرون أن السبب الأصلي يعود إلى اختلاف نظمها وتغير وسائلها عما في البلاد الأوروبية مما حمل رجال الحكم على اقتباس هذه النظم والوسائل لجعل الجيش قادراً على الصمود أمام الجيوش الغربية الحديثة ولما كان تعلم الفنون العسكرية الحديثة يحتاج إلى معرفة الكثير من علوم الرياضة والطبيعة وشيء غير قليل من مبادئ التاريخ والجغرافية نشطت هذه العلوم في المدارس العسكرية أولاً فأنشئت الاعدادية العسكرية ثم الرشيدية[1] العسكرية ليتمكن الطالب من التأهل بالعلوم الكافية ليلتحق بالمدارس العسكرية الاختصاصية التي تقوم مقام المدارس العليا التي كان مركزها عاصمة الدولة .

وقد أخذت البلاد العربية بنصيب وافر من هذه السياسة ولذلك رأينا الكثير من أبنائها يدرسون في تلك المدارس العسكرية الاختصاصية في العاصمة . أما المدارس التعليمية الحديثة « الملكية » التي لم تتسم بسمة عسكرية فلم تنشأ إلا لتخريج الموظفين الذين تحتاجهم الدولة في مختلف المصالح الحكومية .

هذه هي بواعث النهضة التعليمية الحديثة – بشكل عام – في مختلف الولايات العثمانية ومنها فلسطين وينبغي التنبيه هنا إلى أن التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية التي أنشأتها الدولة العثمانية في البلاد العربية كان يجرى باللغة التركية بوجه عام وقواعد اللغة العربية كانت تدرس في هذه المدارس بقدر ما كانت تدرس وكما كانت تدرس في الولايات التركية لأنها كانت من جملة القواعد المستعملة في التركية فكان لا بد من معرفتها لفهم الأدب التركي واتقان الإنشاء التركي[2]. ونظراً لأن الرابطة التي تجمع الشعوب العثمانية هي الرابطة الدينية لذلك كانت سلطة الدولة وقوانينها موجهة

---

(١) أي الثانوية العسكرية .

(٢) حولية الثقافة العربية ساطع الحصري ص٧-٩ .

إلى المسلمين مباشرة أما الطوائف الأخرى فقد ضعفت سيطرة الدولة عليها في المدة الأخيرة نتيجة لتدخل الدول الغربية في شؤونها الخاصة حتى جعلت من هذه الطوائف مركزاً لأطماعها أولاً ثم وسيلة للتدخل الاستعماري بحجة حمايتها ثانياً .

التعليم الطائفي في الدولة العثمانية :

يقول الأستاذ ساطع الحصري « إن السياسة الداخلية التي كانت متبعة في الدولة العثمانية تعد كل طائفة من الطوائف الدينية والمذهبية – من غير المسلمين – «جماعة قائمة بنفسها» فكانت تمنح تلك الجماعات امتيازات خاصة في كل ما يمت بصلة إلى الشؤون الدينية والمذهبية وكان الرئيس الديني – البطرق أو الأسقف أو المطران يعد رئيساً للجماعة ويعمل بالاتفاق مع «مجلس ملّي» خاص يتألف من فرعين : أحدهما «روحاني» والثاني «جسماني» وكانت هذه المجالس العلمية بمثابة السلطة الشرعية في كل ما يتعلق بشؤون الكنائس والأديرة وفي كل ما يتعلق بالأحوال الشخصية وقد جعلت الدولة العثمانية شؤون التعليم من جملة الأمور المرتبطة بالأديان والمذاهب فخولت جميع الطوائف المسيحية والإسرائيلية حق تأسيس المدارس وإدارتها أيضاً .

ولهذا السبب أخذت الطوائف المختلفة تؤسس معاهد تعليمية خاصة بها وتدير هذه المعاهد كما يروق لها . وكانت هذه المدارس الطائفية في بادئ الأمر من نوع المدارس الدينية حقيقة غير أنها تبدلت بعد ذلك بسرعة وتحولت إلى « معاهد تعليمية عصرية » بكل معنى الكلمة وكانت هذه المدارس تسير على مناهج خاصة بها تختلف باختلاف أديان الجماعات ومذاهبها ولا تمت بأية صلة إلى مفاهيم المدارس الحكومية واتجاهاتها ، وكثيراً ما كانت تستلهم خططها ومناهجها من المدارس الأجنبية المؤسسة داخل البلاد العثمانية أو من المدارس العثمانية نفسها وذلك حسب العلائق الدينية أو المذهبية التي كانت تربط الجماعة بتلك البلاد الأجنبية .

ولقد كانت الحقوق الممنوحة للجماعات في أمر التعليم تشمل « لغة التعليم » أيضاً فكان يحق لكل جماعة أن تعلم أبنائها باللغة الشائعة بينها فكان للأرمن أن يعلموا باللغة الأرمنية وللبلغار باللغة البلغارية ولذلك كان للمسيحيين العرب أن يعلموا باللغة العربية وهكذا نرى أن السياسة التي سارت عليها الدولة العثمانية في هذا المضار أدت إلى نتائج غريبة جداً بالنسبة للبلاد العربية . فكان نظام الجماعات الذي ذكرناه خاصاً بغير

المسلمين فلم يتمتع المسلمون العرب بشيء من التنظيمات والامتيازات التي كان المسيحيون يتمتعون بها في أمور المدارس والتعليم .

ولذلك انحصرت المعاهد التعليمية المفتوحة أمام هؤلاء في المدارس الوقفية القديمة التي لم تنل أي حظ من الاصلاح وفي المدارس الرسمية التي كانت تعلم باللغة التركية في حين أن المسيحيين كانوا قد كونوا جماعات منظمة باسم القانون وأسسوا مدارس خاصة بهم وجعلوا اللغة العربية لغة التعلم فيها . ولهذا السبب انتشر التعليم العربي الحديث بين المسيحيين قبل المسلمين ولهذا السبب أيضاً كان معظم الكتّاب والمؤلفين والخطباء الذين ظهروا في الولايات العربية في العهد العثماني مسيحيين على الرغم من قلة هؤلاء بالنسبة للمسلمين .

ومما يلفت النظر أن المدارس الأجنبية أيضاً أثرت تأثيراً مماثلاً لذلك في هذا المضار حيث أنها أخذت تهتم باللغة العربية بغية اجتذاب أبناء الشعب من جهة وتسهيل التأثير فيهم من جهة أخرى ، وبما أنها كانت في بادئ الأمر من نوع المدارس التبشيرية عامة التي تأخذ طلابها من غير المسلمين بوجه عام وبذا ساعدت على انتشار التعليم العربي بين هؤلاء أكثر من انتشاره بين المسلمين وقد أدت المدارس الأجنبية في العهد العثماني دوراً خطيراً في البلاد العربية حيث تأسست في بادئ الأمر على أيدي الارساليات الدينية وكانت كل واحدة من هذه الارساليات تعتمد على حماية دولة من الدول الأجنبية وتصبح واسطة لنشر لغة تلك الدولة بجانب تعليم العلوم المختلفة من جهة وتعليم اللغة العربية من جهة أخرى غير أن تأثير هذه المدارس لم يكن ينحصر في الطلاب الذين ينتمون ويدرسون فيها بل كثيراً ما كان يتعدى ذلك إلى مدارس الجماعة نفسها لأن هذه المدارس الأجنبية كانت تزود تلك المدارس الطائفية بالكهنة والمعلمين والكتب المدرسية وكانت تواصل التأثير إلى درجة ترجمة مناهج الدروس وأساليب التدريس المتبعة فيها أيضاً .

وهكذا أصبحت المدارس الأجنبية من الأدوات السياسية الفعالة التي تستخدمها الدول لنشر لغتها في البلاد وبسط نفوذها على الجماعات . وقد كانت فرنسا أنشط الدول في هذا الباب فقد حسبت نفسها حامية الكاثوليك فأوفدت إلى البلاد العربية كثيراً من الارساليات الكاثوليكية وأنشأت بواسطتها كثيراً من المدارس الفرنسية كما إنها أخذت تحمي وتساعد وتوجه المدارس التي تنشئها الطوائف الكاثوليكية وأنشأت عن طريقها كثيراً من المدارس الفرنسية وأخيراً حاولت أن تجتذب إلى مدارسها أولاد المسلمين وأولاد

الطوائف غير الكاثوليكية أيضاً . ولذلك أوجدت «الارساليات العلمانية التي تلتزم «الحياد» في الأمور الدينية فلا تدخل في مناهجها أي دين من الأديان وتوافد على البلاد العربية في الوقت نفسه كثير من الارساليات البروتستانية وكان بينها الايرلندية والدغاركية والانجليزية والأمريكية .

وكانت الارساليات الإنجليزية والأمريكية أغناها وأنشطها بطبيعة الحال فصارت أداة فعالة لنشر اللغة الإنجليزية والثقافة الانجلوسكسونية في بعض البلاد العربية . ومن جهة أخرى أخذت روسية وهي تعد نفسها حامية الأرثوذكس تنشيء مدارس خاصة بالطوائف الأرثوذكسية وأنشأت مدرسة للمعلمين في الناصرة لتخريج وتنشئة المعلمين الذين تحتاج إليهم المدارس المذكورة وأخيراً اقتفت ألمانية أيضاً أثر الدول المذكورة فأخذت تنشيء بعض المدارس الألمانية في بعض المدن العربية بغية تعلم لغتها ونشر ثقافتها وبسط نفوذها فيها وقامت إيطالية أيضاً بأعمال مماثلة لكل ذلك وأخذت تنشيء المدارس الإيطالية تارة بصورة مباشرة وتارة بوساطة الارساليات الدينية .

ويظهر لنا من ذلك كله أن المعاهد التعليمية القائمة في الولايات العربية في أواخر السلطنة العثمانية كانت في غاية من التنوع والاختلاف : فمدارس رسمية تعلم باللغة التركية ولا تبالي باللغة العربية ومدارس طائفية تختص بكل جماعة دينية ومذهبية على حدة تعلم باللغة العربية وتتأثر في الوقت نفسه بالمدارس الأجنبية التي تشاكلها في الدين والمذهب ، ومدارس أجنبية تنتسب إلى مختلف الدول الغربية تعلم لغة الدولة التي تنتسب إليها وتعتني في الوقت نفسه باللغة العربية » وقد تجاوب مسيحيو الشرق مع هذه الارساليات الأجنبية خصوصا من كان قريباً من الطوائف المسيحية الوطنية واستفادت اللغة العربية من المنافسة القوية بين الكثلكة الأوروبية والبرتستانية والانجليزية والأمريكية والأرثوذكسية الروسية » .

« إذ سعت كل واحدة منها إلى اظهار تمايزها عن الدولة العثمانية » بمفهومها التركي بتشجيعها اللغة العربية . ولم تغير الإرساليات الأجنبية من سياستها إلا عندما بدأت تدرك أن عليها الآن توجيه المسيحيين بعيداً عن فكرة العروبة ، وفي الوقت نفسه ربط بعض الفئات أو مجوعة بكاملها بالدولة الأم ، وقد سعت لتحقيق ذلك بعد تقسيم المشرق العربي أو كما سعت فرنسا من قبل لجعل هؤلاء مرتبطين ثقافياً وفكرياً ولغوياً ومادياً

بالدولة الغربية[1].

وفي الواقع أن الدولة العثمانية أرادت أن تغير من سياستها التعليمية بعد الانقلاب الذي حدث سنة ١٩٠٨م وحاولت أن تفرض رقابتها على المدارس الطائفية والأجنبية ، غير أنها لم تستطع أن تغير شيئاً من هذه الأوضاع تغييراً فعلياً لأن المدة التي مضت بين حدوث هذا الانقلاب ونشوب الحرب العالمية الأولى لم تتجاوز ست سنوات .

لذلك استمرت هذه الأحوال حتى انحلال الدولة العثمانية وانقراضها تماماً[2].

هذه هي أحوال التعليم في البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية ومنها فلسطين التي كانت تعد الجزء الجنوبي من سورية . وقد كانت بلاد الشرق العربي – سورية الكبرى والعراق متشابهة في أوضاعها التعليمية والاقتصادية مما أدى إلى تكاتف مشترك في العمل السياسي لتحقيق الأهداف المشتركة .

فمثلاً عندما تأسست جمعية العربية الفتاة في باريس عام ١٩١١ كان من مؤسسيها محمد رستم البعلبكي وعوني عبد الهادي النابلسي وجميل مردم الدمشقي ومحمد المحصاني البيروتي وعبد الغني العريسي البيروتي ورفيق التميمي النابلسي وتوفيق السويدي البغدادي وانضم إلى هؤلاء بعد ذلك عدد كبير من المثقفين العرب من مدنيين وعسكريين وكانت هذه الجمعية أول حزب عربي يعمل بطريقة سرية ويدقق في الانتسابات وأدت هذه الجمعية دوراً خلال العهد الفيصلي إذ كان الأمير فيصل عضواً فيها[3].

نلاحظ أن أعضاء هذه الجمعية من فلسطين ولبنان وسورية والعراق وقد كان التعلم والتنقل متاحاً لجميع العرب في كل الولايات فالإمكانات التعليمية الموجودة في العراق يستطيع أن يستفيد منها الفلسطيني والسوري وغيرها ، لذلك كان واضحاً أن فصل أي قطر عن الآخر سوف يؤدي إلى نقص في مراحل وأوضاع التعليم المختلفة في كليهما وبما أننا في صدد بحث التعليم في فلسطين بحدودها السياسية المعروفة[4] سنكتفي بذكر المدارس التي كانت موجودة ففي سنة ١٨٥١ أنشئت مدرسة صهيون الداخلية للصبيان في القدس

---

(١) التعليم والتحديث في المجتمع الفلسطيني ص٦١–٦٢ .

(٢) حولية الثقافة العربية ص١٢–١٤ .

(٣) المقتطف جـ٨–٩ ، ١٨٨٣ ص٤٧٠، ٤٧٥، ٥٢٢، ٥٢٧

(٤) الآن .

وقد خرجت منذ إنشائها حتى ١٨٨٢ – (٢٤٠) تلميذاً وفي سنة ١٨٥٥ أنشئت في القدس مدرسة المصلبة للروم الأرثوذكس بعناية كيرلس الثاني بطريرك أورشليم على نفقة دير الروم وكان في القدس أيضاً أربع مدارس لجمعية انتشار-الانجيل بين اليهود فيها (١٣٨) تلميذاً ، وثلاث مدارس لجمعية المرسلين الكنسية فيها (١٣١) تلميذاً وخمس مدارس للجمعيات الألمانية فيها (٣٢٩) تلميذاً ، وثلاث مدارس للروم الأرثوذكس فيها (٢٩٤) تلميذاً و(١١) مدرسة للاتين فيها (٧٦٥) تلميذاً ومدرسة للروم الكاثوليك فيها (١٠) طلاب وثلاث مدارس للأرمن فيها (٣٦٠) تلميذاً[1].

أما مدارس نابلس فكانت ثلاثاً للمسلمين ومعلموها ثمانية عشر وتلاميذها (٥٢٦) تلميذاً وأشهرها الرشدية وفي نابلس للمسلمين مدرسة للبنات فيها معلمتان ومائة تلميذة ونحو اثني عشر مكتباً فيها (٤٦٠) تلميذاً أما مدارس المسيحيين فكانت خمس مدارس للصبيان فيها ستة معلمين و(٩٥) تلميذاً كما كان للبنات مدرستان فيها معلمتان و٤٢ تلميذة وأقدم هذه المدارس أنشىء سنة ١٨٥٠ .

وفي جوار نابلس في جنين مدرسة فيها ٨٠ تلميذاً ومعلمان .

أما في عكة فقد أنشئت المدرسة الرشدية سنة ١٨٧٦ ، ويبلغ تلاميذها الخمسين ومعلموها أربعة وهناك خمسة عشر مكتباً للمسلمين فيها ٢٠٠ تلميذ وفي سنة ١٨٨٩ أنشأت الجمعية الأدبية الخيرية مدرسة بلغ عدد تلاميذها الخمسين وكان معلموها أربعة كما أنشأت الجمعية مدرسة للبنات ومدرسة للراهبات اليسوعيات فيها سبع معلمات ونحو من (١٥٠) تلميذة . هذا وكان للطوائف المسيحية أيضاً نحو من أربع مدارس للصبيان فيها سبعة معلمين ونحو من ٢٠٠ تلميذ .

أما فيما جاور عكة كحيفة وغيرها ففيها نحو من عشرين مدرسة وعشرين معلماً وأربعمائة تلميذ ... وقد أخذ طلب العلم يزداد ويتسع الاقبال على المدارس كلما تقدم الزمن من القرن العشرين .

أما صفد فقد أخذت المدارس تتكاثر فيها منذ ١٨٦٠ ففيها نحو من عشرة مدارس وخمسة عشر معلماً وثلاثمائة تلميذ أما طبريا ففيها ست مدارس وثمانية معلمين ومائتا تلميذ

هذه صورة عن المدارس في هذه المدن التي ذكرناها في النصف الأخير من القرن التاسع عشر . ويقول الدكتور عبد الرحمن ياغي « وإذا كانت جمعية واحدة هي (الجمعية

---

(١) المقتطف جـ٨-٩ ص٤٧٠، ٤٧٥، ٥٢٢، ٥٢٧، سنة ١٨٨٢

الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية) في فلسطين لها في أنحاء البلاد خمس وعشرون مدرسة بلغ تلاميذها الصبيان في سنة ١٩٠٧م (٨٠١)[1] أدركنا مدى تأثير هذه المدارس الأجنبية في كيان هذا الوطن الصغير[2].

أما مجموع المدارس الابتدائية الرسمية في الألوية الثلاثة (القدس/ نابلس/ عكة) في مطلع القرن العشرين بل في سنة ١٩١٣–١٩١٤ وهي السنة التي سبقت الحرب فكان (٩٥) مدرسة ابتدائية رسمية معلموها (٢٣٦) معلماً ومعلمة وتلاميذها (٧٧٥٨) تلميذاً وتلميذة .

وتذكر النشرة الرسمية لوزارة المعارف العثمانية أن مجموع الأطفال الذين كانوا في سن التعليم الإلزامي يبلغ (٧١٦٣٢) طالباً مما يدل على أن المدارس الابتدائية الرسمية ما كانت تقبل من هؤلاء إلا نحو العشر أما المدارس الثانوية الرسمية فكان في القدس منها (مكتب سلطاني) وفي كل من عكا ونابلس (مكتب اعدادي) وكان عدد طلاب المدارس الثانوية المذكورة (٤٧١) طالباً وكانت كل واحدة منها تضم صفوفاً ابتدائية وفقاً للنظام المتبع في جميع الاعداديات والسلطانيات العثمانية وكان مجموع طلاب هذه الصفوف (١١٠) طلاب وكان المكتب السلطاني في القدس (مكتباً اعدادياً) أنشيء سنة ١٨٨٩ ولم يتحول إلى مكتب إعدادي إلا في سنة ١٩١٣ .

أما المكتب الاعدادي في عكة فقد أنشيء سنة ١٨٩٥ وأما المكتب الإعدادي في نابلس فقد أسس سنة ١٨٩٧ .

ويتبين من أرقام النشرة الرسمية العثمانية أن مجموع المدارس الابتدائية الأهلية والطائفية في المتصرفات الثلاث كان (٥٠٠) مدرسة وعدد المعلمين والمعلمات (٧١٩) معلماً ومعلمة أما التلاميذ والتلميذات فيبلغون (١٥٧٧٢) تلميذاً منهم (٨٧٠٥) تلاميذ في المدارس الخاصة بالمسلمين و(٣٤٤٥) تلميذاً في المدارس الخاصة بالمسيحيين و(٢٦٢٣) في المدارس الخاصة بالإسرائيليين .

وبما أن المدارس الرسمية تكاد تكون خاصة بالمسلمين فإن مجموع الطلاب المسلمين في جميع المدارس كان (١٤٦٦٣) طالباً ومجموع الطلاب المسيحيين (٣٤٤٥) طالباً والاسرائيليين

---

(١) تاريخ الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية ص٢٠١–٢٠٢

(٢) حياة الأدب الفلسطيني ص٦٦–٦٧

(٣٦٢٣)[١] طالباً .

هذه صورة موجزة عن التعلم والمدارس في العهد العثماني وقد امتد إطار هذه الصورة حتى شمل المدة الواقعة بين منتصف القرن التاسع عشر ونهاية الحرب العالمية الأولى مع فتور داخلي في حدود هذا الإطار إلى انتعاشه في عهد الدستور إلى ازدهار في المدارس الأجنبية في مدة ما قبل الحرب .

فترة الانتداب البريطاني :

بعد الحرب العالمية الأولى انحلت السلطة العثمانية وانفصلت الولايات العربية عنها انفصالاً نهائياً .

وقد أصبحت بعض الولايات العربية تحت الاحتلال الفرنسي وبعضها تحت الاحتلال البريطاني ونتج عن ذلك بطبيعة الحال نتائج خطيرة من حيث اتجاهات الثقافة ، ونظم التعليم ، فإن اللغة الفرنسية أصبحت اللغة الالزامية في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية في منطقة الانتداب الفرنسي وترتب على ذلك أن المنطقة المذكورة اتصلت أكثر ما اتصلت بالنظم الفرنسية والمطبوعات الفرنسية والمناهج الثقافية الفرنسية وصار الشبان الذين يريدون اتمام دراستهم خارج بلدهم يذهبون إلى فرنسا وينتسبون إلى جامعاتها وكل ذلك ساعد على جعل النظم الفرنسية والمناهج الثقافية الفرنسية سائدة على معارف البلاد وثقافتها ، وقد انضم إلى هذه النتيجة الطبيعية الجهود التي بذلتها فرنسا لبسط نفوذها المعنوي في البلاد فزاد ذلك من سيطرة الثقافة الفرنسية سيطرة كبيرة .

وقد حدث ما يماثل ذلك بالنسبة إلى اللغة الانجليزية في مناطق الانتداب الانجليزية حيث أصبحت هذه اللغة هناك الزامية في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية وترتب على ذلك أن المناطق المذكورة اتصلت أكثر ما اتصلت بالنظم الانجليزية والمطبوعات الانجليزية والثقافة الانجلوسكسونية وصار الشبان الذين يريدون اتمام دراستهم خارج بلادهم يذهبون إلى انجلترا وأمريكا وينتسبون إلى جامعاتها وكل ذلك ساعد على سيادة الثقافة الانجلوسكسونية في المناطق المذكورة وقد انضم إلى هذه النتيجة الجهود الخاصة التي

---

(١) حولية الثقافة العربية السنة الثالثة ص٤-٩ .

بذلتها انجلترا وأمريكا لنشر هذه الثقافة في البلاد فأكسب ذلك الأوضاع المذكورة قوة كبيرة .

هذه سياسة التعليم في الولايات العربية بعد الحرب العالمية الأولى إذ خضعت كل من سورية ولبنان للاحتلال الفرنسي والعراق والأردن وفلسطين للاحتلال الانجليزي .

وبخصوص فلسطين أدار الانجليز شؤون المعارف إدارة مباشرة ووجهوها الوجهة التي ارتأوها دون أن يلاقوا أية مقاومة .

ولهذا السبب نشأ في فلسطين نظام تعليمي خاص يختلف عما نشأ في سائر الأقطار العربية اختلافاً كبيراً وكان هذا النظام أكثر تأثراً بالنظم الانجليزية الأصلية بطبيعة الحال[1].

(١) حولية الثقافة العربية ص١٦-٢٠ بتصرف

التعليم في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني

حسب الاحصاء السكاني لعام ١٩٣١ كان عدد السكان العرب أو بالأحرى عدد سكان فلسطين من غير اليهود (٨٥٩) ألف نسمة من أصل (١,٠٣٣,٠٠٠) نسمة[١] وبلغ عدد المتعلمين منهم أي الذين دخلوا المدارس حوالي (١٢٠) ألف نسمة[٢] وإذا أسقطنا من هذا العدد مقدار (٢٠٠٠) شخص من الأجانب الغربيين غير اليهود يكون العدد حوالي (١١٨) ألف نسمة من المتعلمين العرب ونستطيع انقاص هذا العدد (٢٠٠٠) شخص من حجم السكان فيكون عدد العرب حوالي (٨٥٧) ألف نسمة .

ونتيجة لذلك تكون نسبة المتعلمين العرب ١٢,٧٥٪ من عدد السكان وهذا الرقم يعطي صورة كئيبة للوضع الثقافي في فلسطين عام ١٩٣١ غير أن هذا المعدل لا يعطي الصورةالحقيقية إذ كان هناك تفاوت في التعلم بينالعناصر الإسلامية والعناصر المسيحية .

فقد توفر للمسيحيين عدد كاف من المدارس سهل عليهم الانتساب إليها بسبب تجمع الأكثرية منهم في المدن وللامتيازات الممنوحة لهم من الدولة العثمانية ثم لكثرة الارساليات الأجنبية وما تقدمه من مساعدات تعليمية وغيرها لذلك كانت الاحصاءات والدراسات التعليمية في فلسطين تقوم على أساس مذهبي فالمسلمون في فلسطين يمثلون ٦٧٪ من سكان فلسطين إحصاء ١٩٣١ – ٨٠٪ من السكان العرب – فتعداد المتعلمين المسلمين حوالي ٧٥ ألف من أصل ٦٩٣ ألف نسمة أي حوالي ١١٪ من السكان بينما النسبة لدى المسيحيين هي ٤٧,٥٪ وإن الـ ٨١٪ من المتعلمين المسلمين درسوا أقل من ست سنوات ونسبة التعليم عند المسيحيين العرب هي ٢٩٪ .

---

(١) Survey of Palestine Government of Palestine 1946 Vol. 1 p.141
ترجمة الدكتور فاضل زيدان .

(٢) Census of Palestine, Palestine Superinted 1931 p.p2
ترجمة الدكتور فاضل زيدان .

من هذا نلاحظ أن نسبة المتعلمين ضئيلة ولكن إذا أخذنا هذه النسبة في الإطار العام لرقي المجتمع الفلسطيني نجد أن نسبة المتعلمين لا بأس بها وليس هذا الفضل راجعاً لحكومة الانتداب إذ أن التعليم كان قد توسع في أواخر الحكم العثماني وأول سنين الحرب كثيراً خصوصاً في ولاية القدس إذ في عام ١٩١٤ كان هناك ٩٥ مدرسة ابتدائية وثلاث مدارس ثانوية يعلم فيها (٢٣٤) معلماً وتعداد تلامذتها (٨,٢٤٨) منهم (١,٤٨٠) تلميذة وكان يوجد (٣٧٩) مدرسة تقليدية أكثرها كتاتيب يعلم فيها (٤١٧) معلماً ويزورها (٨٧٠٥) تلاميذ منهم (١٣١) تلميذة[١].

وقد توفر للشعب الفلسطيني في العشرينات حد أدنى من فئة الجامعيين قليلهم تخرج من الجامعات الأوروبية والأمريكية كما أن الضآلة الكبيرة كانت في نسبة المتعلمات الراشدات من الشعب الفلسطيني في تلك الحقبة[٢]. ولو ألقينا نظرة على ازدياد الطلاب المسلمين لرأينا أن الفرق بينهما شاسع بالنسبة لتعداد السكان ففي عام ١٩٢٠-١٩٢١ كان عدد الطلاب المسلمين (١٨,١٢٦) والمسيحيين (٧,٤٣١) طالباً وفي عام ١٩٤١-١٩٤٢ كان عدد الطلاب المسلمين (٦٩,٠٣٥) طالباً والمسيحيين (٢٥,٨٠٨) طلاب .

وقد كان الاهتمام الأكبر في التعليم عند المسلمين عن طريق المجلس الإسلامي الأعلى والجهات الإسلامية الأخرى حيث ارتفع عدد المدارس من ٤٢ مدرسة عام ١٩٢١-١٩٢٢ إلى (١٩٠) مدرسة عام ١٩٤٣-١٩٤٥ وارتفع عدد التلاميذ من ٢٢٨٧ تلميذاً عام ٢١-١٩٢٢ إلى ١٥٣٨٩٦ تلميذاً عام ١٩٤٠-١٩٤١ أي حوالي ستة أضعاف بيد أن الأكثرية العظمى من المدارس الحكومية عام ١٩٤٤ كانت ابتدائية تحتوي على الابتدائية الأدنى إلى الرابع الابتدائي ... ولم يكن الوضع كذلك في القرى فقط بل كان في المدن - أيضاً - وتصل نسبة التلامذة في هذه المرحلة إلى مجموع التلامذة الكلي ٩١٪ والنسبة المئوية الباقية تتوزع بين الدراسة الابتدائية العالية والدراسة الثانوية ويتضح أن الأكثرية الكبرى من تلامذة المعارف كانت تترك الدراسة بعد الصف الخامس الابتدائي عدا قلة بينها قسم ضئيل يكمل الدراسة،فإذا كان التلميذ من المتفوقين استطاع الانتساب إلى الصفوف العليا الحكومية ، وتشتد شروط الانتساب للدراسة الحكومية العادية الثانوية إذ ليس هناك إلا ثلاث

---

(١) Arab education Mandatory Palestine 1956 p.20
ترجمة الدكتور فاضل زيدان .

(٢) التعليم والتحديث في فلسطين ص١٠٧-١١٢ .

مدارس حكومية تحتوي على صفوف حتى الثانوية العامة وجميعاً في مدينة القدس وهي الكلية العربية والمدرسة الرشدية وكلية البنات وكانت الكلية العربية تقصر المجال للطلاب الثلاثة الأوائل في المدارس الأخرى للإكمال فيها ولما كثر عدد الطلبة توازياً مع ازدياد المدارس التي تحتوي على المرحلة الثانوية الأولى سُعي خلال الأربعينات إلى توسيع المدرسة الرشدية ولقد كانت الكلية العربية وكلية البنات وكلية المعلمين بالإضافة إلى هذه الكليات قد أنشأت مع الوقت فصول ثانوية زراعية في طولكرم عام ١٩٣١ وثانوية تجارية في حيفة عام ١٩٣٦[1]. ومنذ بدء الانتداب البريطاني أسست فصول لدراسة الحقوق ينتسب إليها موظفو الدولة ويدرسون خمس سنين يحصلون بعدها على (دبلوم) وتخرج عدد لا بأس به من الشباب الفلسطيني العربي ولكن ليس لدينا إحصاء دقيق عن عدده .

وقد اتجه الطلبة أبناء الطبقتين الوسطى والوجيهة الثرية للدراسة في الجامعة ويأتون عددياً بعد الطلبة اللبنانيين وانتسب طلبة آخرون إلى الجامعة اليسوعية خصوصاً من درس منهم في المدارس الفرنسية في فلسطين . وذهب فريق من الطلبة إلى القاهرة حيث انتسب طلبة العلوم الدينية إلى الأزهر وانتسب آخرون إلى دار العلوم حيث تخرج منها (٤٠) طالباً بين ١٩٣٢ و١٩٤٧[2] كما التحق بعض الطلبة بالجامعات الانجليزية فكان عددهم في الثلاثينات حوالي (٢٠) طالباً وفي عام ١٩٤٨ (٢٥) طالباً[3].

نظرية التعليم في مدارس المعارف :

. لقد سعى الانجليز للحصول على اعتراف دولي بانتدابهم على فلسطين ليس للقيام بواجب إنساني حسب ما جاء في البيانات والمواثيق الدولية الصادرة عن اجتماع فرساي عام ١٩١٩ وما بعده بل نتيجة تصميمهم على استعمار فلسطين حفاظاً على امبراطوريتهم وزيادة في نفوذهم خصوصاً في الشرق الأوسط حيث بدأ الذهب الأسود يوطد نفوذه الاقتصادي ولم تكن الصهيونية إلا مطية لمبتغاهم الاستعماري[4].

إن نظرتهم إلى الشعب العربي الفلسطيني لم تكن تختلف عن نظرتهم إلى العرب

(١) التعليم في فلسطين كاتول جبرائيل ص٦ .
(٢) الشعر الحديث في مأساة فلسطين ١٢٥ .
(٣) التربية والتعليم في فلسطين كاتول ص٥ .
(٤) التعليم والتحديث ص١٣٩ .

المصريين أو أبناء الهند وشعوب شرق آسيا عامة ويستشهد الدكتور عبد القادر يوسف بفقرة من كتاب همفري بومن يقول فيها « فهنا لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا واللورد بلفور يعدان العرب قوماً صحراويين لا قيمة لهم يؤكد أنهم سوف يقتنعون ببعض التوكيدات والضمانات التي تعطيها لهم الحكومة البريطانية فإذا لم يقتنعوا فقد يقومون في البداية ببعض حركات الشغب ولكنهم سرعان ما يعودون لصوابهم ويخلدون للسكينة بعد أن يروا رأس العصا على غرار قبائل الحدود الشمالية الغربية في الهند[1].

بهذه الرؤية لشعوب المستعمرات تبدأ بريطانية سياستها التعليمية ومن الجدير بالذكر أن بريطانية استمدت فلسفة النظام التعليمي في فلسطين من تجربتها في الهند وبعد ذلك في مصر إذ أن النظام التعليمي الفلسطيني أخذ في جوهره من النظام المصري وهذا بدوره مستمد من التجربة الهندية وتتضمن هذه الفلسفة التعليمية تربية فئة ممتازة تدخل السلك الإداري الحكومي لتنفيذ السياسة الاستعمارية ويُسعى إلى تنشئة هذه الفئة لترتبط بالاستعمار ثقافياً وفكرياً والطريق الأمثل هو اختيار معظم أفراد هذه الفئة من الأقليات أو أبناء الطبقة الوجيهة لترويضها وربطها مصلحياً به أن أمكن فسعى الاستعمار في البدء إلى توظيف عدد كبير من اليهود وبعد ذلك من المسيحيين خصوصاً من الفئة المتخرجة من المدارس الانجلوسكسونية وحين بدأ الشعب الفلسطيني خصوصاً المسلمين يحتجون على هذا الوضع سعى إلى توظيف أبناء الطبقة الوجيهة وأما التوسع في التعليم الابتدائي فرده إلى التجارب مع متطلبات المجتمع التجاري المستهلك لسلعها والرضوخ الشكلي للمطالب الشعبية إذ أن النظام التعليمي في الريف كان أقرب إلى التجهيل منه إلى التعليم .

وتدل إحصاءات المعارف على أن النسبة الهائلة من التلاميذ كانت

---

(١) مستقبل التربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية ص٩٥ . هذه النظرية الصهيونية الاستعمارية في الماضي والحاضر والمستقبل لم ولن تتغير وهي نفسها التي أشار إليها الرئيس أنور السادات في مذكراته حيث يقول في معرض كلامه عن مدى استخفاف إسرائيل بالعرب قبل معركة أكتوبر بيومين ... للدرجة أن أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل في ذلك الوقت قال لروجرز : إن أمريكا تقحم نفسها في أمور لا تهمها ولا يجدر أن تهتم بها ثم عبر أبا أيبان عن رأيه في العرب بأن قال إنهم قوم متخلفون ولن تقوم لهم قائمة ولا يعرفون إلا لغة البطش والرعب وقد حان الوقت الذي سيأتون فيه راكعين مستسلمين لإسرائيل التي تعرف جيداً كيف تعاملهم .
▪ مذكرات الرئيس أنور السادات – الأهرام ١٩٧٥/١٠/٢٤ الجمعة عدد ٢٢٤٥٩ ص٣ .

موجودة في الصفوف الابتدائية الخمسة الأولى بينما كان عددهم في الصفوف الثانوية ضئيلاً جداً وقد ربط التعليم الثانوي لتخريج مدرسين لجميع المستويات خصوصاً الثانوية وقد كانت الوظائف الإدارية العالية يعين لها خريجو المدارس الأجنبية هذه هي السياسة الاستعمارية في التعليم إذ تسخره لما يخدم أغراضها ويثبت وجودها بدلاً من جعله أداة لرقي الشعوب والأخذ بيدها حسب رسالة الانتداب .

هذا وقد كشفت الأيام أن السبب الحقيقي وراء سياسة التجهيل هو ما ورد في المادة (٢٤) من صك الانتداب البريطاني على فلسطين والتي نص فيها على أن توضع فلسطين في أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية تمكن اليهود من إنشاء وطنهم القومي فيها .

ثانياً : الطباعة :

لقد كانت الارساليات الأجنبية أول من فكر في ضرورة اصطحاب المطابع معهم إلى هذه الديار المقدسة وقد عرفت الطباعة على أيدي اليهود في سنة ١٨٣٠ حيث أنشأ « نسيم باق » مطبعة في القدس كانت تطبع كتباً دينية باللغة العبرية وفي المدة ما بين ١٨٣٠–١٨٥٠ نشأت ثلاث مطابع كبيرة ساعدت على نشر آداب اللغة العربية في بلاد الشام الأولى مطبعة الأميركان التي نقلت سنة ١٨٤٣ من مالطة إلى بيروت والثانية الكاثولكية ظهرت سنة ١٨٤٨ في بيروت والثالثة مطبعة الآباء الفرنسيسكان في القدس سنة ١٨٤٨ وأنشأها الأب سيشيان فرتخذ النمسوي الأصل وقد نمت هذه المطبعة حتى أصبحت من أكبر المطابع الشرقية في أول القرن العشرين وكان باكورة المطبوعات في هذه المطبعة كتاب « التعليم المسيحي » بالإيطالية والعربية وكانت أدوات الطباعة كلها من النمسة . وحين جاءت الإرساليات الانجليزية أنشأ جماعة منهم سنة ١٨٤٨ مطبعة في القدس أسموها مطبعة لندن لتطبع الكتب الدينية من أجل نشر الانجيل بين اليهود .

وأنشأ الأرمن الغريغوريون في القدس المطبعة الأرمنية في جوار جبل صهيون حيث مقام أسقفهم وكنيستهم الكبرى وأنشأت جمعية « القبر المقدس » اليونانية مطبعتها في دار البطريركية الأرثوذكسية وكان ذلك على عهد البطريرك كيرلس الثاني .

وقد وجدت في هذا الوقت المطبعة الوطنية في القدس لصاحبها الفونس أنطون

الونصو ثم مطبعة (جورج حنانيا) وللجمعية البروتستانيتية مطبعة صغيرة بدأت في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر . وفي المقتطف سنة ١٨٨٣ جدول يبين نشأة المطابع في القدس وهي :

١ – مطبعة الآباء الفرنسيسكان التي أنشأت سنة ١٨٤٧ وطبعة (١٠٣) كتب ما بين مجلدات وكراريس بلغات أجنبية .
٢ – مطبعة دير الروم الأرثوذكسي التي أنشئت سنة ١٨٨١ وطبعت (٦٥) كتاباً منها (٣٦) بالعربية والباقي باليونانية .
٣ – مطبعة دير الأرمن والتي أنشئت سنة ١٨٦٦ وطبعت (١١٥) كتابا بلغات مختلفة أغلبها بالأرمنية .
٤ – مطبعة جمعية المرسلين الكنائسية الانجليزية التي أنشئت سنة ١٨٧٩ وطبعة اثنين وعشرين كتاباً بالعربية .
٥ – مطبعة لندن لانتشار الانجيل بين اليهود وقد أنشئت سنة ١٨٤٨ وكانت تطبع كراسة دينية شهرياً واعلانات دينية وقد وجد في بيروت مطبعة دار الأيتام السورية التي كانت تدار بالبخار وكانت على درجة عالية من الاتقان لكثرة الطلبات التي كانت تردها من مصر وحلب وبيروت ودمشق وطرابلس والشام وحيفا والناصرة ويافة وكانت تطبع فيها مجلة النفائس ولم يكن ينافسها في اتقان الطباعة إلا مطبعة أو مطبعتان في بيروت[١] .

ومن يراجع أماكن الطباعة في « الكتاب العربي » – الفلسطيني يجد أن المؤلف الفلسطيني طبع كثيراً في استانبول وفينا ولندن ونيويورك وباريس وواشنطن وبيروت ومصر والشام وحلب وبغداد وعمان ومكة وغيرها .

وبعد اعلان الدستور كثرت المطابع الوطنية في مختلف البلاد فكانت أول مطبعة دخلت حيفة هي المطبعة الوطنية لباسيلا الجدع سنة ١٩٠٨ ثم مطبعة جريدة الكرمل سنة ١٩٠٩ لنجيب نصار ثم مطبعة جريدة النفير لإيليا زكا وغيرها ثم انتشرت المطابع في مختلف أنحاء فلسطين . ومما ينبغي ملاحظته أن الطباعة دخلت فلسطين عن طريق الارساليات التبشيرية الدينية لطباعة الكتب الدينية ثم لطباعة كتبها المدرسية إلى أن

---

(١) التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني ص١٣٨–١٤١ .

كثرت المطابع كثرة عامة في مختلف أنحاء فلسطين لأغراض تجارية .

ثالثاً : الصحافة :

لقد كان ظهور الصحافة في فلسطين عن طريق الارساليات الأجنبية شأن التعليم والطباعة فقد نشرت الجمعية الألمانية الفلسطينية في مجلتها مختلف المطبوعات التي يدور بحثها حول فلسطين ثم توقفت عن سعيها سنة ١٨٩٤ . وقد قام الدكتور بيتر تومسون فألف كتباً مستقلة أودعها قائمة المطبوعات الفلسطينية من سنة ١٨٩٥ وما بعدها ظهر منها حتى سنة ١٩١٦ ثلاثة مؤلفات

كا ظهرت مجلة بطريركية القدس الأرثوذكسية والمجلة الألمانية لصاحبها الدكتور بيزه[1] .

ونظراً للمركز الديني والسياسي لفلسطين حظيت آثارها باهتمام علماء التنقيب فقد كانت هناك « مجلة التنقيب عن آثار فلسطين » وهناك مجلات – انجليزية والمانية أيضاً وكان للفرنسيين المجلة الكتابية التي كانت تلخص كل ما نشر في المجلات الأثرية عن فلسطين[2] ونظراً للأحوال التعليمية السيئة التي كانت تعيشها فلسطين حتى القرن العشرين كان ظهور الصحف متأخراً حيث يعتمد رواجها على كثرة القراء ولعل أول جريدة في القدس كانت جريدة « القدس الشريف » وهي جريدة حكومية محلية صدرت سنة ١٩٠٤ باللغتين العربية والتركية ، ولما جاء الدستور ١٩٠٨ ظهرت الصحف في القدس ويافة وعكا وحيفة وغيرها حيث وجد في فلسطين خمسون صحيفة تقريباً ما بين سنتي ١٩٠٤–١٩٢٢[3] .

وفي كتاب تاريخ الصحافة العربية « للكونت فليب طرازي نجد فهارس وجداول للمجلات والجرائد التي صدرت في فلسطين إلى نهاية عام ١٩٢٩ بلغت إحدى وثمانين ما بين صحيفة ومجلة صدرت في القدس وحيفة وعكة ويافة وبئر السبع

---

(١) المقتطف جـ٨ ص٤٧٢ راجع أيضاً تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص٢٩٩–٣٠٢ .

(٢) النفائس العصرية جـ١٢ سنة ١٩١٢ ص٥١٦ .

(٣) مجلة الزهراء مقال الدكتور نجيب الساعاتي « انتشار الصحافة في فلسطين » عدد ٦ ص١٤٥–١٤٧ .

وهذه صورة مركزة للصحافة في داخل فلسطين أما في خارجها فكان لأبناء فلسطين مشاركة فيها أيضاً هذا عاصم بسيسو وأحمد عزت الأعظمي يصدران في الآستانة مجلة المنتدى الأدبي في ٢٧ شباط ١٩١٤ وأصدر عارف العارف جريدة عربية هزلية (ناقة الله) ١٩١٦ في معتقل سيبريا وأصدر الأستاذ أحمد شاكر الكرمي مجلة باسم « الميزان » وأصدر الشاعر الشيخ إبراهيم الدباغ مجلة « الإنسانية » في القاهرة[١] وكان الأستاذ محمد علي الطاهر قد أصدر جريدة « الشورى » في القاهرة يتبين لنا من عدد الصحف والمجلات أن لأبناء فلسطين نشاطاً ملموساً في مجال الصحافة سواء في داخل فلسطين أو خارجها بالإضافة إلى أن الكثير من أبناء فلسطين كانوا يكتبون في « المشرق » و« المقتطف » و« الهلال » (وغيرها وقد كانت بعض الصحف الفلسطينية تطرح موضوعاً أدبياً وتعطي جائزة لأحسن من يكتب فيه وبعضها كان يصدر أعداداً ممتازة لدراسة نواح خاصة من البلاد[٢].

كل هذا يوضح لنا دور الصحافة الفلسطينية في نهضة هذا القطر الثقافية .

رابعاً : الأندية والجمعيات الأدبية :

من أقدم الجمعيات في فلسطين جمعية « سوسنة صهيون » أنشئت سنة ١٨٧٧ وجمعية الغيرة المسيحية للروم الأرثوذكس وكلتاهما في القدس[٣] وفي عكة ثلاث جمعيات هي جمعية «شعبة المعارف» و«الجمعية الأدبية الخيرة» وجمعية «مارمنصور» ومن الجمعيات التي عنيت بنشر المباحث المطبوعة في مختلف شؤون فلسطين « الجمعية الألمانية الفلسطينية» وقد وقفت عن نشر المطبوعات الفلسطينية ولم تقف عن نشر المباحث الخاصة بشؤون فلسطين[٤] كما أنشئت الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية سنة ١٨٨٢ التي أولت عناية خاصة لدراسة أحوال فلسطين درساً تفصيلياً[٥] كما أنشئت جمعية ترقي الآداب الوطنية في يافة سنة ١٩٠٨ لتهذيب الشباب وتربيتهم

---

(١) وحي الشاطئ ص٩٦ .
(٢) حياة الأدب الفلسطيني الدكتور ياغي ص٨٩–٩٠ بتصرف .
(٣) مجلة المقتطف جـ٨ ص٤٧٠ ١٨٨٣ .
(٤) مجلة الزهرة – معرقل الأقلام – عدد ٢٣ ص٤١٥ .
(٥) مجلة النفائس العصرية جـ٨ سنة ١٩١١/٧ ص٦٥ .

وكانت تصدر نشرة بأعمالها السنوية[1] وقد كان الفضل لعقد أول مؤتمر فلسطيني رسمي أقرت به الحكومة البريطانية لجمعيتين في حيفة الإسلامية ورئيسها مفتي حيفة الشيخ محمد مراد والمسيحية ورئيسها الأستاذ فؤاد سعد وكان انعقاد اللجنة في حيفة من ١٣-٩ كانون الأول سنة ١٩٣٠ برياسة موسى كاظم الحسيني وقد كان تشكيل المؤتمر باقتراح - الشيخ سليمان التاجي الفاروقي[2]. وكان في حيفة أيضاً «جمعية الشبيبة المسيحية» وهي جمعية أدبية أنشئت من أجل بحث الأمور الأدبية وكان رئيسها الأستاذ أديب الجدع .

وقد كانت معروفة قبل الحرب باسم « نهضة فتيان الروم الكاثوليك » وأعيد تأسيسها في ١٧ تشرين الثاني ١٩١٩ وفي حيفة أيضاً جمعيتان نسويتان الأولى « جمعية السيدات المسيحية » والثانية « جمعية تهذيب الفتاة الإسلامية » كما تأسست « جمعية النهضة الاقتصادية العربية » وكان من المنادين بتأسيسها السيد نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل وقد افتتحت في ٢٢ شباط ١٩٢٢ . ومن صلاحيات هذه الجمعية بموجب نص قانونها أن تشكل هيئات فرعية في القرى تربطها جميعاً لجنة عليا ينتخبها المؤتمر الذي يعقد بعد تنظيم هذه الهيئات وقد بدأت بتشكيل نقابات لكل مهنة وصنعة وفن . » وكان من بين النقابات (حلقة الأدب) وغايتها تعزيز اللغة العربية وتشجيع فن الخطابة والنظر في كل نقيصة من نقائص مجتمع حيفة الأدبي وإصلاحه والعناية بالتعليم ونشر الكتب الأدبية ولم تكن الحلقة تقبل بين أعضائها إلا حملة الأقلام - والخطباء ومن مارس في الآداب نثراً ونظماً وكان أعضاؤها الفخريون من بين الذين يميلون إلى الأدب وينشطونه وقد قامت فكرة تأسيس هذه الحلقة في رأس الكاتب توفيق زيبق واستشار بشأنها الأدباء من أصدقائه فاستحسنوا فكرته وشجعوه ولكنهم أمهلوه إلى أن تأسست جمعية النهضة الاقتصادية العربية فباشروا بتأسيس الحلقة وسنوا لها نظاماً في جلسة تمهيدية عقدت في ٢٨ نيسان سنة ١٩٢٢ عقدها توفيق زيبق ورفيق التميمي والدكتور قيصر الخوري وأديب الجدع ويوسف الخطيب وعبد الرحمن رمضان وجميل البحري .

وقد أحدثت الحلقة نشاطاً كبيراً وكانت تقيم الحفلات وتنظم المحاضرات وتنشئ

---

(1) مجلة النفائس العصرية جـ٥ سنة ١٩١١/٢ ص٥٤٠ .

(2) مجلة الزهرة عدد ٢٢ ص١١٤ .

المسابقات للتأليف المسرحي وغيره وكانت تقوم بدور كبير في الحياة الأدبية بما ترجمه أعضاؤها وما حاضروه وما أنشأوه[1] وكان لموظفي السكة الحديدية في حيفة نـاد يجمعهم كما أقام نخبة من شبان طائفة الروم الكاثوليك أدباء وموظفين وعمالاً نادياً باسم (النادي الكاثوليكي)[2] سنة ١٩٢٢ كذلك قامت الجمعيات التعاونية في القرى كجمعية تعاون القرى التي اتخذت مركزها في حيفة أيضاً ومع عنايتها بشئون الفلاح أقامت كثيراً من الحفلات الأدبية حيث يلقى الشعر وتقوم الدراسات حول شؤون القرية .

وتأسس في حيفة أيضاً « النادي العربي » الذي كان أعضاؤه من الشبان المسلمين والمسيحيين لمارسة الفنون الأدبية والرياضية كما كانت هناك نواد مختلفة للأمر .

وقد كان لهذه النوادي دور كبير في الحياة الأدبية وفي بيت لحم نشط نادي الشبيبة حيث كان يقيم الحفلات لتكريم الأدباء والمستشرقين . وفي غزة اعتنى النادي الأرثوذكسي بالتمثيل[3] وكان النادي العربي في القدس يقيم مسابقة أدبية باسم « سوق عكاظ » سنة ١٩٢٤ وفي موسم النبي موسى يوزع الجوائز على الفائزين في الشعر[4].

ومن مظاهر نشاط هذه الجمعيات والنوادي إقامة الحفلات لإكرام الشعراء والأدباء فقد زار الشاعر خليل مطران فلسطين سنة ١٩٢٥ للاصطياف في رام الله فأقيمت له حفلات التكريم في القدس وبيت لحم ويافة والبيرة وطولكرم وقلقيلية ورام الله[5] وكتب سليم سركيس إلى خليل بيدس عندما زار القدس سنة ١٩٢٠ والتقى فيها بالرصافي الشاعر العراقي « وقد سرني من القدس الشريف أن فيها (جامعة للأدباء) لم أوفق إلى مثلها في دمشق وحيفة فقد قضيت نحو أربعين يوماً في عاصمة المملكة السورية وقابلت فيها عدداً كبيراً من الأدباء ولكن شملهم متفرق فلا يجتمعون في مكان معين أو زمان شأننا في مصر وأما في القدس فإن ليوث الأدب

---

(١) حياة الأدب الفلسطيني ص٩٦-٩٧ .
(٢) مجلة الزهرة عدد ٢٥ ص١٢ .
(٣) النفير عدد ٢٥ ص١٣ .
(٤) ديوان مشاهد الحياة ص٢٠٢ .
(٥) الزهرة عدد ٤ ص٢١٣ .

يـأوون إلى عرين خـاص يتهيبـه من لم يكن من طبقتهم وهـذا التهيب والـوقـار يساعدانهم على العزلـة ويبعـدانهم عن الغوغـاء . وقـد بلـغ من اعجـابي بمجلسهم في القـدس أنني كا تعلم كنت أول من حضر وآخر من انصرف حتى لا يفـوتني جمـال مجلسكم وفائـدته لـو أن بينهم من يحذو حـذوي في مجالس أدبـاء مصر لاجتمع لـديـه الشيء الكثير من ثمرات العقول التي تليـق يومـاً مـا أن تكون حـديث المجالس لأنـك تنال من الأدبـاء وقـد أرسلوا على سجيتهم – مـا لا تنـالـه من ثمرات العقول إذا هم تـأنقـوا في الحـديث وتـأهبـوا لـه فهنيئـاً لكم ولمجلسكم بكثير من الحسنات وفي مقـدمتهـا (مجلس الأدباء)[1].

وقد كانت النوادي أيضـاً تقيم الحفلات احتفـاء بـالأدبـاء والمفكرين فقـد اقـام نـادي الألعاب الريـاضية بـالقـدس في آذار ١٩٢٠ حفـل تكريم للصحفي الأستاذ سليم سركيس ألقى فيهـا الأستـاذ اسعـاف النشاشيبي كلمة رائعة كا ألقى الأستـاذ الرصـافي قصيدته السينية المشهورة وكانت الحفلة في مدرسة روضة المعارف[2].

خامساً : الإذاعـة :

وهي من العوامل الفعالة لنهضة الأمم في مختلف نواحي الحياة يقول الأستاذ عجـاج نـويهض « إن الإذاعـة أرقى أسبـاب التـواصـل بين الأمم وهي تجعـل المعمور الإنسـاني في مسمعك وعـا قريب على مرأى منـك في لحظـات هي أعجل من لمحات البصر فـالمـذيـاع رسول انقلاب في البشر لا يعلم إلا الله مدى حدوده وانبساط آفـاقـه ومهما يكن للمـذيـاع اليوم وغداً من شأن عظيم في إحداث الانقلاب في المجتمع فمن أخص ما نرى من مميزاتـه أن له رسالة مقدسة كتب عليـه أن يؤديهـا إلى الأمم وإلى العرب في جميع أقطـارهم ألا وهي رسـالـة نشر الثقـافـة الصحيحـة كأوسع معـانيهـا ويشترك في هـذا العـالم والمؤرخ والأديب والكاتب والشاعر والباحث والناقد والممثل والمفتي والمطرب من رجال ونساء[3].

تـأسست الإذاعـة في فلسطين مبكراً إذ أسست حكومـة فلسطين محطـة لاسلكيـة

---

(١) النفائس جـ١٧ ص٢٥١-٢٥٢ .

(٢) الحياة الأدبية في فلسطين ص١٠٠ .

(٣) الحياة الأدبية في فلسطين ص١٠٥ .

واختارت الشاعر إبراهيم طوقان لإدارة البرامج العربية وفي ٢٩ مارس ١٩٢٦ نقل الأثير لأول مرة صوتاً عربياً هو صوت إبراهيم طوقان وقد كان الناس يتطلعون بقلوبهم إلى إبراهيم لوضع الإذاعة في خدمة القضية الفلسطينية للظلم الذي كانت تلاقيه من حكومة الانتداب والصهيونية الآثمة «... وضع إبراهيم خطته لخدمة الجمهور ، وخدمة التراث العربي الأدبي واصطدمت الغايتان ... وثارت الصهيونية وامتدت الرقابة إلى كل ما يذيع إبراهيم وإلى كل ما يعد من تمثيليات وأحاديث وقصص قد أذاع على الناس تحقيقاً أدبياً أثبت فيه بالوثائق التاريخية أن السموأل الشاعر الجاهلي اليهودي كان ذا نزعة يهودية من حيث حبه للمال وأن هذه النزعة هي التي دفعته إلى إيثار الذبح لابنه خارج الحصن ولم يكن في الأمر عامل الوفاء وأنما كان ذلك من أجل مال جسيم وعده به امرؤ القيس إذا استجاب لطلبه وقد أذاع هذا التحقيق بنفسه في ٢٠ سبتمبر ١٩٣٦ فاهتاجت الصهيونية وظلت تدس له حتى انتهى الأمر بإقصاء إبراهيم[1] .

وقد أعدت محطة الإذاعة سلسلة من المحاضرات الوطنية موضوعها «شخصية فلسطينية» بارزة ولما تولى الأستاذ عجاج نويهض مراقبة البرامج العربية في الإذاعة الفلسطينية أخذ يمد برامج يستدعي لها كتاباً وباحثين من فلسطين والبلاد العربية لإلقاء المحاضرات والبحوث فتقدم الأخطل الصغير - بشارة الخوري - بتحية شعرية لفلسطين في مساء الخميس ٢ نيسان ١٩٤٢ وحاضر الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي عن الجيش في التاريخ الإسلامي ثم عن التربية والتعليم في العصور الإسلامية وكانت محاضرات كل من الأستاذ عبد السلام البرغوثي والأستاذ عباس محمود العقاد عن معارك ١٩٣٩ وحاضر قبله في الموضوع نفسه الأستاذ عبد القادر المازني وأذاع الشيخ عبد العزيز البشري حديثه عن الدولة الأموية والأستاذ محمد كرد علي حديثه بعنوان « هل تمدّنا » كما قدم الأستاذ خليل تقي الدين مدير المطبوعات في جمهورية لبنان حديث رمضان حول الأدب العربي وتحدث الأستاذ نسيم يزبك حديث بعنوان نظرة في مستقبل العمر وتحدثت السيدة أسماء طوبي عن تربية الطفل وتحدثت السيدة ماري صروف عن التربية في الأسرة العربية وتحدثت الآنسة قدسية خورشيد عن شخصية المرأة وقدم الأستاذ خليل بيدس حديثاً بعنوان « إلى فتياتنا » وقدم أيضاً قصة

---

(١) إبراهيم طوقان الحاسني ص٢٧ .

عنوانها « البطلة »[1] كما استقدمت محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية في فلسطين علماء وصحفيين مثل الشيخ عبد الله العلايلي والأستاذ الحوماني والأستاذ أكرم ملحم كرم[2] .

هذه هي العوامل المباشرة المساعدة في النهضة الثقافية في فلسطين ، وقد تفاعلت هذه العوامل مع عوامل داخلية أخرى فتولدت أنشطة ثقافية مختلفة فقد كثرت النوادي والجمعيات التي ساعدت على إيجاد نهضة تمثيلية مسرحية نمت وازدهرت بظهور الإذاعة التي جعلت لها جانباً من برامجها . وقد ظهرت في حيفة « جمعية التمثيل الأدبي » في مطلع القرن العشرين وكانت محاولة جادة لإحياء التمثيل[3] وقد نشط في هذا الجانب الأستاذ جميل البحيري فأخذ يتبع روايته حلقات أخرى وتمثيليات غيرها يقدمها إلى رؤساء المدارس لتمثل على المسارح المدرسية وإلى معاشر عشاق التمثيل الأدبي سداً للفراغ[4] وفي بيت لحم قام نادي الشبيبة بتمثيل روايات للجمهور مثل رواية « عواطف » الاجتماعية وقد أعد رئيس نادي الشبيبة الأرثوذكسي بياناً خاصاً بالتمثيل ومعه رئيس اللجنة التمثيلية وبعض الأعضاء[5] ومما ساعد النهضة التمثيلية ظهور أفراد أفذاذ في مجال التمثيل وقد كتبت مجلة النفير تقول « إن هناك شاباً شرقياً عربياً يكاد وطنه يجهل شخصيته» .

بينما دوائر برلين الأدبية ومسارحها التمثيلية ، تتغنى بعبقريته وقد بذل جهداً في سبيل نشر الأدب العربي في أنحاء المانيا فوضع الروايات التمثيلية الحافلة بمآثر العرب بالكتابة في صحف المانية عن التراث العربي وبإنشاء الشعر العربي في الأندية الالمانية .

وذلك الشاب هو عزيز ضومط وآخر رواية وضعها « والي عكة » التي مثلت لأول مرة على مسرح بلدية (شترالسون) فنالت استحساناً كبيراً وقد عدوه في الطبقة الأولى من شعراء المانية وأقاموا له حفلة تكريم ألقى فيها بالألمانية ترجمات شعرية لكل من مطران وشوقي وحافظ وهو من أبناء حيفة[6] ومن الجمعيات التمثيلية في هذه الفترة « جمعية الفنون

---

(١) حياة الأدب الفلسطيني ص١٠١ – ١٠٢
(٢) مجلة الأديب جـ٢ ص٥٩ .
(٣) ولاية بيروت ص٤٩ .
(٤) الزهرة عدد ٩ ص٢٥ .
(٥) النفير عدد ١٠ ص٥ .
(٦) النفير عدد٢١ ص١٣ .

التمثيلية » في القدس وقد مثلت على مسرح مدرسة الفرير رواية «عنترة»(١) وللمرة الأولى تظهر المرأة على المسرح عندما مثلت فرقة من شبان القدس رواية ماجدولين على مسرح سينا صهيون وقد مثلت فرقة الشبان المسلمين الكبرى في يافة رواية « دموع يائسة » على مسرح قهوة «أبو شاكوش» وفي الثلث الأول من القرن العشرين نشأت الفرق التمثيلية الجوالة في فلسطين والأردن كا فعل فريق الهيئة التمثيلية لنادي الشبيبة في بيت لحم حيث مثل «رواية الاستبداد»(٢).

وقد عنيت جريدة النفير بتشجيع التمثيل وفرقه وتتبع أخبار الممثلين والجمعيات التمثيلية من ذلك حديثها عن النهضة التمثيلية في حيفة بمناسبة حضور أكبر فرقة تمثيلية عربية إليها وهي فرقة رمسيس المصرية بقيادة يوسف وهبي وجورج أبيض حيث تذكر أن أول من غرس نواة هذه النهضة في حيفة هي جمعية الرابطة الأدبية وقد جعلت حفلاتها التمثيلية عامة ومجانية فأقبل عليها سكان حيفة على اختلاف مللهم ونحلهم ثم تبعتها الجمعية الإسلامية مثلت على مسرح زهرة الشرق رواية (فهد الطرابلسي) فلاقت بما تستحقه من الاستحسان وقام أعضاء النادي الرياضي الإسلامي بتمثيل رواية «مطلع النساء» وكلها عبر للنساء ولكن للأسف لم تحضر أي واحدة من النساء ثم مثلت فرقة كشافة حيفة رواية « الأسود والنعمان» وفي خلال الثلاثة أشهر – شباط – آذار – نيسان ١٩٢٩ مثل الأعضاء ما يزيد على ثمان روايات(٣).

هذه لمحة خاطفة عن نشاط الفرق التمثيلية في فلسطين حتى الثلث الأول من القرن العشرين ولم تكن حكومة الانتداب تشجع التمثيل في فلسطين لكونه يضر بوجودها . وفي يافا كانت فرقة نادي الشبيبة الأرثوذكسية أنشط الفرق التمثيلية في فلسطين(٤) ثم نشط فن التمثيل فدخل المدارس ومختلف النوادي والجمعيات ثم ظهر العنصر النسائي بشكل واضح في تمثيل رواية «هملت» لشكسبير التي قامت بها فرقة الكرمل التمثيلية ومن بين الممثلات اللائي أجدن أدوارهن «أسيا خوري وثريا أيوب»(٥) وقد تفاعلت هذه العوامل

---

(١) النفير عدد٢٢ ص٨ .
(٢) النفير عدد٢٢ ص١١ .
(٣) النفير عدد٢٩ ص٢٩ .
(٤) النفير عدد٢٩ ص١٢ .
(٥) النفير عدد٢٩ ص١٢ .

وأسهمت في فتح نوافذ على الحياة الغربية .

سادساً : الترجمـــة :

كانت من أكبر النوافذ على الحياة الغربية لكثرة الإرساليات الأجنبية التي كانت تعلم باللغة الفرنسية والانجليزية والإيطالية والروسية والألمانية واليونانية حيث وجدنا أن أول ما ترجم سنة ١٨٦٠ تأليف دينية (مرشد الأولاد) لفرنسيسكو سوافيواس وقد عربه مينا يوسف دباس اليافوي وطبع في مطبعة القبر المقدس اليونانية [١] وطبعت مطبعة الآباء الفرنسيسكان في القدس قبيل القرن العشرين مائة وعشرين كتاباً بالعربية والتركية والأرمنية والعبرانية واليونانية فضلاً عن اللغات الأوربية كالإيطالية واللاتينية والفرنسية والأسبانية [٢].

وفي مطلع القرن العشرين وجدنا موضوعات غير دينية مثل كتاب « الأمومة عند العرب » ترجمها عن الألمانية بندلي صليبا الخوري وطبع في قازان سنة ١٩٠٢ [٣]. حتى إذا ظهرت الصحف اتجهت الترجمة نحو الحكايات والقصص والروايات . حيث أخذت الطابع الأدبي وكان الأستاذ خليل بيدس من أوائل من مارسوا الترجمة الأدبية حيث كان يتقن اللغة الروسية فترجم عنها الكثير وفي أعداد مجلته النفائس كان ينشر العديد من الروايات والقصص كما ترجم رواية المملوك الشارد «لجورجي زيدان» إلى الروسية ومن أوائل المترجمين أيضاً الأستاذ أنطوان بلان أحد أساتذة السيمنا الروسية في الناصرة حيث نقل رواية «في سبيل الحب» ١٩١٢ [٤] وخواطر من كتاب «طريق الحب» لتولستوي [٥] وغيرها كثير وقد وجدت جميعها في مجلة الأستاذ خليل بيدس «النفائس العصرية» ومن الذين ترجمو عن الروسية أيضاً سليمان بولس وإبراهيم جابر ، وعبد الكريم سمعان ولطف الله الخوري ، وكلثوم نصر عودة وفارس نقولا مدور الذين نشروا قصصهم في مجلة النفائس العصرية . ومن الذين لمعوا في الترجمة عن الأدب الروسي الأستاذ نجاتي صدقي . كتب

---

(١) النفير عدد ٣٠ ص٣ .

(٢) المشرق عدد٢ سنة ١٩٠٢/٥ ص٧٠ .

(٣) المشرق عدد٢ سنة ١٩٠٢/٥ ص٧٠

(٤) المشرق عدد ١٢ سنة ١٩٠٢/٥ ص٥٧٣

(٥) النفائس العصرية جزء ٧ سنة ١٩١٢/٤ ص٢٤٢

للأستاذ ميخائيل نعيمة رسالة بتاريخ ٣ آب ١٩٤٤ جاء فيها « أما الفصول التي تلطفت وقرأتها لي من الدراسة التي تعدها عن بوشكين فقد تركت في ضميري كثيراً من السرور مع شيء من الامتنان لك ذلك لأنك قمت ببعض الواجب الذي كان من المفروض أن أقوم به أنا نظراً للصلة المتينة التي بيني وبين الآداب الروسية .

فقد رشفتّها صافية من منابعها الصافية ولكم تمنيتُ أن يباح لي نقل بعضها إلى لغتنا كيما ينعم أبناء الضاد ولو بنفحات من طيوبها النادرة المثال بين آداب الأمم ... أما أنت[1] تأخذ الكسندر بوشكين أعظم شعراء الروس وقمة باسقة من قمم الشعر الباسقات في الأرض فتنتقل إلى قراء العربية أخبار حياته القصيرة والحافلة بكل جليل ومدهش من الأخبار .

ومما يزيد في قيمة عملك أنك وقد حصلت قسطاً ليس بالقليل نستقي معلوماتك من مصادرها الأصلية ومن ذاك ما يغريني بالأمل وقد فرَغْتَ من حياة بوشكين أن أراك تتصرف إلى نقل بعض المعالم الأدبية إلى العربية فمن الخجل أن تبقى إلى الآن محجوبة عن العرب .. وما من أمة حية – كبيرة أو صغيرة – إلا وتتمتع اليوم بنصيب من جمالها الفتان وغناها المفرط ودوحها الإنساني العميق[2] وقد كانت مجلة النفائس لمنشئها الأستاذ خليل بيدس النافذة الواسعة التي يطل منها الأدب الروسي ويعد الأستاذ أنطون بلان – والأستاذ نجاتي صدقي ممن أسهموا في إثراء الأدب العربي الفلسطيني بالأدب الروسي على صفحات النفائس كما أسهم الأستاذان محمود سيف الدين الإيراني وعارف العزوني في نقل الأدب الروسي المترجم من اللغات الأوروبية إلى الأدب العربي على صفحات « الطليعة »[3] كما نشط الأستاذ جبران مطر في ترجمة القصص عن الألمانية ونشرها في مجلة النفائس العصرية وكذلك الأستاذ الياس نصر الله حداد ترجم رواية (ناثان الحكيم) عن الألمانية للشاعر الألماني لسنغ وطبعها في مطبعة دار الأيتام في القدس[4]. ومن أوجه نشاط الترجمة أيضاً ما كان يفعله المجلس المختلط للطائفة الأرثوذكسية حيث أعضاؤه اثنا عشر عضواً منهم ستة من الرهبان وستة من العلمانيين وكان من بين العلمانيين الأستاذ خليل بيدس

---

(١) النفائس العصرية جـ٧ سنة ١٩١٢/٤

(٢) بوشكين أمير شعراء روسيا . سلسلة اقرأ رقم ٢٨ المقدمة .

(٣) الطليعة الأعداد ١٠/٧/٦ السنة ٢ ص٥٦٧–٥٨٠ ، ٥٩٣، ٨٦٩

(٤) الهلال جزء ١٠ سنة٤ ص١٤٨٢

عن الناصرة وكان البطريك يتلو خطابه في المجلس باللغة اليونانية ثم يقوم عضو من الأعضاء ويقرأ على المجلس الترجمة العربية للخطاب . وكان الأستاذ توفيق اليازجي يترجم في مجلة (الأدب) قصيدة (الخمر الممزوجة) للشاعر اليوناني يوانس بوليتي[1] .

أما اللغة التركية فقد توجهت الترجمة إليها في وقت مبكر ولم يستفد الأدب العربي كثيراً من الأدب التركي بالنسبة لطول الزمن الذي دخل فيه العرب تحت الحكم التركي وذلك يعود إما لضعف الثقافة العربية والترجمة حيث لم تتهيأ الدوافع للترجمة أو لطغيان الأدب التركي وعدم الاستفادة منه وإما لعدم شعور العرب بالفارق بينهم وبين الأتراك لأن الشعور بالشخصية العربية وتلمسها كان رد فعل لنزعة التتريك التي دعا إليها حزب الاتحاد والترقي بعد إسقاط السلطان عبد الحميد ومع هذا عَرَّب المؤرخ - الفلسطيني البحاثة عبد الله مخلص كتاب نامق كمال (سيرة الفاتح) السلطان محمد الثاني[2] كما عرب الكاتب الأديب حسن صدقي الدجاني رواية (حنذار)[3] كما عرب الأستاذ عارف العزوني (ترانتابابو) من رسائل شاب حبشي إلى زوجته للشاعر التركي الكبير ناظم حكمت[4] وعن اللغة الانجليزية يترجم إبراهيم حنا حكاية عن حذاقة الفرنساويين وادراك الانجليز وتترجم روز حسون حكاية عن زهرة البرتقال «في النفائس» وهناك ترجمات دينية ترجمها بولى صدقي من القدس عن كتاب «تسعة أمثال لربنا يسوع المسيح»[5] ، ومن أشهر المترجمين أيضا الأستاذ توفيق الزيبق الذي ترجم مقالاً وقصصاً لمجلة النفائس[6] كتاب «ميزان النفس» حيث نشر فصولاً منه في معرض أقلام الزهرة[7] كتاب «الحرية والمعيشة»[8] وكتاب «حديث المائدة» للكاتب الاجتماعي الكبير دوزن[9] وترجم الأستاذ أحمد شاكر الكرمي في الكرميات التي

---

(١) النفائس المصرية جزء١٢ مجلد٢ ص٩٢-٩٤ .
(٢) النفائس المصرية جزء٢ سنة٣ ص٩٥ .
(٣) معرض أقلام الزهرة عدد٣ سنة٢ ص٩٢ .
(٤) الطليعة عدد٤ سنة٣ ص٢٤٢ .
(٥) النفائس العصرية جزء١٢ سنة٢ ص١٠٠ .
(٦) فن التمثيل في خلال قرن يوسف داغر ص٤٥١ .
(٧) النفائس العصرية جزء سنة ٢ ص١٩٨ .
(٨) معرض أقلام الزهرة عدد٧ سنة٢ ص٢١٩ .
(٩) النفائس العصرية جزء ٢ سنة٦ ص٧٣ .

صدرت سنة ١٩٢١ (للشاعر الانجليزي شلي) (فلسفة الحب) والحرية و(التقلب) كما ترجم قصة (الفلسفة الشرقية) للكاتب الفرنسي برناردين دوسان بيير عن الانجليزية وقصة (ما أغلاه) للكاتب الفرنسي جي دي موياسان نقلها عن الانلجيزية و(أسطورة العمل والموت والمرض) للفيلسوف الروسي تولستوي عن الانجليزية و(أسطورة الزهرة) – فينوس عن كتاب الصور لمارك توين وترجم للشاعر الانجليزي بوب روايته «مي أو الخريف والربيع» نشرها في مجلة الرابطة الأدبية في دمشق سنة ١٩٢١ وترجم قصة (خالد) للروائي الأمريكي ماريون كروفود وقد كان للأستاذ وديع البستاني مجموعة كبيرة من الكتب المترجمة عن الانجليزية في السياسة والاجتماع والشعر والأدب . أما الأستاذ أحمد سامح الخالدي فهو من أشهر من نقل عن الانجليزية بحوثاً في التربية فقد اعتمد في وضع كتابه (ادارة الصفوف) على بحوث بجلي "Begley" طبع في القدس ١٩٢٨ واعتمد في وضع كتابه (أركان التدريس) على كتاب (إرشادات المعلمين) الذي نشره مجلس التعليم البريطاني وطبع في القدس ١٩٢٧ ونقل كتاب «الحياة العقلية» لمؤلفه وردزورث... كما نقل كتاب (الطريقة المنشورية في التربية والتعليم) وطبع في القدس ١٩٢٥ – وترجم إلى جانب ذلك (أقنعة الحب) للدكتور وليم شيتكل «وأهمية التحليل النفسي» طبع في القدس ١٩٤٦ كما أن زوجته عنبرة سلام الخالدي قد قامت بنصيبها في الترجمة عن اللغة الانجليزية فقد كانت تنشر في (الكشاف) سنة ١٩٢٨ سلسلة مقالات – مترجمة بعد ذلك منها الياذة هوميروس عن الانجليزية ونشرتها في المطبعة العصرية في القدس سنة ١٩٤٦ وهي منقولة عن (قصة الإلياذة) لألفرد تشرش . ومن أشهر المترجمين عن الانجليزية أيضاً الأستاذ عجاج نويهض إذ ترجم كتاب حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستوارد طبع في القاهرة سنة ١٩٢٤ وهو الكتاب الذي علق على أصوله تعليقات وافية الأمير شكيب أرسلان فجاء في أربعة مجلدات وترجم الأستاذ عجاج نويهض كتاب (النظام السيامي نظرياته وأشكاله) في القدس ١٩٣٣ وترجم الأستاذ عبد الرحمن بشناق رواية في سبيل المجد الأثر كويلر كلوتشي في القدس ١٩٣٩ وترجم الأستاذ جبر إبراهيم جبر (قصة حياة شلي) لاندريه موروا وترجم قصة (البلبل والوردة) لأوسكار وايلد وقصة (عاشق) لجورج موسى وله ترجمات غير ذلك[1].

---

(١) حياة الأدب الفلسطيني ص١١٤–١١٥ .

الترجمة عن الفرنسية :

لقيت الآداب الفرنسية عناية من الأدباء الفلسطينيين الذين تعلموا في المدارس الفرنسية توازي ما لقيت الآداب الانجليزية ، ولعل الأستاذ محمد روحي الخالدي يعد من أوائل الذين عنوا بالترجمة عن الفرنسية إلى العربية وفي كتاب فكتور هوجو «علم الأدب عند الأفرنج والعرب» ترجمات تاريخية وأدبية وعرض وتصوير واقتباس لكثير من آراء فكتور هوجو في الشعر والنثر ثم دخلت الترجمة مرحلة جديدة بظهور الصحافة حيث أخذت الصحف تترجم بعض القصص والروايات التمثيلية ومن أشهر الصحف التي اعتنت بالترجمة «النفير» «الزهرة» ومن أشهر المترجمين الصحفيين الأستاذ جميل بحري الذي خصص القسم الأول من «الزهرة» للروايات اللاتي كان معظمها منقولاً عن اللغات الأوربية . وقد كان لظهور الأستاذ عادل زعيتر فاتحة عهد جديد للثقافة الفلسطينية على الثقافة الفرنسية فمنذ كان في باريس سنة ١٩٢٢ طالباً في الحقوق وهو ينقل الروائع من الثقافة الفرنسية إلى العربية في مختلف المجالات من أدب وسياسة واجتماع وتاريخ وفلسفة وقانون حيث ترجم سبعة وثلاثين كتاباً[1] ونحن لا يسعنا أن نذكر جميع المترجمين في مختلف اللغات لكثرتهم ولكن يمكننا أن نتصور عددهم إذا علمنا أن فلسطين كانت مجالاً خصباً للإرساليات الأجنبية لمكانتها المقدسة وما كانت تسعى إليه كل إرسالية من نشر ثقافتها عن طريق لغتها وما تقدمه من مساعدات في هذا السبيل . وإذا علمنا أن دولة أجنبية لها إرسالية في أكثر من مكان واحد مثل بريطانية وفرنسة وأمريكا وإيطاليا واليونان والمانية وروسية إذا علمنا هذا أدركنا مدى انتشار الثقافات الأجنبية بلغتها في فلسطين لذلك بدأت الترجمة بالكتب الدينية ثم المدرسية وقد كانت هذه الإرساليات ترسل المتفوقين من طلابها إلى وطنها الأم في بعثات دراسية ليزدادوا اطلاعاً على ثقافتها واتقاناً للغتها .

---

(١) حياة الأدب الفلسطيني ص١١٤–١١٨ .

أثر الإرساليات التبشيرية في الحياة الثقافية بفلسطين :

بعد أن استعرضنا الحياة الثقافية ببواعثها المختلفة نلاحظ أن الإرساليات التبشيرية الأجنبية قد أسهمت في هذه البواعث اسهاماً كبيراً إن لم تكن قد هيمنت عليها تماماً . فلقد أحدث ضعف الدولة العثمانية في البلاد العربية فراغاً سرعان ما ملأته الدول الغربية الطامعة في البلاد العربية وقد كان لموقع فلسطين الجغرافي والتاريخي الأثر الأكبر في تركيز هذه المطامع عن طريق زيادة نشاط الإرساليات التبشيرية .

ولقد كانت مهمة هذه الإرساليات الأولى هي قطع الرابطة التي تربط بين العرب والخلافة العثمانية عن طريق استغلال مظاهر الضعف في الخلافة ثم اضعاف الوازع الديني في نفوس الشبيبة العربية لذلك كثيراً ما كانت تتظاهر باسم التفكير الحر والبحث العلمي والتسامح الديني للطعن في المقدسات والتراث الروحي متخذة من المواقف السلبية للخلافة العثمانية اتجاه العرب – حجة لها ونحن نلاحظ أنه لم توجد في فلسطين دعوة إسلامية حرة تلفت الأنظار إلى قداسة هذا البلد الذي بارك الله فيه في قوله ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع العليم ﴾[1]. لتبعث في نفوس المسلمين العظمة والعزة التي بها يرفضون كل ثقافة غير إسلامية لأنها أجنبية بكل صورها وألوانها .

بل رأينا بواعث الحياة الثقافية المختلفة تصبغ بصبغة تبشيرية فمدارس الإرساليات التبشيرية تنتشر في كل فلسطين ويتهافت الطلاب المسلمون عليها وهي لا تُدرّس شيئاً عن الإسلام بل وتدرس لهم أشياء عن المسيحية حسب الطائفة التي تنتمي إليها هذه الإرسالية وكذا الطباعة فأول ما عرفت عن طريق اليهود سنة ١٨٣٠ حيث أنشأ «نسيم آق» في القدس أول مطبعة في فلسطين . أما الصحافة فقد كان للمسلمين فيها نشاط ملموس ولكن الموضوعات التي تنشر قد كانت بعيدة عن التوعية والثقافة الإسلامية وهذا يعود إما إلى مؤسسي هذه الصحف ضعيفي الثقافة الدينية بسبب تعلمهم في مدارس تبشيرية أو أن الموضوعات الدينية لم تلق رواجاً بسبب ضعف الثقافة الإسلامية وكذلك

---

(١) سورة الإسراء الآية الأولى .

الجمعيات والأنـديـة فقـد انتشرت في فلسطين بـأسماء مسيحيـة لكل الطوائف وتعـد هـذه الجمعيات بنشاطها ثمرة للمدارس التبشيرية كما يعد التعليم نشاطها النظري وكذلك الإذاعة فإن أثرها لم يكن فعالاً كأثرها اليوم لقلة من يملك أجهزة المذياع ثم إبراهيم طوقان الـذي درس في الجامعة الأمريكية في بيروت لا أجد في ديوانه قصيدة واحـدة تشير إلى أي أثر للدين في تفكيره ثم التمثيل الذي هو أبعد مـا يكون عن النزعة الـدينيـة ثم الترجمـة التي نشطت في فلسطين نشاطاً ملموساً أظهرت مدى فاعلية المدارس التبشيرية في النـاشئـة الفلسطينية ويكفي أن الأستاذ عـادل زعيتر وحـده قـد ترجم سبعـة وثلاثين كتـاباً عن الفرنسية ولم يترجم كتاباً واحداً من العربيـة إلى الفرنسيـة ولعل هـذا يكون سمة ظـاهرة وواضحة على جميع المترجمين فقد غذيت الثقافةالعربية بروافد جديدة غربية مما ولد ثقافـة جديدة غربية أكثر منها عربية أصيلة ولعل الثقافة العربية التي حملتها المدارس العصريـة «التبشيرية أو الأجنبية أو الملية» والتي وجدت لتمكن الناشئة من نقل الثقافات الأجنبية إلى العربية فكانت ثقـافتهم العربيـة مقننـة ومقـدرة بحيث لا تولـد عنـد طلابها عزة عربيـة تذكرهم بماضيهم الزاهر الـذي بـه كانت لهم العزة في الأرض ممـا يجعلهم يعيـدون مراجعـة التاريخ لمعرفة مواطن القوة والضعف لحاضرهم ومستقبلهم فـالمدارس العصريـة التي اهتمت باللغة العربية لتباعد بين العرب والأتراك الذين لا يهتمون باللغة العربية قد حولت هـذه المكاسب لصالح الثقـافـات الأجنبيـة فقـد أصبح المثقف العربي يعيش في وطنـه في غربـة ثقافية هي إلى الانجليزية أو الفرنسية أو الروسية أقرب منهـا إلى العربيـة . يقول المجـاهـد عبـد الله التـل « وقـد شجعت تقـارير المبشرين التي قـدمت لـمؤتمراتهم ، التعليم العلمـاني والدعوة القومية لتحل محل الدعوة الدينية وطالبوا بنشر التعليم الغربي لأنـه وسيلـة تنحل بها عرى الروابط الإسلامية» . راجع جذور البلاء للمجاهد عبد الله التل ص٢٢٨

هذا ولم تعدم فلسطين المخلصين من مثقفيها سواء الذين درسوا لـدى الكتـاتيب أو في جامع الجزار[١] في فلسطين أو تلقوا ثقـافـة عـاليـة في جـامع الأزهر في مصر أو في الجـامع الأموي في دمشق فقد تنبه هؤلاء إلى الخطر المحدق بالمسلمين القادم من الغرب الذي يدعو إلى فصلهم عن الدولة العثمانية ببعث الثقافـة العربيـة والـدعوة القوميـة أو بفتح المـدارس

---

(١) جامع الجزار كان مركزاً للثقافة الإسلامية مثل جامع الزيتونة في تونس .

التبشيرية الدينية أو الأجنبية العصرية . وقد نبه هؤلاء المسلمين إلى خطرها ونادوا بضرورة مقاطعتها وبعمل مدارس عصرية إسلامية ليلتحق بها أبناء المسلمين الراغبين في العلوم العصرية وقد كان إنشاء مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية تلبية[1] لهذه الدعوة ومحاولة جادة لانقاذ أولاد المسلمين من مدارس النصارى .

(١) أنشئت هذه المدارس في بيروت والحياة الثقافية فيها شبيه بفلسطين لكثرة النصارى فيها ولامتدادها على الساحل الشرقي للبحر الأبيض .

الفصـــل الثالـــث

المؤثــر السياســي

النظام الإداري :

عنـدمـا استولت الـدولـة العثمـانيـة علـى بلاد الشـام أنـاطت الحكم فيهـا بولاة كانت تعينهم من بعض الموظفين الذين ترافقهم قوات عسكرية وقسمت البلاد إلى إيالات :

الشـام وحلب وطرابلس الشـام ، وعلى رأس الإيـالـة مـوظف يعرف بـالـوالي يعـود بأموره إلى وزير الداخلية في استانبول وكل إيالـة تشتمل على عـدة ألويـة أو متصرفيـات يحكمها الوالي أو المتصرف وتتألف المتصرفية من عدة أقضية يحكم كل قضاء منهـا قـائم مقـام وكل قائم مقامية تتألف من نواح يحكم كل ناحية منها مـدير نـاحيـة وتضم النـاحيـة عـدة قرى ينوب في كل منها عن مدير الناحية واحد منها ويعرف بالمختار وكانت ولاياتها هي :

١ – ولاية حلب وتشمل شمالاً البلاد السورية .
٢ – ولايـة طرابلس الشـام وتشمـل وسـط البـلاد وتضم طرابلس وحمـاه وحمص والسلميـة وجبلة .
٣ – ولاية الشـام وتشمل جنوب البلاد وكانت تتـألف من دمشق والقـدس وغزة ونـابلس وتدمر وبيروت وصيدا .

وفي عام ١٨٦٠م أنشئت ولاية صيدا لتضم مدن السواحل وعلى أثر الفتنة بين الـدروز والنصـارى استقل جبل لبنـان (لا يضم بيروت) استقلالاً إداريـاً بـوحـدة إداريـة خـاصـة يتولاها متصرف برتبة وزير مرتبط برئيس الوزراء الـذي كان يعرف بـالصـدر الأعظم ، وحوالي عـام ١٨٨١ أنشئت متصرفيـة القـدس وصـارت تتبع وزارة الـداخليـة في العـاصمـة استانبول مباشرة وألحق بهـا أقضيـة يـافـة وغزة والخليل وبئر السبع . كما أنشئت في السنـة ذاتهـا متصرفيـة بـدير الزور ، وفي سنـة ١٨٨٨ أنشئت ولايـة بيروت لتحـل محـل ولايـة طرابلس وصيدا ويتبعها متصرفينا نابلس وعكـة ، وكانت تضم متصرفيـات حمـاه وحوران

والكرك التي أنشئت سنة ١٨٨٧ وعجلون ، ويتبع حوران متصرفية الكرك وأقضية السلط ومعان والطفيلة وفي سنة ١٩١٠ كان قضاء عجلون يتألف من مدينة واحدة هي إربد ومن ناحيتي كفرنجة والكورة كما أن متصرفية الكرك كانت تشمل ثلاثة أقضية وهي السلط ومركزه السلط ويتبعه ثلاث نواح هي مأدبا والطفيلة وعمان وتسع قرى و١٢ مزرعة وقضاء معان وقصبته معان ويتبعه ناحية الشوبك وقضاء الطفيلة المؤلف من الطفيلة وقراها[1].

يقول الأستاذ خليل طوطح « ... أما في القرن التاسع عشر فقد انتاب فلسطين تقلبات إدارية كثيرة نلخصها فيما يأتي :

كانت عكة حاضرة فلسطين الإدارية الوحيدة ثم اقتطعت صيدا قسماً منها وبعد حين أخذت الشام نابلس وبلادها وظلت البقية تابعة لعكة ثم التحقت جميعها بالشام مركز الحاكم العام «باشا الدورة» أما النظار والمتسلمون «حكام البلاد» فكانوا وطنيين من أبناء فلسطين يحكمون مقاطعتها ويجبون الضرائب ويجمعون الجنود ويطوف عليهم «باشا الدورة» فيأخذ منهم ما تعهدوا به فلما اعتزم السلطان محمود الإصلاح ألغى فرق الانكشارية وأبادها ومحا الطوائف الأخرى واستبدل بها فرقاً منظمة وغير العمامة بالطربوش الرومي وتزيا بالزي الأوروبي وأمر باتخاذه زياً رسمياً وعسكرياً ثم جاء بعده من السلاطين من نفوا بعض النظار من أمراء الاقطاع إلى طرابزون وحولوا النظارات والمتسلميات إلى مديريات على رأسها وطنيون ثم ألغيت المديريات وتجرد المشايخ من الوظائف المحلية الاقطاعية واستولى الأتراك على البلاد فعلاً فأمروا بتحرير النفوس وطوبوا الأرضين ونظموا إدارة الأمن العام وأسسوا العدلية فكانت محاكم فلسطين تستأنف الحكم إلى عدلية الشام ثم تحولت إلى عدلية بيروت وامتازت القدس فصارت متصرفية تخابر الأستانة مباشرة في الأمور الإدارية وفي ابتداء القرن العشرين تأسس فيها محكمة استئناف فانضم إليها لواء نابلس وظل لواء عكة ملحقاً ببيروت ومن ثم حكم العثمانيون البلاد بلا واسطة فارسلوا مأموريهم الأتراك وقبضوا على دفة الإدارة واتصلوا بالشعب ولكنهم تقربوا من أصحاب النفوذ وراعوا امتيازاتهم القديمة لاستمالتهم فتمادوا في غطرستهم واستعانوا بقوة الحكومة واتخذوها آلة لتنفيذ مآربهم وتسابقوا إلى الطاعة وترويج أوامر الحكومة ابتغاء الحظوة عند المأمورين وكان من كسب ثقتهم وظفر بودهم يعد سعيداً لأنه

---

(١) بلادنا فلسطين – الديار النابلسية – جـ١ ص٩–١٠ بتصرف .

يستفيد من صحبتهم بغض أبصارهم عن أعماله مهما كانت فيبطش ويستبد[1] وخلاصة القول أن فلسطين قد قسمت إلى ثلاث متصرفيات في العهد العثماني هي :

١ – متصرفية القدس ومركزها القدس وهي تتبع الآستانة مباشرة وتشمل مدن غزة ويافة وبئر السبع واللد والرملة ورام الله وبيت لحم والخليل والمجدل .
٢ – متصرفية نابلس : وتتبع ولاية بيروت وتشمل مناطق نابلس وقلقيلية وطولكرم وجنين وغور الفارعة .
٣ – متصرفية عكة : وتتبع ولاية بيروت وتشمل مناطق عكة والناصرة وصفد وطبرية[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخلافة العثمانية لم تكن تميز أو تفاضل بين ولاياتها عربية كانت أو غير عربية وعلى هذا نصت المادة الثانية من القانون الأساسي الذي أصدره الخليفة العثماني بكتاب توجيه إلى وزيره في ٧ من ذي الحجة ١٢٩٣ على ما يأتي :

الفقرة الأولى : «أن الدولة العثمانية تحتوي على الممالك والقطع الحاضرة وعلى الولايات الممتازة وجميعها جسم واحد لا يمكن تجزئته بوقت من الأوقات أو بسبب من الأسباب» .

الفقرة الثانية : «أن مدينة استانبول هي عاصمة الدولة العثمانية[3] ومقرها غير معفاة أو ممتازة عما سواها من جميع البلاد العثمانية» وعندما خضعت فلسطين للاستعمار البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى قسمت إلى ستة ألوية وضمت ستة عشر قضاء على النحو التالي:

١ – لواء القدس ويضم : القدس والخليل وبيت لحم ورام الله وأريحا وبيت ساحور والبيرة .
٢ – لواء غزة ويضم : المجدل وبئر السبع والفالوجة واسدود وخان يونس ورفح ، والنقب ومركزه غزة .
٣ – لواء اللد ومركزه يافة ويضم : تل أبيب واللد والرملة ويافة .

---

(١) تاريخ فلسطين الأستاذ خليل طوطح ص٢٦١–٢٦٢ .
(٢) جغرافية فلسطين محمد سلامة النحال ص١١٢ .
(٣) كنز الرغائب في منتخبات الجوائب جـ٦ ص٥ جمع سليم فارس الشديان وكذلك الجوائب عدد ٨٢٦ يوم الخميس ١٩ ذي الحجة ١٢٩٣هـ .

٤ – لواء السامرة ومركزه نابلس ويضم : جنين وطولكرم وقلقيلية .
٥ – لواء الجليل ومركزه الناصرة ويضم صفد وطبرية وحطين وصفوريا وترشيحا وسمخ وبيسان .
٦ – لواء حيفة ومركزه حيفة ويشمل مناطق حيفة وعكة وشفا عمرو .

وفيما بعد أعادت حكومة الانتداب تقسيم فلسطين إلى أربعة ألوية هي :

١ – اللواء الجنوبي ومركزه يافة .
٢ – اللواء الشمالي ومركزه حيفة .
٣ – لواء الجليل ومركزه الناصرة .
٤ – لواء القدس ومركزه القدس .

المسألة الشرقية : وهي عبارة عن أطماع الدول الغربية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية – الرجل المريض – بحجة حماية الأقليات الدينية وتحرير الشعوب ولعل المسألة الشرقية تبدو واضحة بعد ثورة اليونان على السلطنة عام ١٨٢٥ فاتجهت أنظار الساسة الأوروبيين إلى تركية وهم بين طامع فيها يود تقسيمها ومحافظ عليها يود أن يجعلها ترساً لصالحه ، وقد كانت هذه الأدوار تتوزعها روسية وألمانية وفرنسة وبريطانية حسب مصالحها غير أن الدول الأوربية كانت على اتفاق بصدد تحرير اليونان عملاً بمبادئ الثورة الفرنسية ظاهراً وتحقيقاً لتحرير العناصر والدول المسيحية من ربقة حكم الإسلام باطناً ، ولما رفض الباب العالي تدخلهم أحرقوا الأسطولين العثماني والمصري في موقعة نافارين باليونان وزحفت روسية لتحرير مكدونيا وما حولها ومن هذا كانت بداية «المسألة الشرقية» في عرف الدول الغربية وهي في الواقع رجعة إلى الحروب الصليبية من جانب أوربة حيث اتخذ بعضها المطالبة بالاصلاح وحماية ومساواة الأقليات في الحقوق حجة لتدخله وكانت روسية تطالب بإجلاء المسلمين عن سائر أوربة المسيحية . ولما تقدمت جيوش إبراهيم باشا المصرية سنة ١٨٣٩م واحتلت سورية كلها ودخلت تركية متوجهة إلى دار الخلافة وقفت الدول الأوربية إلى جانب تركية وأعادت سورية لدار الخلافة وعندها أصبح مصير تركية بين أيدي ساسة أوروبة عندها أعلن السلطان عبد الحميد «فرماناً سلطانياً» وعدة إصلاحات لتحسين وضع الأقليات[1] كانت تسير ببطء لقلة الأكفاء من

---

(١) أوليات سلاطين تركيا ، محمد جميل بيهم ص٤٤–٤٥ .

رجال الدولة بالإضافة إلى أن رعاياها كانوا عقبة كأداء في سبيل تحقيقها ، وقد أشار فيكتور بيرار إلى هذا فقال « لقد كان المسلمون يطلبون الأفضلية التي يجب أن تكون من نصيب المؤمنين وحدهم في بلاد الخلافة بينما كان النصارى يحرصون على الحقوق والامتيازات المورّثة التي كانت لطوائفهم ولكنائسهم وكان وراء المسلمين الإسلام وعطف الدولة وكان خلف النصارى الدول الأوربية ودسائسها وتدخل جيوشها [1] وقد أدت روسية دوراً مهماً في عرقلة مساعي الإصلاح وإثارة الدول الأوروبية لتجزئة السلطنة [2] وإثارة الفتن في أمصارها عن طريق تزويد دول البلقان بالسلاح ولما أشهرت روسيا الحرب على تركيا في حرب القرم عام ١٨٥٣ وقفت تركية وفرنسة وانجلترة ضدها ففشلت مطامع روسية ولكن هذه الحروب حملت الخلافة عجزاً مالياً جعلها تقدم على أول قرض من أوروبة ، وقد اضطرت السلطنة لأن تصدر فرماناً باسم «الإصلاحيات الخيرية» مؤكداً لمضمون الإصلاحات التي أعلنت على أثر الحملة المصرية ترضية لباريس ولندن [3] وهو المشهد نفسه الذي حدث حين قامت فتنة في بلغارية في عام ١٨٧٥ وجعل الأتراك يطاردون الثوار ويتعقبونهم من مكان إلى آخر حتى لجأوا إلى إحدى قرى بلغارية واسمها «بتك» .

ودخلوا كنيسة القرية يلوذون بمقدساتها فما كان من الأتراك إلا أن صبوا عليها البترول وأشعلوا فيها النار حتى أفنوهم عن آخرهم وقدر عدد الضحايا بنحو خمسة آلاف نفس فلما وصل نبأ هذه الفظائع إلى حكومات أوروبة ثارت ثائرتها وأعلن جلادستون السياسي الانجليزي الشهير قولته المعروفة « إن الأتراك يجب أن يرحلوا عن أوروبة بقضهم وقضيضهم » [4] واجتمع مندوبو الدول في استانبول يتداولون ويبحثون فيما يجب اتخاذه من القرارات والضمانات حتى لا تتكرر مثل تلك المآسي في البلاد الخاضعة للسلطان خاصة أوروبة وبينما كان المندوبون جادين في مداولاتهم إذا بطلقات المدافع من قلاع استانبول تطرق آذانهم وتعلن للملأ صدور دستور جديد للبلاد عام ١٨٧٦ وهي بداية تولي السلطان عبد الحميد الثاني للحكم ومن باب « الشيء بالشيء يذكر » نود أن نذكر ما

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني ، محمد جميل بيهم جـ٢ ص١٥٩ راجع أيضاً كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين جـ١ ص٧٩-٨١ .

(٢) عبد الحميد ظل الله على الأرض ص٧٢-٧٣ راجع أيضاً تاريخ الدول العلية ص٢٤١ .

(٣) فلسفة التاريخ العثماني جـ٢ ص١٦٠ .

(٤) التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة ص٨٣-٨٤ .

لحق المسلمين البلغاريين على يد الروس من قتل وعذاب فقد نشرت الجوائب ترجمة المضبطة التي كتبها ووقعها عدة من مراسلي ومخبري الجرنالات الأجنبية نقلاً عن جرنالات بك أوغلي وهي « نحن مخبري الجرنالات الأجنبية الواضعين أسماءنا وإمضاءنا بذيل هذا الرقيم القاطنين الآن في شمله نرى من الواجب علينا أن نعيد هنا على سبيل الإجمال ما حررناه سابقاً بالتفصيل إلى الجرنالات من جهة الفظائع المغايرة للإنسانية التي جرت في البلغار على المسلمين البريئين ونصرح بأنا رأينا بأنفسنا في زغراد وشملتا نساء وأولاداً ورجالاً مجروحين بضرب السيوف ووخز الرماح من عساكر الروسية وفي بعض الأحيان من البلغاريين وسمعنا أيضاً منهم أن سكان عدة قرى من المسلمين قتلوا عن آخرهم وطرحت جثثهم في مواطنهم وفي الطريق وفي كل يوم يأتي كثير من المجروحين ونصرح أيضاً بأن أكثر هؤلاء المظلومين من النساء والأطفال » محل الامضاء فتسفر لر مخبر منشستر غارديان ساتر غر كوبلنغ زيتنع وغيرهم[1].

أما حماية الأقليات فكما أنها أربكت الدولة العثمانية للتميز بين رعاياها في الحقوق والواجبات ... ألحقت أضراراً بالغة بالمسلمين وهم الأكثرية الذين عاشوا مئات السنين مع هذه الأقلية ولم يميزوا أنفسهم عنها بشيء وقد ظهرت حاجة الأقليات للتميز نتيجة لأطماع وتحريض الدول الأجنبية التي جعلت من علاقتها الدينية بهذه الأقليات وسيلة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية تمهيداً لاقتسامها وقد نالت هذه الأقليات امتيازات كثيرة نتيجة لرعاية الدول الأجنبية الغنية لها فنالت حظاً وافراً من التعليم والمساعدات الاقتصادية مما أهلها لأن تظهر وتعلو على حساب الأكثرية المسلمة التي لا ذنب لها إلا أنهم مسلمون وقد أصبحت هذه الأقليات ركائز ثقافية واقتصادية للدول الغربية التي يتشابهون معها في الطائفة الدينية وكانت أيضاً محاطة بسور سياسي استعماري بحراسة دول أجنبية لم تربطها بهذه الأقلية أي رابطة طيلة مئات السنين .

وأضرب مثلاً واحداً لأقلية يهودية في صفد وكيف أنهم كانوا مدللين بفعل حماية الدول الأجنبية لهم « فقد ذكر السائح الانجليزي الموجود سنة ١٩٤٥ (كينجلوك Kinglocke) في كتابه "Eathan" في الفصل الذي عقده باسم النبي دامور يقول فيه « سمعت وأنا في طبرية أن أهل صفد متعصبون ويكرهون الأجنبي لذلك لم أدخل المدينة

---

(١) الجوائب عدد ٨٨٠ ص١٨ رجب ١٢٩٤ .

بل نصبت خيامي في ظاهرها وتحت الظلام زارني وفد من يهود صفد وكم ضحكت عندما خاطبني أحدهم بقوله : يا مواطني مع أنه مولود في جبل طارق بأسبانية ثم قال ، إن حالتهم سيئة جداً ولم يذوقوا طعم الراحة في صفد ، ولكنهم مضطرون للبقاء فيها بسبب قداستها وفي هذه السنة أصيبوا بنكبة فادحة فإن أحد دراويش المدينة واسمه الشيخ محمد دامور وقف مرة في السوق وصاح بأعلى صوته «إن اليغمة» (الهجوم) على حارة اليهود قريبة في أول ربيع سنة ١٢٥٠هـ فر الناس به غير مكترثين وما أن حل اليوم الموعود حتى كانت جموع القرى تملأ حارة اليهود ومحمد دامور يتقدمهم وهو يصيح : هذا هو اليوم الموعود فهرب أكثرنا والذي بقي لم يتجاسر أن يبدي حراكاً حتى كان الولد المسلم الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ينهب الدار وصاحبها اليهودي لا يجرؤ على رفع رأسه إليه فضاعت أموالنا وأمتعتنا وكل ما نملك ثم علا نشيجه حت استدر عطفي ، وتكلم الثاني ورجاني أن أعمل ما في وسعي لانصافهم فقلت في نفسي يجب ألا أتدخل فيما لا يعنيني ومع ذلك طيبت خواطرهم وقلت لهم سأتوسط لكم عند الباشا وصديقي قنصل بريطانية فيها وصرفتهم ولكنهم عادوا بعد خطوات قليلة يرجونني ألا أذكر على ألسنتهم أي شيء لأن ذلك سيؤدي إلى الشدة عليهم من جديد ولا فائدة من مراجعة الحكام فإنهم شركاء في أموالنا من أصغر فلاح إلى الوالي نفسه وفي الصباح جائتني نساؤهم بأنواع الكعك والحلوى وقناني الخمر التي اكتسبت لونها من حمرة خدودهن[1] وأرسل وجوه صفد رسالة إلى الأمير خليل ابن الأمير بشير الشهابي الثاني صديق المصريين ذكروا فيها « ... وحارة اليهود في نفس صفد صار عليها نهب من أهالي الديرة والجبل ... ولما علم بشير الشهابي أن كل شيء تم في صفد قصدها من الصنصافة ولما وصل إليها جمع اليهود فيها وسألهم عن منهوباتهم فقالوا : لا يعلم مقدار ذلك إلا الله ولكن المال وحده يزيد على أربعة وتسعين خزنة في كل خزنة عشرة أكياس وفي كل كيس خمسمائة جصة فطلب من الأعيان تقديم هذا المبلغ فأقسموا له بأغلظ الأيمان أن كل ما يملك يهود صفد لا يوازي عشر معشار ما ادعوه فلم يسمع كلامهم بل ضبط بيوتهم وأرزاقهم وأخذ يعذبهم حتى هرب كثيرون منهم إلى عكة والناصرة وغزة ودمشق ومصر وهنا سر كثرة أسماء أسرة « الصفدي » في خارج صفد ؛ ويقال إنه مات عدد عظيم من الرجال تحت أسواط عذابه ثم أرسل إلى سجن عكة ثمانية عشر من ذوي المقام فيها وفيهم نائب صفد (عبد الغني

---

(١) من تاريخنا محمود العابدي جـ١ ص٢٠٧-٢٠٨ .

النحوي) ومفتي صفد (محمد السلطي) والنقيب السيد علي ومصطفى العبدوني وسليم محمد القواسمي وغيرهم .

ومما تجب ملاحظته أن القناصل الأوربيين والمؤلفين والمغرضين قد بالغوا في الخسائر التي أصابت يهود صفد وها هو ذا جرمانوس بحري الذي أُرسِل إلى صفد ليدرس حالة اليهود عاد بتقرير إلى محمد علي باشا والي مصر يقول فيه : « بما إن قناصل الدول أكدوا لليهود أن الحكومة المصرية ستدفع خسائرهم من خزانتها فإن الكثير من اليهود قد اعتدى على الحق وبالغوا فيه ولقد بذلت قصارى جهدي في أن أحمل الحاخامين على الرجوع إلى الحق ولكن لم أنجح[1].

وفي هذا الموضوع كتب حنا بك بحري إلى إبراهيم باشا كتاباً هذا نصه :

إلا إن شقيقي عبدكم كان قد ذهب إلى صفد بمأمورية تحقيق منهوبات اليهود القاطنين في الجهة المذكورة فعند وصوله إلى هناك علم أن قوائم المنهوبات المقدمة من طرف هؤلاء اليهود تتضمن أشياء لا وجود لها كما أن الثمن المقدم للأشياء المدونة يبلغ الضعف لأنهم زعموا - باغواء بعض وكلاء القناصل - أن بدل منهوباتهم سيصرف لهم من الخزينة وبما أن الكولونيل كامبل (قنصل بريطانية في الاسكندرية) قدر خسائر اليهود بسبعين ألف جنيه وهو من المقاومين للسلطان محمد علي فعلينا أن نفترض على صحة ما قيل من أن محمد علي لم يعتقد أن هذه الخسائر تجاوزت ٢٥ أو ٣٠ ألف جنيه وعندنا وثيقة رسمية محفوظة في السجلات الملكية في القاهرة كتبها باغوص بك الأرمني في ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٣هـ بأنه علم من إفادة المقادير منها عند هؤلاء النفر من اليهود في قرية صغيرة مثل صفد ، وقد كان كذبهم واضحاً كما جاء في تقرير جرمانوس بحري وكذلك في رسالة حنا بحري السالفة الذكر ومما يلاحظ من رسالة حنا بحري أن الوالي محمد علي باشا أمر ببيع جميع أملاك أهالي صفد لتقسم على اليهود فيها لترضية الدول الأربع بريطانية والنمسة وروسية وبروسية خوفاً من تدخلها في أوضاعه الداخلية ليس أكثر ومع هذا وقفت هذه الدول إلى جانب تركية وأعادت سورية إليها .

والمسألة الشرقية قامت على أساس التعصب الديني لفصل البلاد البلقانية عن الدولة

---

(١) من تاريخنا محمود العابدي ص٢١٢-٢١٣ .

العثمانية وجعلها مسيحية وعن طريق امتيازات الأقليات الدينية في البلاد العربية كل هذا كان واضحاً من خلال العرائض التي كانت تنهال على الملكة فكتورية طالبة انقاذ المسيحيين من مذابح المسلمين[1] وكان جلادستون زعيم حزبي الأحرار في انجلترة يلقى الخطب ويؤلف الرسائل ناسباً إلى تركية اضطهاد المسيحيين مشيراً إلى السلطان عبد الحميد بقوله «الشيطان» (عدو المسيح) وهذا اللورد كرومر سكرتير سفارة انجلترة في الأستانة يكتب تقريراً مطولاً عن المسألة البلقانية ينسب فيه إلى المسلمين ارتكاب جرائم بشعة في الانتقام من المسيحيين مقترحاً أن يكون حكام هذه الأقاليم مسيحيين[2] كما اقترح أحد كتاب فرنسة القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول محمد ﷺ ونقل عظامه إلى متحف اللوفر في باريس[3] كل هذه الشواهد تدل على أن الروح العدائية الغربية تجاه الخلافة العثمانية كانت صليبية عدوانية .

ولكن المسألة لم تخل من بعض المسائل الإيجابية بآثارها على الشرق يقول الأستاذ العقاد « وكانت المسألة الشرقية قد تمخضت عن دور آخر وراء دور الحروب الصليبية وهو دور التفاهم بين دول الاستعمار على تركة الرجل المريض فبعد أن كان الغرض من المسألة الشرقية انتزاع الأقطار المسيحية من أملاك الدولة العثمانية أصبح هذا الغرض كما قلنا في كتاب ضرب الاسكندرية هو تقسيم أقطارها جميعاً من مسيحية وإسلامية وتبادل الأعضاء عن كل نصيب متفق عليه في قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على التركة وصاحبها بقيد الحياة[4] .

إلا أن المسألة الشرقية صنعت من المعجزات في إيقاظ الشرق ما لم تصنعه الحروب الصليبية لأن الشرق العربي انتصر على الغرب في تلك الحروب ورد عادية الدول الأوروبية عن ذمارة فقنع بما انتهى إليه وبقي على حاله التي هو فيها وهبط من بعدها درك بعد درك حتى أصبحت أممه بين موروث بقيد الحياة وبين ميراث كأسلاب الغنيمة فيمن يقدرون على السلب والاقتسام .

---

(١) عبد الحميد ظل الله على الأرض ص٧٤ .

(٢) تاريخ الدولة العلية ص٢٣٩ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص٨٠١ .

(٤) محمد عبده للعقاد ص٩—١٠ .

نعم إن المسألة الشرقية جاءت في أوانها هذا فصنعت من المعجزات ما لم تصنعه تلك الحروب وكان سر هذه المعجزات أنها فتحت أعين الشرق على مواطن عجزه ونقصه وعلمته قهرا ما كان يأبى أن يتعلمه باختياره فأدرك حاجته إلى التغيير العاجل وأدرك ما هو ألزم له من ذلك وهو حاجته إلى علم يجهله واعتقاده أن أمم الغرب قد انتصرت بذلك العلم عليه وأنه لا غنى له عن ذلك العلم ليستعيد القوة التي انتصر بها على أعدائه قبل أن ينتصروا عليه ويأخذوا عليه كل طريق غير طريق الفناء ومن لم يطلب التغيير بعلم يتعلمه من المنتصرين عليه كان أبله أو أحمق فقد آمن بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وآمن بأن قومه غيروا دينهم فتخاذلوا واخذلوا فلا نجاة لهم بغير الرجوع إلى الدين الصحيح مبرأ من لوثة البدعة والخرافة سليماً من شبهة الدجل والغفلة[1].

هذا وقد أدرك علماء المسلمين قاطبة أن الواجب على المسلمين أن يتعلموا النهضة الغربية الصناعية على ألا يكون ذلك على حساب ديننا ، أما الذين درسوا في الغرب فكانوا يدعون إلى اقتناء أثر الغرب في كل معتقد للوصول إلى ما وصلوا إليه فقد ربطوا النهضة الأوربية بالمعتقدات والأفكار الأوربية وقد كانت دعوتهم هذه تتفاوت بين التصريح والتلميح وقد وقف الشيخ النبهاني[2] يقاوم هذه الدعوة في بلاد الشام كما قاومها علماء الأزهر في مصر .

الجامعة الإسلامية :

تسلم السلطان عبد الحميد العرش ١٨٧٦ وقد كانت السلطنة تعاني أشد الأزمات فقد استنفذت أموال القروض ولا سيما منذ أصبحت مشفوعة بتبذير عمه السلطان عبد العزيز في حين أن أوروبة التي كانت تلح على تركية من أجل تحقيق ما وعدت به من الاصلاحات وتهددها إذا أحجمت وفي الوقت نفسه تعمل على إثارة العناصر في كل مكان فلا تترك للدولة مالاً ولا وقتاً لتحقيق هذه الاصلاحات .

---

(١) المرجع السابق ص١٠-١١ .

(٢) هو الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني ولد في اجزم قضاء حيفا عام ١٨٤٩ وتوفي في بيروت عام ١٩٣٢ وتقلد مناصب قضائية في العراق وبلاد الشام إلى أن أصبح رئيساً لمحكمة الحقوق العليا في بيروت قاوم النفوذ النصراني والاتجاه الأوروبي بكل قوة كما يقول بروكلمان في تاريخ الشعوب الإسلامية – كتب ٦٨ مؤلفاً كلها تدور حول شخصية الرسول ﷺ ومحاربة الأفكار الوافدة وله ديوان «العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية» . مطبوع .

وقد كانت همة السلطان عبد الحميد عالية في تحقيق الإصلاح فمنذ أن تولى السلطنة فاجأ مؤتمر سفراء الدول المجتمعة في الأستانة – لتقرير نوع الاصلاح في شرق أوروبة العثمانية فأعلن الدستور ولكنه سرعان ما عاد وألغاه لأنه وجد أن المساواة بين العناصر والملل لم يكف أطماع روسية بل أعلنت عليه الحرب كما أن الدول الطامعة الأخرى لم تكف عن تحريض الشعوب على الفتن التي بها يتدخلون في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية .

وأخيراً خرجت تركية من شرق أوروبة بموافقة بريطانية التي كانت تقف في وجه أي تقسيم للسلطنة .

وقد كان السلطان عبد الحميد يقيم سياسته على أساس التوازن السياسي الدولي غير الثابت مما يلحق بسيادة السلطنة خسائر فادحة كما حدث في الممالك العثمانية في شرق أوروبة فتأكد له أن لا منجاة للدولة إلا بحيازة القوة ولكنه كان لا يملك المال والرجال فثلاثة أرباع شعبه يتحفزون للثورة عليه والانفصال عنه فلم يجد أمامه إلا عواطف المسلمين في أقطار العالم الإسلامي وأنظارهم الشاخصة إلى دولة الخلافة . ولم يكن السلطان عبد الحميد يحتاج إلى مزيد دعاية للجامعة الإسلامية فإن هجوم كرومر الدائم على المسلمين في بعض تقاريره وفي كتابيه اللذين ظهرا بعد مغادرته مصر « مصر الحديثة » وعباس الثاني»[1] وتصويرهم في صورة الهمج المتخلفين وإن الإسلام غير صالح لأن يكون ديناً لمجتمع راق ، ومما قوى فكرة الجامعة الإسلامية أيضاً مخاصمة الدول الأوروبية للدولة العثمانية باسم الدين حمية لدول البلقان المسيحية[2] .

والحقيقة أن الشعوب الإسلامية كانت في حالة من التمزق والتفرق والتأخر السياسي والثقافي لا تسمح بانضمامها إلى رابطة أو وحدة في يوم ما ، وقد كشف مصطفى كامل عن هذا المعنى فقال « إنه لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحدة أن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبة أن الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هي أن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى المقصود منها في أوروبة لا وجود لها بالمرة أما الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها إلى بعضها البعض ، وأنه لما كان لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة فإن نهضتهم تكون

---

(١) مصر الحديثة جـ٢ ص١٢٩ عباس الثاني ص٤٥، ٤٨ نقلاً عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر جـ١ ص٦١ .

(٢) تاريخ الدولة العلية ٣٣٩ .

بوسائل واحدة وإن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط بل هو قانون اجتماعي[1].

وقد أشار جمال الدين الأفغاني مراراً في مجلة العروة الوثقى إلى الآمال التي يعلقها المسلمون على دولة الخلافة وأن جميع المسلمين يعدون أنفسهم رعايا هذه الدولة وإن كانوا خارج حدودها السياسية خصوصاً المسلمين في الهند حيث أصبح الانجليز يخشون من إثارة السلطان عبد الحميد لدعوة المسلمين في الهند للثورة على الانجليز[2].

كما يبدو أن السلطان عبد الحميد بحنكته ودهائه استطاع توقيت الدعوة للجامعة الإسلامية حيث أن الإسلام كانت له شهرة عالمية بعد أن صَدِم العالم بالثورة الصناعية التي لم تستطع أن توفر السعادة للشعوب إذ لا بد من قيم روحية ترافقها حتى يكون الإنسان قد اكتمل من جانبيه الروحي والمادي وفي هذا الوقت كانت الصحف تُرَوِّج احتمال اتباع اليابان للدين الإسلامي وقد تابعتَ الموضوع في مجلة ثمرات الفنون التي كان يصدرها الشيخ عبد القادر القباني في بيروت في مقالات مسهبة في العدد ١٥٧٠ ص٤ تموز ١٩٠٦ وعدد ١٥٨٧ ص١٤/٥ آب ١٩٠٦ وعدد ١٥٦٦ في ١٩/١ ربيع الأول ١٣٢٤هـ وقد أرسلت الدولةَ العلية كلا من محمود أسعد أفندي مستشار الحقوق في نظارة المالية وإسماعيل أفندي مناسترلي إجابة لطلب الميكادو من السلطان عبد الحميد الثاني هذا وقد كان إقبال اليابان على اختيار أحد الأديان السماوية حديث الساعة في جميع صحف العالم . وتصور مجلة «ثمرات الفنون» أن هناك شبه إجماع من الصحف العالمية على ترشيح الإسلام،منها ما نقلته عن إحدى المجلات الألمانية حيث تقول « ... وأما الدين الذي سترتضيه اليابان فهو مما لا يمكن القطع به الآن غير أن الظواهر والأمارات تدل على أنه سيكون الدين الإسلامي بدليل أن حكومة اليابان أضحى لها سبع عشرة سنة وهي تبعث بعلمائها إلى البلاد الإسلامية للبحث عن أسرار هذا الدين والتحري عن حقائقه حتى بات أولئك العلماء مقتنعين أن اليابان لا تتخذ غير الدين الإسلامي ديناً وهناك دليل آخر يبرهن على صحة هذا القول ويدل على تفضيل اليابان لدين الإسلام على سائر الأديان وهو خدماتها المهمة التي قدمتها نحو المسلمين وظهورها بمظهر التعظيم والاحترام لدينهم وثمة دليل ثالث أيضاً وهو إعلان حكومة الصين إجابة الطلب الياباني أن المسلمين الذين

---

(١) عبد العزيز جاويش لأنور الجندي ص١٦ .

(٢) العروة الوثقى ص٢٧٢-٢٧٤ .

يعدون بالملايين في البلاد الصينية هم مساوون للوثنيين في جميع الحقوق ثم ختمت الجريدة الألمانية كلامها بقولها : إنه إذا دانت اليابان بالإسلام فإنها ستحرز حياة جديدة وقوة عظيمة[1].

هنا وقد لاحظ السلطان عبد الحميد ملاءمة الظروف الدولية هذه لإعلان الخلافة الإسلامية لتعزيز السلطنة بقوة جديدة ودفع المؤامرات التي تبيتها أوروبة وقد كانت أوروبة تقدر الطاعة والولاء الذي تكنه الشعوب الإسلامية للخلافة .

يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي « وقد كان من هيبة السلطنة على ممالكها خصوصاً مصر حتى بعد استقلال محمد علي باشا – ما جعل بريطانيا تؤخر اعلان استعمارها لمصر من سنة ١٨٨٢–١٩١٤ وقد لاحظ الزعيم مصطفى كامل ذلك فكان يدعو دائماً إلى الارتباط بالدولة العثمانية ولو اسمياً خوفاً من بريطانية وكان العرب ولا يزالون يتمتعون بقدسية ترجع إلى أنهم هم الذين حملوا راية الإسلام وراء الرسول ﷺ ثم هم لا يزالون أصحاب القرآن أنزل بلسانهم ولا يزال يقرأ في العالم بلغتهم . فقرر الخليفة الاستعانة بهم خصوصاً أنهم كانوا بعيدين عن النزعةالاستقلالية التي سرت بين العناصر العثمانيةالأخرى ، ولم يفكر العرب في الاستقلال عن السلطنة إلا عندما أرسل الاتحاديون حاكمهم في سورية أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٦[2].

قرر السلطان عبد الحميد أن يستعين بالمسلمين وذلك بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية وأن يقوي صلته بالعرب نواة المسلمين وهو يؤمل أن يهز عصا الخلافة وقت الحاجة[3].

وقد استهل مشروعه هذا بدعوة كل من خير الدين باشا التونسي النشأة الجركسي الأصل وجمال الدين الأفغاني – ولعل مشروع الخلافة الإسلامية يكون من وحي أحدهما أو دعاهما لمساعدته في تنفيذ المشروع . ومن يقرأ أعمال جمال الدين يجد أنه كان من الداعين إلى الجامعة الإسلامية أصلاً وكثيراً ما كان يهيب بالخليفة للاستفادة من شعور المسلمين نحوه ثم قرب السلطان فريقاً من علماء العرب وشيوخ الطرق كالشيخ أبي الهدى الصيادي الرفاعي من خان شيخون في جوار حلب ، والشيخ محمد ظافر من الجزائر ،

---

(١) مجلة ثمرات الفنون عدد ١٥٧٠ ص٤، ٩ تموز ١٩٠٦ .

(٢) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص٢٢٧ .

(٣) عبد العزيز جاويش ص٢١–٢٢ .

والشيخ سعيد من حمص ، والشيخ أحمد أسعد القيصرلي من المدينة ، كما استدعى بعض أشراف مكة وعلى رأسهم الحسين وعلي حيدر وعبد الله باشا وصادق باشا وأجرى على هؤلاء العلماء والأشراف المرتبات وخصهم بالكنايات كما أجرى المرتبات وأجزل العطايا لغيرهم من المتخلفين في بلادهم المعروفين بنفوذهم كما عهد إليهم بمختلف الوظائف والمناصب الرئيسية في الدولة دون تفريق بين الملل فقد عين أحمد عزت باشا العابد الكاتب الثاني في بلاطه الذي تمتع بنفوذ واسع جعله الأول في السلطنة وشفيق بك المؤيد المفوض في الديون العمومية وشفيق بك الكوراني رئيس الضابطة وعرب حقي باشا وسليم بك ونجيب بك ملحم وقد بلغوا رتبة الوزارة وجميعهم من سورية ولبنان وطالب بك النقيب وأحمد باشا الزهير من أعضاء مجلس شورى الدولة وهما من العراق ، كما اتخذ من بعض ضباط العرب خاصة له فكان ياورانه الفريقان محمد باشا ومحي الدين باشا ولدا الأمير عبد القادر الجزائري ، وكان المشير أركان حرب شفيق باشا وأخوه الفريق وهيب باشا من أساتذة المدارس العسكرية من قرية المتين في لبنان وشكري باشا الأيوبي الدمشقي ناظر الأعمال العسكرية والدكتور يوسف الرامي من لبنان وكان أستاذ علم التشريح والدكتور الياس مطر من بيروت والأستاذ سليم يازر من بلدة دير القمر في لبنان وكان أستاذاً في مدرسة الحقوق واتخذ من أبناء العروبة حرساً أنزلهم حول قصره وألبسهم العمائم الخضر كما عمد إلى مصاهرتهم فزوج أميرتين من أسرته من شابين عربيين ورفعهما إلى رتبة الإمارة وهما الأمير عبد المجيد بن الشريف علي حيدر وصالح بك بن خير الدين باشا التونسي ولف حوله طائفة من الكرد والأرناؤوط كدرويش باشا الألباني أحمد الياوران وإسماعيل باشا الكردي فضلاً عن بعض الشراكسة كما أنشأ مدرسة العشائر لتربية أبنائها . كما فتح معاهد الأستانة أمام جميع الطلبة ليقر في نفوسهم أنهم جميعاً يشتركون في أنهم عثمانيون وقد رحب السلطان كثيراً بفكرة أحمد باشا العابد بمد خط حديدي بأموال المسلمين يصل بين سوريا والحجاز وقد ناسبت هذه الفكرة برنامج السلطان بجعل نفوذه الفعلي إلى الحرمين الشريفين إضافة إلى تسهيل الحج على المسلمين ليكسب عواطفهم في العالم قاطبة . وفي الجملة نجح السلطان عبد الحميد في تحقيق الجامعة الإسلامية قدر المستطاع وقد حفظت سياسته سلطنته في مناسبات عدة من الأخطار كما أنها أخرت زوالها سنين عديدة أما عصا الخلافة في تلك الحقبة التي كان يلوح بها فهي العَلَم النبوي الشريف ليزحف المسلمون وراءه من كل صوب »[1] ولعل في الحادثة التالية

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني . محمد جميل بيهم ص١٧٩–١٨٠ .

التي وقعت لفؤاد باشا مندوباً عن السلطنة في بيروت بمناسبة فتنة ١٨٦٠ توضح قوة الخلافة وأثرها في قلوب المسلمين وأن الجهاد المعلن من الخليفة هو السلاح الرهيب الذي كانت تخافه الدول الأوروبية « فقد كانت بيروت تعج بعد هذه الفتنة بسفراء الدول الذين انتُدِبُوا للتحقيق في المذابح التي وقعت في لبنان وتمدنته إلى دمشق وكان هؤلاء السفراء يتبادلون الدعوات والحفلات فيا بينهم وبين مندوبي الحكومة فتحفل هذه الاجتماعات بالتعليقات على الشؤون السياسية وتتخللها المداعبات .

دخل المدعوون ذات يوم إلى مائدة أقيمت على ظهر سفينة أمير البحر النمسوي : وكان فؤاد باشا وبعض أركان الحكومة في مقدمتهم فإذا بهم يشاهدون أعلام الدول مرفوعة على المائدة فوق رؤوس حيوانات من المعجنات وكل واحد منها يعلو رأس الحيوان الذي اتخذته الدولة رمزاً لها فكان علم فرنسا يخفق على رأس الديك وعلم روسيا على هامة الدب وعلم انكلترا على الأسد أما لواء تركيا فكان مرفوعاً على هامة خنزير وشاء أحد السفراء أن يتحدى فؤاد باشا على سبيل المفاكهة فأشار إلى الخنزير سائلاً عن العلم الذي يرتفع فوقه فابتسم الباشا وقال له « هذا علم تركيا المظفر فوق أرضكم الخبيثة » وأثناء ضحك السامعين تناول الحديث آخر وقال بين الجاد والمازح « لا تزالون يا صاحب الدولة تذكرون النصر والانتصار وإذا أرجعنا مصدر ذلك إلى شجاعة جيشكم فأين لكم تأمين المال وهو عصب الحرب وحينئذ استقام فؤاد باشا وتحول إلى المتحدث وقال بلهجة الجاد « حسبك فقد أحرجتني حتى لم يبق في وسعي كتم السر أنتم تعلمون كم مضى على المسلمين وهم يقصدون إلى بيت الله الحرام وكم من ملايين قد أدت فريضة الحج في هذه الحقبة الطويلة أما الذي لا تعلمونه وقد حملتوني على إفشاء سره فهو أن لبيت مال المسلمين الذي تسمعون به فريضة على الحجاج يؤديها كل منهم على قدر طاقته ولا بأس أن يكون أول تلك الفريضة بتقديم الجواهر والأحجار الكريمة وبعد : فكم تبلغ ثروة بيت مال المسلمين هذه التي لا تحسبون لها أي حساب إنها رهن أوامر الخليفة حتى يضطر لإخراج العلم النبوي ودعوة المسلمين إلى الجهاد فنحن إذا يا سادة أغنياء بالرجال وبالمال أيضاً[1].

ثم يعقب الأستاذ بيهم على هذه الحادثة فيقول « وهذه الحادثة التي رواها لي في عهد

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني جـ٢ ص١٨٠-١٨١ .

الصبا أحد الشيوخ تدل سواء كانت صحيحة أو موضوعة على أن السلطنة العثمانية كانت حتى قبيل عهد السلطان عبد الحميد المشار إليه تستفيد من الخلافة عفواً أو تجرب أن تستفيد منها ، ولكن هذا العاهل الذكي السلطان عبد الحميد اختط طريقة عملية للجامعة الإسلامية وذللها لسياسة الدولة حيال الأجانب واستثمرها أحسن استثمار غير أن من الواجب الاعتراف بأن هذه السياسة وإن حققت لواضعها جملة من المنافع جرت وراءها كثير من الأخطار الداخلية والخارجية فالأتراك على وجه عام نقموا على السلطان من جراء تقريب أبناء العروبة دونهم وأنكر عليه شبابهم المثقف هذه السياسة الإسلامية لأنها لا تتفق مع روح العصر ، ولا تتلاءم مع التعاليم التي اقتبسوها عن أوروبا فأجمعوا أمرهم بينهم على إزاحته عن العرش حتى يتسنى لهم تطبيق الدستور القائم على مبادئ الثورة الفرنسية[1] وبعد أن عزل السلطان عبد الحميد ضعفت الرابطة الإسلامية بين السلطنة وولاياتها وانكشفت حقيقة حزب الاتحاد والترقي ومعاداته للإسلام ، بعدما صرح رئيس وزراء الجمهورية التركية الجديدة بقوله علناً وعلى رؤوس الأشهاد بأنه لم تبق لتركية علاقة بالدين الإسلامي الحنيف وبعدما أعلن الحرب على الإسلام فألقى بالقرآن الكريم من يده من غرفته التي هو فيها وحرض المراسلين المسيحيين على التبشير بإنجيلهم في البلاد الإسلامية لحمل المسلمين على اعتناق الدين المسيحي[2] وبعد عزل السلطان عبد الحميد سرعان ما قسمت بريطانيا وفرنسة العالم العربي بينهما واستولت إيطاليا على ليبيا .
كما اتجهت الحملات العنيفة لتشويه تاريخ الدولة العثمانية وسلاطينها وكان مصدرها ذلك الاتجاه الذي خلّفه النفوذ الأجنبي وجند له عدداً من الكتاب والمفكرين وأغلبهم من متعصبي اللبنانيين والأتراك ورجال الدونمة ممن هاجروا إلى مصر وكانوا يعملون في قصر عابدين والسفارة البريطانية أو الفرنسية رامين إلى القضاء على الإسلام واللغة العربية علماً بأن أول جمعية سرية تألفت لمقاومة العثمانيين قامت في الجامعة الأمريكية في بيروت وقد حملت فكرة الجهاد العربي كوسيلة للقضاء على فكرة الجامعة الإسلامية لتمزيق وإسقاط دولة الخلافة الإسلامية[3] .

وكان الشعور بالانتماء والولاء إلى الجامعة الإسلامية شعوراً عاماً وظاهراً على جميع

---

(١) قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور محمد جميل بيهم جـ٢ ص١٦-١٨ راجع أيضاً موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين جـ١ ص٧٩ .

(٢) مجلة الفتح عدد٧٠ ص١٧ السنة الثانية .

(٣) عبد العزيز جاويش ص١٩-٢١ .

التيارات السياسية من خلال دعوة قادة الأحزاب والجماعات للولاء لدولة الخلافة ففي سنة ١٨٨٢ قبض أحمد فارس الشدياق منشئ الجوائب – من سفارة انجلترا في الأستانة – مبلغ ألف ليرة انجليزية حتى يطبع صورة المنشور الذي صدر من الباب العالي بإعلان عصيان عرابي باشا لإثارته نار الفتنة في وادي النيل فكان ذلك سبباً لانكسار عرابي وسقوط اعتباره من عيون المسلمين عامة والمصريين خاصة[١] وقد كانت معظم الأحزاب وأصحاب الدعوات الفكرية والإصلاحية يعدون الخلافة هي الأمل والمنقذ من أطماع الدول الغربية في البلاد الإسلامية وأن من واجب السلطنة حماية هذه البلاد وقد كانت هذه الدعوة واضحة في تصريحات زعماء الحركات الوطنية في مصر[٢].

ففي قرارات المؤتمر العربي الأول في باريس وقيام الحكومة اللامركزية التي تعطي للوطن السوري مقدساته السياسية من غير انفصال عن الكيان العام الذي تمثله الدولة العثمانية[٣] وحين ثار عرابي على فساد أساليب الحكم في مصر وعلى تغلغل النفوذ الأجنبي لم يخطر بباله الخروج على الخليفة فهو يعرض عليه خطواته مستمداً منه السلطة في كل ما يفعل[٤] وفي مصر كان الحزب الوطني مثل ما كان مؤسسه مصطفى كامل وخليفته محمد فريد مصرياً في الدرجة الأولى وإسلامياً في الدرجة الثانية[٥] وقد أكد الحزب الوطني ثلاثة ركائز جعلها أسسه التي لا تتغير وهي :

١ – إيقاظ الأمة المصرية من حيث هي كيان له طابعه الواضح الكامل .
٢ – مقاومة الانجليز ومخاصمتهم خصومة كاملة حادة لا تسامح فيها ولا مهادنة .
٣ – تأكيد الروابط الثقافية والروحية والسياسية مع الدولة العثمانية دولة الخلافة[٦].

ويضع مستر بلانت في مقدمة برنامج الحزب الوطني : الاعتراف بسلطة الباب العالي وبيان جلالة السلطان عبد الحميد مولاهم وخليفة الله في أرضه وإمام المسلمين[٧] ومن بين المعتنقين للجامعة العثمانية علماء الدين من المسلمين فهم يؤيدون السلطان بدافع

---

(١) تاريخ الصحافة العربية فيليب طرازي جـ١ ص٦٢ .
(٢) مجلة العروى الوثقى ص٢٧٢–٢٧٤ .
(٣) عبد العزيز جاويش ص١٤–١٥ .
(٤) مذكرات عرابي جـ١ ص٧١–٢٢٢ .
(٥) الفكرة العربية في مصر أنيس الصايغ ص٤٩ .
(٦) عبد العزيز جاويش ص١٢ .
(٧) مذكرات عرابي جـ١ ص١١٧ .

من الغيرة الدينية وهؤلاء لا يهتاجون إلا لما يمس الدين ولا يرون بين الأقطار الإسلامية من يستطيع أن ينهض بعبء الذود عن الإسلام والمسلمين غير تركيا لأنها أقواها وأقدرها على مواجهة مطامع الدول المسيحية ومن هؤلاء الشيخ يوسف النبهاني وشكيب أرسلان وشيوخ الأزهر وغيرهم .

السلطان عبد الحميد ١٨٧٦ – ١٩٠٩ :

مفتاح شخصيته :

ليس أدل على شخصية السلطان عبد الحميد مما قاله الفيلسوف جمال الدين الأفغاني في وصفه حيث قال إن السلطان لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر رجحهم ذكاء ودهاء وسياسة فقد رأيناه يذلل ما يقام للمكه من الصعاب من دول الغرب حيث كان يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجاً وأعظم ما أدهشني ما أعده من خفي المسائل وأمضى العوامل كي لا تتفق أوروبا على خطير في الممالك العثمانية كان يريها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها وكلما حاولت دول البلقان الخروج على الدولة بحرب كان السلطان بدهائه العجيب يحل عقدة ما ربطوه وتفريق ما جمعوه ويقول أيضاً « ضاقت أوروبا ذرعاً بسياسة السلطان عبد الحميد وحيطته ويئست من أكثر دول البلقان فحاولت كيدها بدس الدسائس وصرفت همتها بالاستغواء إلى أخف الدويلات حلوماً وأكثرها غروراً وطيشاً وهي دولة اليونان فقد بدأت تتحرش بالدولة العثمانية لتتدهور بالحرب مع السلطان عبد الحميد»[1] ويقول أيضاً «أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة (الذي فيه نهضة المسلمين عموماً) فقد دفعني إلى مد يدي له ومبايعته بالخلافة والملك عالماً علم اليقين أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوروبا ، ومن السعي وراء إضعافها وتجزئتها وفي الأخير ازدرادها واحدة بعد الأخرى إلا بيقظة وانتباه عمومي وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم»[2] وصل السلطان عبد الحميد على

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٢٤٥–٢٤٦ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٦ .

العرش بعد خلع السلطان عبد العزيز حيث قامت ثورات في البوسنة والهرسك والصرب والجبل الأسود وكريت استنفذت القروض المعقودة وأدت إلى إعلان تركيا لإفلاسها[1] وقد كان الجهد الأعظم في تولي السلطان عبد الحميد الحكم مكان أخيه يعود إلى مدحت باشا الذي يرأس حزباً في السلطنة «تركيا الفتاة» كانت فاتحة أعماله خلع السلطان عبد العزيز وقد اشترط مدحت باشا على السلطان عبد الحميد ثلاثة شروط وافق عليها هي :

١ - إعلان القانون الأساسي .

٢ - استشارة الوزراء المسؤولين دون سواهم في أمور الدولة .

٣ - تعيين بعض أفراد حزبهم في المابين .

ولكن السلطان عبد الحميد ما إن تسنم العرش حتى أوجس خيفة من تدخل مدحت باشا وحزبه فعزل مدحت باشا من منصب الصدارة وشتت أعوانه ولكن السلطان اضطر لإعلان الدستور لأن روسيا دعت الدول لإجباره على إجراء الإصلاحات المطلوبة في مكدونيا وإلا فهي ستتخذ التدابير اللازمة منفردة وقد جرى افتتاح المجلس العمومي المؤلف من مجلس الأعيان والمبعوثان في ١٨٧٧ وذلك يوم افتتاح مؤتمر السفراء في استانبول الذي اقترحته روسيا ولما سأل السفراء في جلستهم الأولى عن سبب قصف المدافع نهض صفوت باشا وقال لهم « أيها السادة إن أصوات المدافع التي تسمعونها هي من أجل الاحتفال بإعلان القانون الأساسي وهو سيمنح جميع عناصر السلطنة الحقوق المنشودة بحيث لم يبق موجب لأعمال المؤتمر ولكن روسيا حملت المؤتمرين على الاقتناع بوجوب متابعة أعمالهم ولما أبى الباب العالي خرجوا غاضبين وأعلنت بطرسبرج الحرب على تركيا ولما رأى السلطان أن إعلان الدستور لم يحل دون إعلان الحرب وأن أعضاء المجلس النيابي كانوا غير أكفاء حتى لقب مجلسهم بمجلس (أوت أفندم)[2] لموافقتهم على اقتراحات الرئيس دون مناقشة بادر إلى حل البرلمان وانصرف إلى مواجهة الحرب الناشئة غير أن ما أصاب جيشه من الفشل منذ المعارك الأولى جعله يتحول مرة أخرى إلى مصانعة كل من الدولة والأحرار من رعيته فاستقدم مدحت باشا من أوروبا وأمر بانتخاب مجلس آخر نيابي وجرى افتتاح المجلس في ١٨٧٧ ثم ندم السلطان على ما فعل حينما أيقن أن أوروبا لم تحد عن سبيلها في صدد إجلاء السلطنة عن البلقان وتقليم أظافرها في البلدان الأخرى ولا

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني جـ٢ ص١٦١ .

(٢) أوت : عشب . أفندم : سيد أو محترم .

سيا التي تطالب باستقلالها فأصدر إرادته السنية بعد شهرين من افتتاح المجلس الثاني بوقفه أيضاً وشرع يطارد المتمردين من أعضاءه ونفى مدحت باشا إلى الطائف حيث قتل خنقاً فيها سنة ١٨٨٣[1] من هنا نلاحظ أن السلطان عبد الحميد كان يعتزم المضي في الإصلاح لولا الفتن الداخلية التي أخذ بعضها برقاب بعض والتي كانت تستنفذ أموال الخزانة وتصرفه عن مشاريعه الإصلاحية وقد كانت هذه الفتن التي ترمي إلى التحرر من ربقة الأيدي الأجنبية تتستر وراء طلب الإصلاحات وهي في الواقع إنما كانت تريد تخليص الأقليات من الترك وتقوية نفوذها عن طريقها لاقتسام ممتلكات السلطنة فثورات كريت وثورات أرمنيا كانت تحدث مع ثورات أخرى في البلقان ومقدونية وألبانيا فتصرف السلطان عن أمانيه الإصلاحية وتثير بالتالي الشكاوي ضده كما أن إفلاس الخزنة بسبب هذه الفتن حمل النقمة على السلطان إلى صفوف جيشه فانقلب عليه وأزاحه عن عرشه[2].

المؤثرات الخارجية على سياسة عبد الحميد :

أولاً : الخطر الأوروبي :

منذ أواسط القرن التاسع عشر شرعت روسية تفكر في إجلاء السلطنة عن الأراضي الأوربية والعمل على تجزئة أنصارها بمساعدة كل من انجلترة والنمسا يظهر هذا من قول قيصرها نقولا الأول عندما زار الدول الأوروبية لاقناعها بالتقسيم وخصوصاً انجلترة المعارضة « يوجد بين وزرائي رأيان بشأن تركية فبعضهم يصرح بأنها بلغت حالة الاحتضار وبعضهم يعلن أنها لقيت حتفها ، وعلى كل فلا شيء يحول دون مماتها العاجل » وفي مناسبة أخرى يقول القيصر للسيد هملتون سيمور سفير انجلترة في بطرسبرج « أود أن أصارحك بأنه إذا أتيح لهذا المريض أن يتخلص منا في يوم من الأيام فسيكون من أسباب البلاء على أوروبة ولا سيا إذا حصلت هذه المفاجأة دون أن نتأهب لها» هذه التصريحات تبين لنا النوايا العدوانية الأوروبية ممثلة في تصريح قيصر روسية وإن كانت انجلترة تعارض – في بادئ الأمر فكرة تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية كما حدث في

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني جـ٢ ص١٦٢–١٦٣ .

(٢) فلسفة التاريخ العثماني جـ٢ ص١٦٢ .

مساعدتها لتركية في حرب القرم وقد قدرت السلطنة موقف بريطانية فتخلت لها عن جزيرة قبرص لتكون لها من بعد نقطة حربية للدفاع عن بقية الأمصار العثمانية ولكن بريطانية كشفت عن عدائها للسلطنة بعد أن حصلت ألمانيا على امتياز مد خط حديد الأستانة بغداد الذي ينتهي إلى الخليج العربي .

ثانياً : تدخل الدول في شؤون السلطنة :

لقد كان لضعف الدولة العثمانية العام خصوصاً من الناحية العسكرية أثره الواضح في فرض إرادة الدول الأوروبية عليها عن طريق حماية الأقليات الدينية أو عن طريق العمل العسكري كمساعدة دول البلقان وغيرها على الاستقلال وقد اتخذ هذا التدخل شكله الساخر بعد مؤتمر باريس ١٨٥٦ لما قدمته كل من انجلترا وفرنسا وسردينيا من المساعدة في حرب القرم ثم ازداد هذا التدخل بعد انقاذ السلطنة من حملة محمد علي باشا وفي هذه الحملة وقفت فرنسا ضد السلطنة ووقفت انجلترة معها مما أدى إلى فشل الحملة وبلغ هذا التدخل إلى حد اجتماع الدول الأوروبية في مؤتمرات لإيجاد حلول لمشاكل تركية دون أن تشترك فيها ومن ثم تطالبها بتنفيذ مقرراتها وكان آخرها اجتماع ديفال في ١١ حزيران ١٩٠٨ وقد عجزت السلطنة عن سداد ديونها للدول الأوروبية مما أدى إلى استخفاف هذه الدول بالسلطنة من جهة ولتسامح السلطنة حيال تدخلها في شؤونها خصوصاً ما يتعلق بالأقليات من رعاياها .

ثالثاً : الوعي القومي عند العناصر :

لقد تسرب الوعي القومي من أوروبة للعناصر الخاضعة للسلطنة فهي لا ترى جهوداً في المساعي الاستقلالية إلا زادتها اضطراماً وقد غمر الوعي القومي المثقفين من العرب فعملوا على الاستقلال وقد كانت الدول الأوروبية تقدم لهم كل المساعدات في هذا الاتجاه علماً بأن معظم المثقفين من العرب العصريين هم خريجو المدارس التبشيرية المسيحية .

رابعاً : فراغ الخزانة :

كانت الأموال التي اقترضتها السلطنة طيلة عشرين سنة حتى ١٨٧٥ قد بلغت ثلاثة

مليارات وثلاثة عشر مليون فرنك ذهبي وكانت خزانة السلطنة قد أعلنت الافلاس في عهد السلطان عبد العزيز وهكذا استلم السلطان عبد الحميد الحكم والبلاد في حالة افلاس ولم يستطع أن يقترض من الماليين في أوروبة بسهولة يقول الأستاذ محمد جميل بيهم « كانوا إذا أقدموا على شراء أسهم تلك القروض كأنهم يبتاعون أسهم «اليانصيب» وما كان يغريهم بشراء تلك الأسهم إلا الفوائد الباهظة ومع ذلك رأينا القروض التي استطاع عبد الحميد أن يدركها ذهبت فريسة الحروب الخارجية التي كان أكثرها وأخطرها مع روسية أو في سبيل تهدئة الفتن الداخلية وقد استنفذت هذه الحروب أموال الخزينة فلم تترك مجالاً للاصلاح والتعمير .

هذه هي المؤثرات في السياسة الخارجية للسلطان عبد الحميد وقد كان في معظمها طرفاً ضعيفاً لذلك اعتمد على أسلوب ترضية دولة لتقف معه في وجه دولة أخرى عن طريق منحها بعض الامتيازات أو الولايات .

سياسة السلطان عبد الحميد الداخلية :

لقد سار السلطان عبد الحميد في سياسته الداخلية على سياسة مبعثها الخوف وعدم الثقة من عناصر شعبه أو عماله لذلك أجرى تغييرات كثيرة بحيث تصبح جميع السلطات بيده وقد كان للأحوال السياسية الخارجية في المنطقة أكبر الأثر في توجيه السياسة الداخلية إن لم تكن تجاوباً وصدى لها فمن مظاهر سياسته الداخلية :

١ - نقل السلطة العليا إلى المابين :

فقد عمل تدريجياً على نقل السلطة من الصدارة العظمى ومجلس الوزراء إلى المابين فأصبح الحل والعقد ومنح الامتيازات من اختصاص سراي يلديز أما الوزراء فكان عليهم تنفيذ ما يبرم وقد كان النفوذ يتناوبه الكاتب الأول والكاتب الثاني ومأمور الشفرة تبعاً لثقة صاحب الجلالة وكثيراً ما كان المشايخ المقربين ينازعون هؤلاء سلطتهم فكان الشيخ أبو الهدى الصيادي يتمتع بالنفوذ طوراً وطوراً أحمد عزت باشا العابد الكاتب الثاني وكلاهما عربي ولما نجح الأخير في مد الخط الحديدي الحجازي عن طريق الاكتتاب به من جميع المسلمين علا نجمه ولم يعد يعلوه في النفوذ أحد إلا الخليفة نفسه وكان رئيس الجواسيس فهيم باشا يلقي الرعب في قلوب الرعية وكان بعض رجال السراي أميين وقليل

منهم يحسنون اللغات الأجنبية وأقل منهم من يتمتعون بخبرة سياسية ودون هؤلاء وأولئك من يعملون للمصلحة العامة[1].

٢ – النضال بين السلطان والدستوريين :

ارتقى عبد الحميد العرش بمساعدة مدحت باشا دستورياً حيث كان صدراً أعظم لدى السلطان عبد العزيز ولكن عبد الحميد أوجس خيفة من حزب (تركية الفتاة) الذي كان يتزعمه مدحت باشا وكان ينسب إليه حادثتين ذهب ضحيتها عمه السلطان عبد العزيز وأخوه السلطان مراد ؛ كان السلطان يعتقد أن هناك أيد خفية انجليزية وروسية وراء خلع وقتل عمه عبد العزيز لذلك أعلن بعد فترة وجيزة من اعلان الدستور سنة ١٨٧٦ تعطيل العمل به ونفي مدحت باشا وشرد أنصاره وانتهى الصراع بين عبد الحميد وأتباعه وختم بخلع عبد الحميد ومبايعة أخيه محمد الخامس ١٩٠٩-١٩١٨ .

٣ – سياسة التفرقة بين العناصر :

قضي على السلطنة العثمانية أن تعيش مفككة الأوصال متنافرة العناصر والطوائف منذ عمدت كل واحدة من الدول الأجنبية إلى توجيه هذه الطوائف إلى التنابذ بين بعضها البعض وذلك بغية وصول هذه الدول إلى نيل نصيبها على وجه أتم من تركة «الرجل المريض» وقد كان لإعلان السلطان عبد الحميد سياسة الجامعة الإسلامية أثر بالغ في التفاف عواطف المسلمين حوله ومقاومته للدول الأجنبية التي تتستر بحماية الأقليات لكسب عواطفها . وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى انشقاق الطوائف على بعضها لأنها تعد السلطان عاهلاً للمسلمين أكثر منه ملكاً للعثمانيين . وقد فصل السلطان الكنيسة البلغارية عن البطريركية الأرثوذكسية بينما كانت أوروبة المسيحية – روسية والنمسا وفرنسة – تعمل جاهدة لتوحيد هذه العناصر ضد السلطنة . كما ألقى السلطان عبد الحميد ببذور التفرقة بين العرب والمسيحيين خوفاً من تعاونهم ضده خصوصاً بعد ظهور الوعي القومي الذي كانت الارساليات والقنصليات الأجنبية تغذيه . وقد نالت بلاد الشام قسطاً كبيراً

---

(١) لقد كان السلاطين الأوائل لا يفرقون بين مسلم ومسيحي وكانت التفرقة منشأها من عمال الولايات حيث أن الفتن والمذابح التي حدثت بين ١٨٦٠ لم تكن بقصد أحد من السلاطين أو رجال دولتهم الأمناء بل من العمال الأردياء . كتاب حسر اللثام ص٢٢ .

من هذه السياسة لوجود الطوائف المسيحية فيها أكثر من غيرها لهذا يرجح كثير من الباحثين أن تكون المذابح بين المسلمين والنصارى في مطلع القرن العشرين بتدبير من السلطنة على يد بطلها الوالي رشيد بك الذي رضي بنقله إلى رتبة أعلى من رتبة الولاية يقول الأستاذ محمد جميل بيهم : ولا زلت أذكر تلك الفتنة التي وقعت بين المسلمين والنصارى في قرية بتاتر في الشوف عام ١٩٠٥ وكان حدوثها في نفس اليوم الذي وقعت فيه مذبحة المزرعة في بيروت برهاناً على أن الفتنة في الولاية بالساحل وفي المتصرفية في الجبل كانت من عمل يد واحدة خفية[١] وقد انعكست هذه السياسة في ميدان التربية والتعليم فكانت للمدارس الأجنبية والارساليات فرصة استثنائها من رقابة الدولة فعملت على القاء الرعب من المسلمين في أفئدة طلابها النصارى بقصد تنفيرهم من الدولة واكتساب قلوبهم مستعينة ببعض التآليف التي تطعن في الإسلام والرسول ﷺ وفي المقابل كانت المدارس الرسمية لا تقتصر على رسم صورة قبيحة للأجانب وأخطارهم بل تتعدى إلى بث روح البغضاء بين الملل والطوائف[٢] وأما في البلاد التي لم يكن فيها غير المسلمين كجزيرة العرب فإن السلطان كان يغري ابن رشيد وابن سعود ويجند أشراف مكة ضد إمام اليمن ويلقي الخصومة بين إمام اليمن وأسياد عسير ، كذلك بين الأكراد والأرمن وبين السوريين والشراكسة في بلاد الشام . لقد كان الشعب العثماني عبارة عن مجموعة أعداء يتربص بعضهم الدوائر بالبعض حتى إذا أطبقت الألسنة بإعلان الدستور انكشفت السرائر وظهر من ثم تفسخ فظيع بين الصفوف يستحيل معه بقاء هذه الكتل المتنافرة تحت سماء وطن واحد من هذه الزاوية كان السلطان عبد الحميد يحد من إطلاق حرية العناصر المختلفة ولا سيما الأعداء منهم حفاظاً على سلامة السلطنة كما كان يَحْكِمَ الرقابة عليها عن طريق جواسيسه ليطلع على نواياهم ومن ثم يوجه إليهم الضربة قبل أن يتحدوا ضد السلطنة .

٤ – الخلافة والاتحاد الإسلامي :

قلنا فيما سبق أن السلطان عبد الحميد لجأ لدعوة الخلافة لاستغلال العاطفة الإسلامية من حيث هي سلاح يحمي به السلطنة من أعدائه في الخارج الذين تألبوا عليه باسم

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني جـ٢ ص١٧٦ .

(٢) راجع كتاب حسر اللثام ص٢٦ وما بعدها .

العاطفة المسيحية[1] التي لأجلها عملوا في مساعدة الأقليات الدينية على نيل حقوق وامتيازات خاصة لها أما دول شرق أوروبة العثمانية فقد كانت تنادي – أي الدول الأوروبية الطامعة جهاراً بالسلطنة بوجوب تخليص المسيحيين من الحكم العثماني المسلم وخروج العثمانيين من شرق أوروبة إجمالاً ولقد كان في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تحريض لمسلمي الهند ضد بريطانية وهم شديدو العاطفة نحو الخلافة وقد كانت نسبة كبيرة منهم تعمل في الجيش البريطاني مع مسلمين آخرين من بلاد أخرى واقعة تحت النفوذ البريطاني وكذلك في فرنسا فقد كانت نسبة كبيرة في جيشها من مسلمي السنغال والمغرب والجزائر وغيرها من المسلمين الأفارقة وهم يشكلون خطراً في كل من فرنسة وبريطانية إذا ما تحرك فيهم الشعور الإسلامي نحو دولة الخلافة[2].

وبالإجمال كانت هذه الملامح هي السمة العامة لشخصية السلطان عبد الحميد المؤثرة في سياسته الخارجية والداخلية وفي هذا المعنى يقول الأستاذ محمد جميل بيهم « إن السلطان عبد الحميد لم يكن مصدر هلاك السلطنة كما يزعمون بل إن السياسة الداخلية التي مارسها كان مسوقاً إليها بعوامل خارجية وداخلية كثيرة وكان بعضها لا يخلو من حكمة وبصيرة ذلك أن السلطان عبد الحميد لم يرتفع إلى عرش أجداده إلا بعد أن تزعزعت أركانه وأشرف على الانهيار »[3]. وفي مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد جميل بيهم قال « ... السلطان عبد الحميد أنشأ حوله أعداؤه من الأتراك والترقي هالة مظلمة غير أنه كان في الواقع على غير ما وصفوه به ومن المؤسف أن هذه الدعايات ضد السلطان عبد الحميد انتقلت إلى بلادنا وتبناها كثير من أدبائنا المعروفين فضلاً عن أدباء الدولة العثمانية التقليديين »[4] ومن أولئك الأستاذ عمر الدسوقي الذي يقول « استولت الدولة العثمانية على الشام في القرن السادس عشر وساسته مع بقية البلاد العربية التي سيطرت عليها

---

(١) نقل شيخ الإسلام مصطفى صبري في كتابه وموقف العقل والعلم جـ٢ ص٨١ ما ذكره مأنكهارده أحد سفراء فرنسا في تركية في مقدمة كتابه (تركيا والتنظيمات) في تاريخ إصلاح الدولة العثمانية يقول موكان الغرض من التنظيمات تقريب الحياة الاجتماعية الإسلامية إلى الحياة الاجتماعية المسيحية فقد كان العامل في وقف الامبراطورية العثمانية في موقفها بالقرون الوسطى الذي غسها يوماً عن يوم في ظلام تلك القرون الكثيفة والذي سينتج في يوم من الأيام إندراسها هو بقاء الحكومة العثمانية منفردة في خارج الهيئة الدولية الأوروبية وكان السبب الحقيقي لهذا الانفراد هو الدين» .

(٢) للتوسع في هذه الفكرة راجع كتاب «الحرب الصليبية والأوروبية التاسعة» ص١٢٨–١٤٥ .

(٣) فلسفة التاريخ العثماني جـ٢ ص١٦٩ .

(٤) مقابلة الأستاذ بيهم في بيته في بيروت في ١٩٧٥/٦/١٥م .

سياسة متعصبة فشددت على الأقليات وحرمتها الكثير من حقوقها وانتقل استعمال الشدة من الأقليات إلى الجميع حتى قال بعض الباحثين ظلت مصر وبلاد العروبة ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك وهي في ظلام دامس وجهل فاضح تعاني مرارة الظلم وقسوة البغي ... قلّب ما شئت من أسفار التاريخ لا ترى إلا صفحات سوداء قاتمة تنبعث منها روائح الاستبداد والبطش »[١].

ومنهم أيضاً الأستاذ ولي الدين يكن الذي يقول « لم يهمل عبد الحميد شاردة ولا واردة مما كتبه الأحرار في صحفهم وأسفارهم إلا أحاط به خبراً وأحصاه عداً ونظر فيه وتأمل قريبه وبعيده وفكر في جليه وخفيه فما رآه حجة عليه تلطف في إزالته غير مظهر أنه أزاله خوفاً من هجاء الأحرار وما لم يكن كذلك تركه على حاله غير مبدل من حاله شيئاً ولكن أمرين كانا شديدين على نفسه شهوة ولزوماً : إعلان الدستور والتخلي عن الاستبداد هذان أمران ما حدثته نفسه أن يرضى فيهما الله ولا عباده وكان كلما ذكر له خصومه مثلبة من مثالبه غلت مراجله وهاج غضبه في خوف تبدو على وجهه آثاره وإن بالغ في تكتمه »[٢].

هذا وينبغي أن نذكر أن ولي الدين يكن كان ماسونياً ومن الأعضاء البارزين في حزب الاتحاد والترقي حيث ألقى في محفل نيازي الماسوني في القاهرة بمناسبة افتتاحه قصيدة مطلعها :

يا عصر قد حسدتك اليوم أعصار ... الأمر شورى وكل الناس أحرار

ختمها بقوله :

هنئتم بإخاء كان مختفياً ... بين القلوب فحان اليوم إظهار
لم يستجد ولكنا نكرره ... وهكذا يستديم الأمر تكرار

كا ألقى الأستاذ نعوم شقير/ رئيس محفل نيازي – وهو مسيحي – وكان سكرتيراً لحاكم السودان الانجليزي قصيدة مطلعها :

فتى الأحرار لا تخشى الصعابا ... ولا تحسب لنائبة حسابا

---

(١) في الأدب الحديث جـ١ ص٩ راجع محاضرات في نشوء القومية العربية ص١٠٨ راجع أيضاً تاريخ فلسطين خليل طوطح ص٢٦٨–٢٧٢ .

(٢) مناهل الأدب ولي الدين يكن ص٩٢ .

ختمها بقوله :

تثير بـــادعيـــاء الـــدين حربـــا ونكشف عن ذوي الظلم الحجـــابـــا
وتثبت في الجهــــــاد الحـــــق حتى نـلاقي عنـــد خــالقنـــا الثـوابـــا

جاء في آخره قد عقب أحد الكتـاب المـاسونيين على هـاتين القصيـدتين في مجلـة المقتطف بمقال « ولا تظن أن أحداً يطالع هاتين القصيدتين إلا ويرى فيهما روح الماسونية والغرض الذي ترمي إليه وهو التعاون على البر والنفع العام وهذا شعار الماسونية »[1]. ومن أدبائنـا الذين تبنوا الهجوم على السلطان عبد الحميد الأستـاذ المؤرخ محمد رفعت – وزير المعـارف المصرية سابقاً – إذ يقول متهكماً :

« ورسمـه – أي عبـد الحميـد – لا يبرح أنظـارهم – أي العثمـانيين – ومخيـلاتهم وهـو يتراءى لهم في صوره المطبـوعـة المعلقـة على جـدران بيـوتهم ومتـاجرهم وفي مجـال أعمـالهم ولكن اسم السلطان لا يطرق أسماع الناس حينـذاك إلا مقترنـاً بـألفـاظ الجلالـة فهو أمير المؤمنين وظل الله على الأرض وهو خليفة المسلمين كافة ومع ذلك فإن هذا السلطان الذي مجده الناس حتى كادوا يؤلهونه لم يكن في حقيقة الأمر إلا طـاغيـة مستبـداً لم يتورع عن الظلم والغدر وسفك الدماء حتى انحدر رأسـه في التـاريخ فعرف بـ«السلطـان الـدامي» أو «السلطان الأحمر»[2]. والحقيقة التي أظهرت السلطان عبد الحميد بهذه الصورة هي أنـه كان حازماً في عمل كل ما يصون الدولة من الانهيار أمام الأسباب المتكالبـة عليهـا سواء أكانت داخلية أم خارجية ويتسـاءل الأستاذ القرجـاني فيقول « وإنني لأسـأل المعترضين على هـذا (الاجتهاد) الذي (اجتهده) السلطان عبد الحميد وعمل بمقتضاه أين هو الـدستور المعمول بـه في هذا المشرق بعد مرور أكثر من ستين عـامـاً على خلع عبـد الحميـد[3] وقـد أظهر أعـداء الدولة والسلطان هذا الحزم وكأنـه سفـك دمـاء ومجـازر وظلم خصوصـاً وأن معظم أعـمـال الدولة الخارجية كانت بيد الحاقدين من رعيتها وإلى هذا يأخذ جمال الدين الأفغـاني على العثمـانيين تسـاهلهم مع القـوميـات والطـوائف المختلفـة فهـو يـلاحـظ أن مستشـار وزارة الخارجية العثمانية كان أرمنياً وهو أرتين باشا وسفيرها لدى انجلترا كان رومياً «موزوروس

(١) مجلة المقتطف جـ٣٦ ص١٥٧ .
(٢) التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة محمد رفعت ص٨٣ .
(٣) الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ص١٠٥ .

باشاء وحاكم جزيرة كريت هو قسطاكي باشا ويتسائل الأفغاني فيقول « فهل يمكن أن نرى مستشار خارجية بريطانية مصرياً أو هندياً » ويقول صفوت باشا « إن سبب انفصال الولايات المسيحية عن الدولة العثمانية كان نتيجة لحسن معاملة السلطنة لأهلها وترك التقاليد الأصلية حرة » وقد تكلم فضيلة الشيخ مصطفى صبري عن هذا وأشار إلى ما كتبه الأمير شكيب أرسلان في الخلاصة التي كتبها « جوفارا » لكتابه «مائة مشروع لتقسيم تركية» حيث يقول « كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضة مستندة على شرع سماوي وقال إن العداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين في الحرية الدينية التي يتمتع بها المسيحيون في السلطنة العثمانية » وقال « مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية »[1] كما أشار المستر وليم للكراف في كتابه «المسألة الشرقية ص١٠-١١» ما تعريبه بالحرف الواحد « إن المسلمين أمناء ذوو عهود وحرمة وميثاق بخلاف غيرهم كبعض الأرمن واليونان والمالطيين فإنهم مفترون مختلقون لأكاذيب وأقاصيص لا أصل لها افتراء على المسلمين وعلى دولتهم ولسوء الحظ فإننا نرى هؤلاء الأفاكين هم التراجمة الذين يرافقون السياح الأجانب في البلاد العثمانية والغريب أن هؤلاء السياح أيضاً يعتقدون أقوال أولئك النمّامين كآيات بينات ينشرونها في أوروبا فتتلقاها الأمم الأوروبية قضية مسلمة فتزداد إذ ذاك ضلالاً على ضلال»[2] وقال في صحيفة ٢١ ما معناه « لقد كثر المفترى عن سلوك الجنود العثمانيين مع إننا إذا رافقناهم إلى المدن والقرى التي يدخلونها أو المعامع التي يخوضونها ألفيناهم أبطالاً أمناء مسومين صبورين على احتمال المشاق غير ما يشيعه اليونان افتراء عليهم فالمقصود منه تضليل الشعوب الأوروبية لا غير ومن ذا الذي لا يعجب عندما يرى أن الكذب ليس تجارة لليونان فقط بل للسفارات الأوروبية بواسطة تراجمتها الشرقيين »[3] وعن معاملة الدولة العثمانية لرعاياها على اختلاف مللهم ونحلهم معاملة حسنة بدون تفريق قال الكونت هنري كرسنسكي في كتابه المدعو «تاريخ قوازق الأقربين ص٥٣» (ولقد ندم «خباع لنسكي» أمير القوازق إذ لم يجعل بلاده من أملاك الدولة العلية عوضاً عن ضمها إلى روسيا وكان آخر كلامه وهو على فراش الموت سنة ١٦٥٦ قوله «إلهي لقد اقترفت ذنباً عظيماً واحرقتاه بم أعتذر عنه إذ جعلت قومي تحت سلطة من لا رحمة في قلوبهم ولم أجعلهم

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين جـ١ ص٨٢، ٨٩ .

(٢) مجلة ثمرات الفنون عدد ١٢٠٧ ص٨٣ رجب ١٣١٦هـ .

(٣) المرجع السابق .

تحت حكم الدولة العثمانية الرحيمة برعاياها لقد غدرت بقومي ولم أنصحهم إذ لم أجعلهم تحت حكم سلاطين آل عثمان الكرم» وقال في مكان آخر «وكانت البلاد العثمانية خير حصن يأوي إليه من رماه الدهر بالأرزاء من الأوروبيين جميعاً ولما اشتد بلاء قوازق (الزبوروكسي) التجأوا مع أميرهم إلى الدولة العثمانية فأحسنت إليهم وأعطتهم عقارات وأرض فسيحة يزرعونها ويقتاتون من ريعها[1] وفي هنا تأييد لرأي جمال الدين الأفغاني الذي أوردناه بهذا الشأن .

السلطان عبد الحميد ضحية فلسطين وشهيدها الأول :

بدأت نهاية الدولة العثمانية يوم وقف السلطان عبد الحميد في وجه المطامع اليهودية عن تحقيق أهدافها في فلسطين وحتى نتمكن من فهم دور اليهود في إسقاط السلطان عبد الحميد الذي به انتهت دولة الخلافة وهيبتها يجب أن نبدأ من القرن التاسع عشر حيث كانت الدولة العثمانية تعطف على اليهود عملاً بتوجيهات الدين الإسلامي الذي يوصي بأهل الذمة خيراً وقد رحبت بالمهاجرين إليها منهم عند فرارهم من وجه الظلم الأوروبي ولعل فيما كتبه صاحب ثمرات الفنون يوضح مدى القسوة التي كانت تعامل بها الطوائف من قبل الدول الأخرى فقد أورد صاحب ثمرات الفنون خبراً جاء فيه « وقال الكونت المذكور هنري كرسنسكي في كتابه (تاريخ القوازق الأقربيين) في وجه ١١١ ما محصله « وشرع الروس يقتلون اليهود والكاثوليك والبروستانت نساء ورجالاً وأطفالاً وكانوا يشنقون الرجل البولوني الكاثوليكي وبقربه رجل برستنتي ويشنقون بينهما كلباً مبالغة في الاحتقار وفي سنة ١٧٦٧م حرقوا بالنار ألوفاً من اليهود دون أن يرحموا صغيراً أو كبيراً إلى أن قال في وجه ١٣٠ أما العثمانيون فلم يبد منهم إلا الإحسان لكل من أمّ بلادهم وما دخلت الدولة العثمانية بلداً إلا وعمرها عدلها وصانها شرعها وقد نشرت روسيا إعلاناً عمومياً بالأمان لمن يروم العودة إلى وطنه فصدق بعض القوقاز الذين احتموا بالبلاد العثمانية قولها فعادوا نحو أوطانهم وما استقرت أقدامهم بالبلاد الروسية حتى سقوا كؤوس الموت الزؤام ولم ينج منهم أحد «[2] وفي مكان آخر ذكر صاحب ثمرات الفنون في المعنى نفسه قول المستر فون والمستر واهوايلم في كتابها المدعو «ارتكاب الأوروبيين» وجه ٢٠٨ ما تعريبه بالحرف الواحد « إن أبناء جلدتنا يتخطفون المسلمين من كل جانب ومع هذا نرى

---

(١) مجلة ثمرات الفنون عدد ١١٩٧ ص٣ .

(٢) مجلة ثمرات الفنون عدد ١١٩٨ ص٢ .

هؤلاء يحسنون إليهم ويحمونهم من بعضهم البعض ويحرسون معابدهم ورؤسائهم الروحيين فكأن المسلمين لم يذوقوا مر ما فعله متوحشو أوروبا من الفضائح فيا فضيحة من يقول إننا قوم عادلون وهذه أعمالنا التاريخية تشهد علينا بعكس ذلك » وقال في وجه ١٥٥ من الكتاب نفسه « لقد قتلت ألوفاً من اليهود نساءً وأطفالاً ورجالاً في أزقة أشهر المدن الأوروبية ولم يعد لأولئك المساكين مأوى أمين إلا بلاد الدولة العثمانية فهي بلاد الراحة والأمن والسلام » وجاء في الكتاب المدعو «تاريخ اليهود» وجه ٥٤٨ ما نصه « لقد كثر قتل اليهود وحرقهم بالنار دون استثناء الصغير منهم والكبير في كافة المدن الأوروبية ولم ينج من العذاب إلا القاطنون في بلاد الدولة العثمانية بلاد الأمن والسلام »[1] ومن الأدلة على عطف الدولة العليا على اليهود وحمايتها لهم أن يهوذا حتسيد حاخام طائفة الأشكناز استدان مبالغ كبيرة من أهالي القدس لينفقها على شؤون طائفته ثم عجز أو أنه تظاهر بالعجز عن تسديدها فأصدر السلطان محمود الثاني إرادته السامية عام ١٨١٦م بإعفاء الاشكناز من هذه الديون وفي عام ١٨٥٠ كان عدد اليهود في كافة أنحاء الدولة العثمانية لا يزيدون على ١٥٠ ألف يهودي كانوا يعيشون في نظام خاص بهم منهم سبعة عشر ألفاً في فلسطين وينتشرون في القدس ويافا وطبرية وصفد وبدأ شعور الدولة يتبدل نحو اليهود في أواخر عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٨٦١ حيث بدأ أعوانه يشتبهون في اليهود وسلوكهم إلا أن تدابير صارمة لم تتخذ بحقهم بل اكتفى بفرض المراقبة على نشاطاتهم .

أما فكرة إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين فقد تبنته بريطانية منذ أنشأت قنصليتها في القدس عام ١٨٣٩-١٨٤٠ وأعلنت فيه حمايتها لليهود مع حملة صحفية بريطانية تؤيد أماني اليهود في فلسطين ظهرت في مقالات التايمز في السابع عشر والسادس والعشرين من أغسطس ١٨٤٠ تحدثت فيه عن إمكان قيام دولة يهودية بجهد بريطاني[2] وزار السيد لورنس أوليفانت البريطاني فلسطين عام ١٨٧٩ وقام خلالها بدراسة سرية لشؤون الزراعة والري والثروات الطبيعية ثم عاد إلى لندن ليتقدم للحكومة البريطانية – وكانت برئاسة اليهودي دزرائيلي – بمشروع للاستفادة من الأراضي المحيطة بنهر الأردن على أن يقوم اليهود باستثمارها والسكن فيها فوافقت عليه الحكومة البريطانية وتبنته ولما عاد أوليفانت إلى الأستانة وأجرى اتصالات مع الحكومة العثمانية

(١) مجلة ثمرات الفنون عدد ١١٩٦ ص٢ .

(٢) الهاشميون والقضية الفلسطينية ص١٤-١٥ .

بشأن المشروع استدعاه السلطان عبد الحميد وأفهمه بصراحة أنه لن يسمح لليهود مطلقاً باستعمار فلسطين لاعتقاده بأن غرضهم الحقيقي هو إقامة مملكة لهم فيها أساسها الدين وأضاف : « إن اليهود يستطيعون بسلام واطمئنان أن يعيشوا في أي جهة من الدولة العثمانية ما عدا فلسطين » فاستنجد لورنس أوليفانت سفيري بريطانية وأمريكا لمساعدته على اقناع السلطان لتغيير موقفه ولكن السلطان رفض تدخلهما وأمر بإخراج أوليفانت من البلاد .

وقام السفير الأمريكي المستر دلس بمساعي جديدة لحمل السلطان على السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين واستملاك الأراضي فيها فأفهمه السلطان بصراحة وحزم أن لا أمل لليهود في فلسطين وأنه إذا كان اليهود يريدون عملاً خالياً من أي غرض أو هدف سياسي فأمامهم ما يشاؤون من سهول العراق وسوريا والأناضول ولم يكتف السلطان عبد الحميد بالرفض بل وقّع قانوناً عام ١٨٨٠ بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين واستملاكهم الأراضي فيها وبعد ذلك بعامين احتلت بريطانية مصر وأعلن في الوقت نفسه عن قيام الحركة الصهيونية فضاعف هذان الحادثان من قلق الدولة العثمانية وتخاوفها من المطامع اليهودية .

وإذ لوحظ بعض التحايل من قبل اليهود على القانون حيث استطاعوا بالتعاون مع الدول الأجنبية وبمساعدة بريطانية وأمريكا خاصة مواصلة التحايل على القوانين العثمانية مستغلين ما كان يسود الإدارة العثمانية آنذاك من تدهور ورشوة فلم يجد السلطان بداً من أن يتدخل بنفسه وأصدر أوامره الشخصية المشددة بمنع أي يهودي من دخول فلسطين إلا إذا كان يحمل جوازاً رسمياً يحمل تأشيرة تركية للدخول كما أمر بطرد جميع اليهود الذين يثبت أنهم دخلوا أراضي الدولة العثمانية بصورة غير شرعية فتدخل السفير الأمريكي تنفيذاً لتعليمات مشددة تلقاها من واشنطن وباريس ليضغط على الحكومة لالغاء الأوامر فلم يفلح بأكثر من أن الصدر الأعظم سعيد باشا وافق على السماح لليهود الذين يحملون جوازات سفر قانونية بالإقامة في فلسطين مدة أقصاها ثلاثة أشهر وظل السلطان عبد الحميد متشدداً في منع اليهود من الهجرة إلى فلسطين واستملاك الأراضي فيها ووقف العديد من المساعي والجهود التي كان ممثلو بريطانية وأمريكا يبذلونها باستمرار لحمله على العدول عن خطته واستمر هذا النضال العنيف مدة عشرة أعوام تقريباً دون أن تستطيع الدولتان الفوز بأمنيتهما وفي عام ١٨٩١ أرسل قنصل أمريكا إلى حكومته رسالة يقول فيها إن تركية المسلمة لن ترضى بإقامة مملكة لليهود في فلسطين وفي عام ١٨٩٣ أصدر السلطان عبد الحميد أوامر جديدة بمنع اليهود من شراء الأراضي في فلسطين .

ثم دخلت المفاوضات بين السلطان عبد الحميد والصهيونية مرحلة جديدة أكثر جدية وصراحة وتصميماً من قبل حيث مثل تيودور هرتسل الزعيم الصهيوني بين يدي عبد الحميد سنة ١٨٩٣ وكان يرافقه موشى لاوي الحاخام الأكبر للدولة العثمانية وبعد مقدمة مليئة بالرياء والنفاق والتملق بينا له حاجة أمتها للحماية والرعاية التي تلقاها من الدولة العلية ثم دخلا في صلب الموضوع الذي جاءا من أجله بمناورة كلامية يحسنانها فكان السلطان الداهية حريصاً على أن يسبر غورهما ويكشف أمرهما دون أن يظهر عليه أي أثر للانفعال ويصغي إليهما برحابة صدر وهدوء فقال أحدهما : إن عبيدكم اليهود يا أصحاب الجلالة مدينون لكم ولأجدادكم العظام وللشعب التركي المجيد بحسن الضيافة والمعاملة التي يلقونها ولن ينسى التاريخ ما لقيه الشعب اليهودي من العطف والرعاية التي رأوها وهم يدعون لكم بطول العمر »[1].

قال السلطان : أريد معرفة مقاصدكما الحقيقية التي طلبتم مقابلتي من أجلها فأجابا بتؤدة وتحفظ « إننا نجرؤ بالبيان لسدتكم الصمدانية ، أن عبيدكم اليهود المشمولين بألطافكم الملوكية يشعرون بحسرة وحاجة إلى وطن يلم شعثهم ولا ينسون لكم هذه المنة والفضل مدى الأزمان وسيذكرونه لكم بالتعظيم وبالاكبار والتبجيل » فقال السلطان « كنا نظن أن اليهود في مملكتنا يتمتعون بكل عز ورفاه مشمولين بالعدالة والأمن كما كنا نظن بأنكم ممنونون من حسن المعاملة التي يلقاها اليهود أسوة ببقايا الرعايا العثمانيين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم بدون تمييز فهل لكم شكاية من معاملة غير عادلة لا نعرفها نحن » فأجابه برهبة وخشوع « نستغفر الله يا صاحب الجلالة إن رعاياكم اليهود يتمتعون بكل طمأنينة وامتنان ولا توجد لهم أي شكاية وكل ما هنا لك أننا نسترحم منكم ولو قطعة أرض رمزية لتكون لهم مركزاً دينياً يحجون إليه في ظل دولتكم وليقوموا فيه بالصلاة والدعاء والشكر لسدتكم العلية ودوام حياة جلالتكم » فأجابها السلطان باقتضاب « لا يمكننا أن نعمل أكثر مما عملنا حتى الآن تجاه أمتكم التي تتمتع بخيرات البلاد كمواطنين عثمانيين بل وأكثر وأظنكما تتذكران ما كان يلقاه اليهود قبل لجوئهم إلى بلادنا من الحقارة والذل والاضطهاد في مختلف البلاد التي هاجروا فيها» وأدار السلطان وجهه إلى الحاخام الذي أجاب بتلكؤ وتعتعة « الله يزيد في عمر جلالتكم » وتكلم تيودور هرتزل فقال « هل لي

---

(١) كان اليهود يجتمعون للصلاة والدعوة للسلطان راجع الجوائب عدد ١٨٥٦ السنة السابعة عشر الأحد ٢٢ ربيع الثاني ١٢٩٤ .

أن أتقدم بعرض على جلالتكم بأن تقدروا أن تحسبوا ما تستنسبونه من ثمن للأراضي التي تعود ملكيتها إلى جلالتكم في فلسطين بشرط أن يدفع اليهود بدلها نقداً مع الزيادة مهما بلغ وارتفع الثمن من ملايين الليرات الذهبية» وهنا غلى الدم في عروق السلطان وصاح بهما : « هل وصل بكما الأمر لتعرضا علي ثمناً لقطعة أرض عزيزة من أرض الوطن المبذولة فيها دماء الشهداء والتي لا تباع ولا يمكن التفريط في شبر منها بل نحن على استعداد لكي نبذل المزيد من الدماء للمحافظة عليها أكثر مما بذلناه حتى الآن» ثم نهض علامة على إنهاء المقابلة فانسحب هرتزل ولاوي يجران ذيول الخيبة .

ويقال إن اليهود تدارسوا فيما بينهم نتائج هذه المقابلة ودعوا إلى مؤتمر عقدوه في مدينة بازل في سويسرا عام ١٨٩٧ ضم أكثر من تسعمائة شخص يمثلون ستمائة جمعية يهودية وفي هذا المؤتمر اتخذت مقررات (بروتوكولات حكماء صهيون) المشهورة ويقال إن هرتزل قد عرض في هذا المؤتمر فكرة إقامة وطن قومي لليهود في غير فلسطين في أوغندة مثلاً ... بعد أن يئس من السلطان عبد الحميد إلا أن بقية المؤتمرين قرروا الزحف الإفرادي المتواصل إلى فلسطين للتركز فيها والسكن في تلك البقاع المقدسة بصفة زائرين أو مجاورين وفي ذلك العام زار الأستانة الامبراطور غليوم الثاني الألماني ومنها توجه إلى زيارة القدس فاغتنم اليهود الفرصة ورجوه التوسط مع مضيفه لمنحهم ما يريدون وتوسط الامبراطور فعلاً ولكن السلطان عبد الحميد لم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة بل على العكس من ذلك جعلته هذه الوساطة يحس بالتركيز اليهودي على فلسطين ويتوجس خيفة فأصدر أوامره المشددة لتقييد اليهود الزائرين للأماكن المقدسة بـ(البطاقات الحمراء) التي ما لبثت أن عرفت باسم (الجواز الأحمر) وهذه لا تبيح بقاء اليهودي الزائر في فلسطين أكثر من شهر واحد مع هذا لم ييأس اليهود فأوفدوا إليه نائب سالونيك عمانوئيل قرة صو أفندي ليعرض على السلطان خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية للخزينة السلطانية الخاصة ومبلغ أكبر تحدده الحكومة العثمانية ويُعطى لها كقرض بلا فائدة وإلى أجل غير مسمى مقابل إعطاء اليهود المثلث القائم بين يافا والبحر الميت وكانت الدولة تخوض في ذلك الحين حرباً مريرة مع روسية وتجتاز أزمة اقتصادية خانقة ومع هذا غضب السلطان وطرده من حضرته وتقول بعض المصادر التاريخية أن تيودور هرتزل ما لبث أن أعاد الكرة وقابل السلطان بعد توسط سفيري بريطانية وأمريكة وعرض عليه أن ينشئ اليهود لدولته أسطولاً حربياً وتجارياً يفوق ويستلب من الأسطول البريطاني سيادة البحار ... فأبلغه السلطان أنه يرفض جميع العروض اليهودية من أساسها وأنه لن

يسمح لهم باستعمار فلسطين والثابت قطعاً أن مكاتبات جرت بينهما حول هذا الموضوع وأن السلطان ظل متمسكاً بموقفه حتى النهاية طالباً إلى اليهود أن يحتفظوا بملايينهم إلى الحين الذي يستطيعون فيه الحصول على فلسطين ولكن ... على أنقاض دولته العلية العثمانية[1].

وضاق اليهود ذرعاً من تصلب السلطان عبد الحميد الثاني تجاههم فاتخذوا مقررات جديدة خلاصتها محاربة السلطان عبد الحميد وبذل كل جهد لإزاحته عن العرش[2] واللجوء إلى الاغتيال إذا لزم الأمر فبدأوا يبثون الدعايات ضده عن طريق جمعياتهم السرية والماسونية في الصحف الأجنبية وأعدوا مؤامرة لاغتياله[3] بوساطة فوضوي أرمني كان السبب في اختياره خوفهم من عدم نجاح هذه المؤامرة فلا يلحق حينئذ باليهود أي ضرر .

وفعلاً انفجرت قنبلة موقوتة في عربة السلطان بعد ظهر الجمعة ٢١ تموز سنة ١٩٠٥ وللمصادفة البحتة بل العناية الإلهية كان السلطان قد وقف مع شيخ الإسلام خلافاً لعادته يبادله بعض الحديث فتأخر بذلك عن الركب فترة من الوقت انفجرت القنبلة خلالها وكان من نتيجة هذه المؤامرة المذابح التي تعرض لها الأرمن وثورتهم في ذلك العام . وعندما فشل اليهود في محاولتهم هذه توسلوا بوسائل دنيئة أخرى فلفقوا قصصاً وحكايات لا يزال الكثيرون من الناس يؤمنون بها وكأنها حقائق ثابتة ... منها أن السلطان قد أغرق ثلث أو نصف أعضاء مجلس المبعوثان العثماني الأول في البوسفور ... وأنه ما لبث أن أغرق المئات من طلاب الجامعات والزعماء المعارضين في البحر عن طريق ربط أرجلهم بالحجارة الثقيلة ورميهم فيها من سراي بروني[4] ومنها قصة وجود سوء استعمال وسرقات في مشروع سكة حديد الحجاز واحتفاظ السلطان لنفسه بالإعانات التي جمعت بمعرفته من أقطار العالم الإسلامي مع إنه حينما استتب الأمر للاتحاديين لم يعلن قط عن

---

(١) الحروب الصليبية الأوروبية التاسعة ص١١٢–١١٤ .

(٢) لمعرفة حقيقة الدونمة والماسونية في عزل السلطان عبد الحميد عن طريق الاتحاد والترقي ، راجع كتاب حقيقة الماسونية للدكتور محمد علي الزعبي ص١٧٤–١٧٥ وكتاب الماسونية في العراء للدكتور محمد علي الزعبي ١٧٤–١٧٩ حيث ذكر ضبط أحد جلسات محفل سلانيك الأكبر التي تم فيها المطالبة والتخطيط لإسقاط عبد الحميد كما ورد في مجلة التحرير «العدد الثاني كانون الثاني ١٩٣٩ التي تصدر في حمص وتطبع في مطابع الترقي في دمشق .

(٣) وهم الذين كانوا كثيراً ما يدعون له كما جاء في صحيفة الجوائب – كما مر – .

(٤) أسرار الماسونية للجنرال جواد رفعت أتلخان ص٥٩ .

اسم نائب أو زعيم أو طالب قد رمي في البوسفور أو يكون مفقوداً لم يعرف مصيره هنا من جهة ومن جهة أخرى أشادوا برجالهم أمثال مدحت باشا وسموه أبا الأحرار وهو رئيس جمعية (تركيا الفتاة) اليهودية التي أطاحت بالسلطان عبد الحميد[1] وكان عملهم لتقويض الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد في ميدانين (ميدان خارجي بما لهم من نفوذ ومؤسسات وتحكم في الدول الأوروبية وميدان داخلي في تغذية الروح القومية الانفصالية لعناصر المملكة المختلفة من عرب وأكراد وشركس وأرناؤوط وأرمن وغيرهم وأحزاب وجمعيات سرية زودتها الصهيونية بـ(عقائديات) حسنة الظاهر ولها في كيان الأمة فعل الديناميت المتفجر حتى أتت الحركات والجهود المختلفة ثمارها فجعل حزب الاتحاد والترقي (اليهود الماسوني) مركز عمله سراً في (سلانيك) وقد اختارها لأن فيها عدا الجاليات الأجنبية الكثيرة عدداً من المحافل الماسونية التي كانت عوناً لهم على تشكيلاتهم وعلى كتمان مساعيهم ثم قويت حركات المعارضين حتى صارت علنية بعد السرية وتجاوب مع معارضة (سلانيك) الأرمن وسائر الأقليات تحت شعار (الدستور)[2] أما الشبان العرب فقد أهدام التجسس القومي الذي كان الأجانب يؤرثونه لهم[3] من حيث لا يشعرون بهم وكانت الإرساليات الأجنبية ومدارسها والقنصليات تذر رماد الوعي القومي ... واغتنمت المدارس الأجنبية المنتشرة في المملكة فرصة استثنائها من رئاسة الدولة فألقت في أفئدة تلاميذها النصارى الرعب من المسلمين لتنفرهم من الامبراطورية العثمانية ولتكسب قلوبهم مستعينة على ذلك ببعض التآليف التي لم تتورع عن الطعن في الإسلام والتشهير برسوله[4].

ثم جاء الظرف الذي اضطر فيه السلطان عبد الحميد للعمل بموجب الدستور العثماني في ٢٤ تموز ١٩٠٨ وفي هذه المناسبة قال الأمير شكيب قصيدة مطلعها :

ألا يا بني عثمان حسبكم شكرا   لقد جاد رب العرش بالنعمة الكبرى

ويصف الخليفة بأنه ظل الله حيث يقول :

وألهم مولانا الخليفة ظله   قياماً على الدستور في الملة الغرا
تداركها رمقاً بإكسير ناظر   إذا مال نحو الترب سيرها تبرا

---

(١) راجع كتاب الثورات سلامة موسى ص٧٢-٧٦ .
(٢) مجلة العربي عدد ٢١٩ مقال الأستاذ سعيد الأفغاني .
(٣) التأريث الاغراء بين القوم وإيقاد النار .
(٤) مجلة العربي عدد ٢١٩ مقال الأستاذ سعيد الأفغاني .

إلى أن يقول :

وفـــــدوا أمير المـــؤمنين بــــأنفس كنتهـــــا إلى عثمان نسبتهـــــا فخرا[1]

ويسجل الأستاذ خليل طوطح شيئاً عن تاريخ هـذه الحقبة فيقول : « وكان شعار الناس قاطبة حرية ، عدالة ، مساواة ، فكثر الفساد وعم التعدي وضعفت الإدارة الملكية وسادت الفوضى وضُوئلت هيبة الحكومة وطمح النـاس إلى احتقار الحكام وجهلوا معنى الحرية فظنوها الاشتراكية أو الفوضوية فكان الرجل ينهب مال غيره ويستبد بالضعيف وإذا عنفته أو زجرته قال حرية مساواة[2] ولكن سرعان ما عاد السلطان وألغى الدستور والعمل به ولكن جمعية الاتحاد والترقي كانت قد تغلغلت واستشرت وزحفت فرقة من الجيش نحو العاصمة استانبول بقيادة محمود شوكت باشا الفاروقي » وهنا يسجل السلطان عبد الحميد موقفاً حقن به الدماء في الوقت الذي كان يستطيع أن يقاوم بحرس قصره ويرد هذه الفرقة ريثما تحضر فرق الجيش الأخرى لنصرة السلطان[3].

ويقول الأستاذ سعيد الأفغاني أيضاً « يحفظ المعمرون في دمشق عن أحد باشوات الدولة العثمانية المرحوم «زاهد باشا المبل» وكان يروي لجلسائه آخر ما أتى السلطان في قصره يوم الخلع قال : لما اضطربت الحوادث وتمردت (سلانيك) أخبر الصدر الأعظم سلطانه بعصيان جيش سلانيك فقال السلطان (طيب) ولم يزد عليها ثم أخبره باتجاه العصاة نحو العاصمة (استانبول) فقال (طيب) ولم يأمر بشيء ثم أخبره بدخولهم العاصمة ... ثم باتجاههم نحو قصره ... ثم بحصارهم القصر وفي ذلك كله يقول (طيب) ولا يزيد عليها وكان الصدر الأعظم شديد الهيبة للسلطان ثم دخل آمر القوى في القصر يستأذن السلطان بضرب العصاة والمقاومة فمنعه ثم عاوده القول بأنهم يريدون إذنه بالمقاومة لهم فقال : أعرف جيداً ما يريدون هو خلعي أو قتلي وأنا شخص فإذا أمرتكم بالمقاومة سقط مئات القتلى منكم ومنهم وأنتم جميعاً أفراد من هذه الأمة والأمة تحتاج إليكم فيما ينزل بها من شدائد ثم

---

(١) ديوان شكيب أرسلان ص١٠٢-١٠٣ .

(٢) تاريخ فلسطين الأستاذ خليل طوطح ص٢٦٩ .

(٣) ولكن الدكتور محمد محمد حسين يقول «... ويلجأ زعماء الاتحاديين في الجيش إلى العنف فيقتحمون الأستانة ويحاصرون يلدز ويشتبكون مع رجال عبد الحميد في معركة كبيرة تنتهي بالتسليم » الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج١ ص٤٦ ولكنه لم يذكر المراجع .

دخل العصاة ولم يقاومهم أحد »[1]. كان ذلك في ٣١ آذار ١٩٠٩ .

وتولى بعده أخوه محمد رشاد الذي لم يكن له من الأمر شيء حتى التوقيع أو الختم فقد وُضِعَتْ جميعها بيد أنور باشا وأصبح يهود الدونمة والماسون يحكمون من وراء ستار عن طريق كبار رجالهم أمثال «جاويد بك والميستر سالم وعمانوئيل قرة صوه ولم يكن خافياً على أحد تغلغل وسيطرة الماسونية على جمعية الاتحاد والترقي يقول صاحب المقتطف « ... وحسبك شاهد ما فعلته جمعية الاتحاد والترقي العثمانية وأكثر أعضائها من الجمعية الماسونية المرتشدين بارشادها » .

كما أشار إلى دور الانجليز أيضاً في خلع السلطان عبد الحميد في مناسبة افتتاح محفل نيازي في مصر برئاسة نعوم بك شقير مكان الحفل فندق كونتننتل في القاهرة وحضر الحفل ادريس بك راغب مدير المحافل الماسونية المصرية وإلى يمينه نعوم بك شقير رئيس محفل نيازي ثم حضره ستاك بك وكيل حكومة السودان وحضرة القائم مقام برتو بك من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ... فأديرت ألوان الطعام الفاخرة وتداول الجلوس المسامرات الفكاهية ثم شربوا نخب الجناب العالي والحضرة السلطانية وجلالة ملك الانجليز رئيس المحافل الماسونية الانجليزية السابقة ... وخطب برتوبك بالتركية وأثنى الثناء الماطر على الحكومة الانجليزية والأمة الانجليزية لأنها ساعدتا العثمانيين في هذا الانقلاب المبارك ضد عبد الحميد – الذي قوض أساس الاستبداد ووطن أركان الحرية في الممالك العثمانية وقال صريحاً « إن الماسونية كانت المحرك الأول والمرشد الأكبر للجنة الاتحاد والترقي وأظهر الذين تكلموا بالعربية فضل الماسونية في تأليف القلوب بين كل الأمم على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم مستشهدين بذلك الاجتماع الذين جمع كثيرين من المصريين والانجليز والترك من المسلمين والمسيحيين على اختلاف مذاهبهم وكلهم اخوان تجمعهم رابطة الحرية والإخاء والمساواة[2].

هذا وفي ١٤ نيسان ١٩٠٩ أوفد البرلمان العثماني هيئة مكونة من الرئيس حكمت باشا وثلاثة أعضاء هم أسعد الطويتالي باشا وغالب باشا وعمونوئيل قرة صو أفندي إلى سراي

---

(١) مجلة العربي عدد ١٦٩ (ص١٥٤) مقال الأستاذ سعيد الأفغاني .

(٢) المقتطف جـ ٣٦ (١٩١٠) ص١٥٧ الحرية والإخاء والمساواة كان شعار حزب الاتحاد والترقي وهو شعار الماسونية أيضاً وشعار الثورة الفرنسية أم الحريات .

يلدز لابلاغ السلطان قرار الخلع وقد كانت إمارات التردد والتهيب على وجوه رجالها وكانت النشوة ظاهرة على ملامح قرة صو وعندما أبلغه عارف حكمت باشا قرار الخلع أجابه عبد الحميد « ذلك تقدير العزيز العليم » وبعد أن صمت برهة تابع يقول « لا بأس فليكن ذلك لقد أمسكت قيادة الأمة بخيط أرفع من خيط القطن مدة ثلاثة وثلاثين سنة دون أن ينفصم فأتمنى لكم النجاح أكثر مني واعلموا أن المسؤولية التي تحملونها ثقيلة جداً » واستغرق في تفكير عميق كمن يستعرض الأسباب الحقيقية التي أدت إلى خلعه والرهبة آخذة بأعضاء اللجنة كل مأخذ وفجأة انتفض عبد الحميد وأشار إلى قرة صو متسائلاً « ما هو عمل اليهود في مقام الخلافة؟ ... ثم التفت إلى بقية أعضاء الوفد وصاح بهم « بأي قصد أتيتم بهذا اليهودي إلى هنا؟ أنا أفهم حقكم كسلمين في خلع سلطانكم وخليفة نبيكم ولكن ... ما هي علاقة هذا اليهودي بالذي جئتم من أجله ؟ وهنا ساد الارتباك أعضاء الهيئة وارتعدت مفاصل زعيم يهود سالونيك وفي رواية أن السلطان انتهره وأخرجه من المجلس »[1].

لقد كان مجيء زعيم يهود سالونيك ضمن اللجنة التي تبلغ السلطان قرار الخلع أكبر دليل على اليد الطولى لليهود في خلع السلطان[2] وقد كان لموقف السلطان المتعنت اتجاه المطامع اليهودية في فلسطين السبب الأول في موقف اليهود منه موقف العداء فهم باعترافهم كانوا يعيشون أرغد عيش في ظل الدولة العثمانية في الوقت الذي يُضطهد ويُحرَق فيه اليهود في أوروبة[3] .

وفي رسالة السلطان عبد الحميد إلى شيخه محمود أفندي أبي الشامات شيخ الطريقة الشاذلية في عصره حيث كانت تتم بينهما المراسلات عن طريق أحمد الحرس – على السلطان عبد الحميد – الذين أخذوا العهد والطريقة من الشيخ أبي الشامات أثناء وجوده في استانبول في ضيافة (راغب رضا بك) مدير القصر السلطاني كما أخذ عنه عدد من وجهاء أستانبول وموظفي القصر السلطاني ووجوهه وحراسه وهي حجة دامغة في بيان دور اليهود في عزل السلطان عبد الحميد وهذا نصها :

---

(١) الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ص١١٢-١١٨ .

(٢) راجع الماسونية في العراء ص٢١٨-٢٢٢ وكتاب حقيقة الماسونية ص١٧٤-١٧٦ .

(٣) يقال إن الذي مول الفتنة التي قضت على السلطان عبد الحميد يهودي يدعى ناثان رئيس بلدية روما راجع كتاب مصطفى كمال تأليف جوبرت مون تعريب كامل مسيحة ص٢١ .

يــــا هـــــو[1]

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين وأفضل السلام وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلمية الشاذلية إلى مفيض الحياة إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات وأقبّل يديه المباركتين راجياً دعواته الصالحة . بعد تقديم احترامي أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مارس في السنة الحالية وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين .

سيـــــدي :

إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوارد الشاذلية ليلاً ونهاراً وأعرض أنني ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ : « إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أنني - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم «جون ترك» وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة وأن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأراضي المقدسة «فلسطين» ورغم اصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيراً وعدوا بتقديم «١٥٠ مليون ليرة انجليزية ذهباً» فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي : إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً فضلاً عن «١٥٠ مليون ليرة انجليزية ذهباً» فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي ، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية بما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين .

لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي ... وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سينفونني إلى «سلانيك» فقبلت بهذا التكليف الأخير هذا وحمدت المولى وأحمده

---

(١) لا يجيز علماء العربية نداء ضمير الغيبة مطلقاً . راجع ضياء السالك إلى أوضح المسالك محمد عبد العزيز النجار جـ٣ ص٢٤٠ طالهامش ولكن الصوفية يهتمون في التعبير عن مواجيدهم أكثر من التزامهم بقواعد اللغة العربية ويسمون «ياهو» الذكر بالهوية وبه يُستدل على درجة الذاكر في منازل السالكين - كما يقولون - .

أنني لم ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين . وقد كان بعد ذلك ما كان ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام وبه أختم رسالتي هذه ألثم يديكم المباركتين وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي وبسلامي إلى جميع الإخوان والأصدقاء .

يا أستاذي المعظم :

لقد أطلت عليكم التحية ولكن دفعني لهذه الإطالة أن تحيط سماحتكم علماً وتحيط جماعتكم بذلك علماً أيضاً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩ .

خادم المسلمين
عبد الحميد بن عبد المجيد

هذا وقد نشرت هذه الرسالة ضمن مقال طويل للأستاذ سعيد الأفغاني في مجلة العربي عدد ١٦٩ وذكر الأستاذ الأفغاني أن هذه الرسالة مترجمة عن النسخة الأصلية بخط السلطان عبد الحميد باللغة التركية .

وقد نشرت مجلة انجليزية إسلامية نص الرسالة بالانجليزية بعد مقدمة طويلة ففضلنا الاعتماد على الترجمة العربية المأخوذة عن التركية مباشرة بدلاً من ترجمة النص الانجليزي إلى العربية والمجلة اسمها :

"Impact International Fortnight" London, 23 March,-12 April 1973 vol. 2:21

ونشرت مجلة العربي أيضاً في عددها رقم ١٧٨ صفحة ٥٢–٥٨ مقالاً في الرد على الأستاذ سعيد الأفغاني بعنوان «السلطان عبد الحميد طاغية وليس خليفة» للأستاذ عبد الله أحمد حسين يعتمد فيه على المراجع التي روجت ما أدعته جمعية الاتحاد والترقي من بطش وظلم واستبداد عبد الحميد علماً بأن موقف هذه الجمعية من القضية العربية وقضاياها موقف لا تحسد عليه وينبغي لنا أن نقول أن هذه الرسالة لم تضف أي جديد في موضوعها سوى أنها وثيقة من السلطان عبد الحميد لاثبات دور اليهود في الأحزاب والجمعيات التي كانت

تثور على السلطان منادية بالدستور والحرية في الظاهر وهي تسعى لهدم الخلافة العثمانية في الباطن . حتى اتقدت شرارة الخلاف سافرة أمام رفض السلطان عبد الحميد الموافقة على إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين حين قدم السلطان المؤمن عرشه ليكون الثمن ، وقد كان هذا معروفاً بحقيقته لمثقفي الأمة العربية أمثال الأمير شكيب أرسلان والشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والشيخ يوسف النبهاني والمؤرخ الأستاذ محمد جميل بيهم وغيرهم من الذين بقي ولاؤهم للدولة العثمانية حتى اللحظة الأخيرة من حياتهم وما أن تسلم الاتحاد والترقي الحكم حتى انطلقت القصائد والتأييدات ترحيباً بالأحرار والدستوريين أو شماتة في السلطان عبد الحميد أو رثاء له .

هذا شوقي يقول :

سل يلدز ذات القصور	هل جاءها نبأ البدور
شيخ الملوك وإن تضعضع	في الفؤاد وفي الضمير
تستغفر المولى له	والله يعفو عن كثير

إلى أن يقول :

عبد الحميد حساب مثلك	في يد الملك الغفور
سدت الثلاثين الطوال	ولسن بالحكم القصير
تنهى وتأمر ما بدا لك	في الكبير وفي الصغير
لا تستشير وفي الحمى	عدد الكواكب من مشير

ثم يشيد بالجيش فيقول :

يا أيها الجيش الذي	لا بالدعي ولا الفخور
يخفى فيان ريع الحمى	لفت البرية بالظهور
كالليث يسرف في الفعال	وليس يسرف في الزئير
في مدح أنورك الجريء	وفي نيازيك الجسور
يا شوكت الإسلام بل	يا فاتح البلد العسير[1]

وهذا حافظ إبراهيم يرثي السلطان في قصيدة تفيض حزناً حيث يقول :

لا رعى الله عهدها من جدود	كيف أمسيت يا ابن عبد المجيد[1]

---

(١) أنور ونيازي وشوكت من كبار قادة الانقلاب . الشوقيات جـ١ ص١٢٦ .

(٢) الجدود جمع جد (بفتح الجيم) وهو الحظ .

فَرِح المسلمون قبل النصارى ... فيك قبل الدروز قبل اليهود
شمتوا كلهم وليس من الهمة ... أن يشمت الورى في طريد
خالد أنت رغم أنف الليالي ... في كبار الرجال أهل الخلود

إلى أن يقول :

حاولوا طمس ما صنعت وودوا ... لو يطيقون طمس خط الحديد
ولي الأمر ثلث قرن ينادي ... باسمه كل مسلم في الوجود
كلما قامت الصلاة دعا الداعي لعبد الحميد بالتأييد
فاسم هذا الأمير قد كان مقروناً باسم الرسول والتوحيد[1]

ولكن حافظ إبراهيم سرعان ما انقلب إلى الهجوم على السلطان عبد الحميد في قصيدة ألقاها في الأزبكية في احتفال بعيد الدستور العثماني وذلك بعد عزله بثلاثة شهور يوليو ١٩٠٩ . يقول :

ولم يغن عن عبد الحميد دهاؤه ... ولا عصمت عبد الحميد تجاربه
ولم يخفه عن أعين الحق مخدع ... ولا نفق في الأرض جم مساربه
وأصبح في منفاه والجيش دونه ... يغالب ذكرى ملكه وتغالبه
يناديه صوت الحق ذق ما أذقتهم ... فكل امرئ رهن بما هو كاسبه
مضى عهد الاستبداد واندك صرحه ... وولت أفاعيه وماتت عقاربه[2]

وهذا شعر يدل على نفاق الشاعر أو على جهله بحقائق الأمور مع الأسف الشديد وهذا الشاعر أحمد محرم يغلب الوفاء عليه في قصيدته ويرى الناس الذين تزلفوا لعبد الحميد بالأمس يأكلون لحمه اليوم :

ثوى عاثر الآمال يؤنسه الأسى ... وتوحشه أوطاره ومآربه
كأن جلال الملك لم يبد حوله ... مهيباً ولم تضرب عليه مضاربه
كأن رؤوس الصيد لم تك خُشَّعا ... لدى بابه المرجو بالأمس حاجبه
كأن بنات الشعر لم تغش بابه ... بمستعليات تزدهيها مناقبه

إلى أن يقول :

أرى الناس من يقعد به الدهر ينقموا ... عليه وإن كانت قليلاً معايبه
ألم يك ظل الله في الأمس بيننا ... نلوذ به والخطب ضنك مذاهبه

---

(١) الديوان جـ٢ ص٤٢ .
(٢) الديوان جـ٢ ص٤٨ .

أنطريــه قهــاراً ونـؤذيــه مرهقــاً كفى الليث شراً أن تفـل مخــالبـــه
ألا راحم؟ هـل من شفيـع؟ أمـا كفى؟ أكل بني الـدنيـا عـدو يغـاضبـه
أكان يريـد السـوء بـالملـك؟ أم يرى مسرتــه في أن تحزن نــوادبـــه
أكل مـــآتيـــه ذنـوب؟ أكلــه عيـوب؟ ألا من منصف إذ نحـاسبـه
أكل ذوي التيجـان بـالعـدل قـائم؟ أمـا فيهم من لا تعـد مثـالبـه
أليس الأولى غشـوه أجـدر بـالأذى وأولام بـالشر من هـو جـالبـه

وأما ولي الدين يكن وهو من حزب الاتحاد والترقي فقد حمل حملة شعواء على السلطان عبد الحميد ولا يرى له أي حسنة وقد نقض قصيدة شوقي - الرائية - السابقة - على نفس الوزن والقافية جاعلاً كل حسنة ذكرها شوقي للسلطان عبد الحميد سيئة يقول :

هــاجتــك خــاليــة القصـور وشجتــك آفلــة البــدور
وذكرت سكان الحمى ونسيت سكان القبـــور
وبكيت بـــالـــدمـع الغـزير لبــاعث الــدمـع الغـزير
ولــواهب المـــال الكثير ونـــاهب المـــال الكثير
حـــامي الثغـور البـاسمات مضيـع آهلـة الثغـور[1]
أهـــدى الفتــور لقلبــه مـا بـاللـواحـظ من فتـور
والجنـد عـاريـة منـا كبهـا مقصمـة الظهـور
خمص البطـون من الطـوى دقت فمـادت كالسيـور[2]
بـاتت على خشن الثرى من بعـد مضجعهـا الـوثير
كانت زهـور شبيبـة لهفي على تلـك الـزهـور
كم خلفهـا من صبيـة تمت ومن شيـخ كبير
يترقبـون مـآبهـا إن المـآب إلى النشـور
من كان يستحلي الشرور يمـوت من تلـك الشرور
لمـا أديـل من السرير بكاه عبـاد السرير
نـذروا النـذور لعـوده هيهـات يرجـع بـالنـذور

---

(1) الثغور الأولى أفواه الحسان والثانية البلاد التي على الحدود .
(2) السيور جمع سير وهو الذي يقد من الجلد .

أسفوا عليه وإنما ... أسفوا على المال الدرير[1]
طلبوا له عفو الغفور ... وشذ عن عفو الغفور
قلص ظلالك راحلاً ... ودع البرية في الهجير

أما الشيخ النبهاني[2] الذي يمثل رجال الدين المخلصين فلم أجد له قصيدة في هذا الغرض لضياع جميع شعره الذي قاله في غير الأغراض الدينية البحتة – إلا القليل – لأنه أوصى بإتلافه . ومما يؤكد أن الشيخ النبهاني كان وفياً في ولائه للسلطان عبد الحميد أنني عثرت له على قصيدة يمدح بها أبا الهدى الصيادي وفيها يذم الترك ذماً شنيعاً ويتهمهم بالكفر والعداء للعرب مما يدل على أن المقصود هو حزب الاتحاد والترقي الذي ربما يكون قد أخر الحملة عليه لاعتقاده أن عملية عزل السلطان عبد الحميد ومجيء أخيه محمد رشاد ليست أكثر من عملية داخلية وأن الأوضاع والمفاهيم العثمانية السابقة لم تتغير ولكن يبدو أنه زار الأستانة فوجد أن الأمور قد تغيرت كلياً ولم يعد للسلطان محمد رشاد هيبة وصولة أخيه عبد الحميد فقال مُعرِّضاً بالترك أي الاتحاد والترقي في أثناء مدحه لأبي الهدى الصيادي وكان هجاؤه الشنيع للاتحاد والترقي هو في حقيقته مدحاً لأبي الهدى الصيادي الذي أوذي ونفي بعد خلع السلطان عبد الحميد . يقول الشيخ النبهاني من قصيدة مطلعها :

تذكر دهراً بالعقيق تصرما ... فواصل سفح الدمع في خده دما
وهبت عليه من ربى الشام نسمة ... فكاد يفيض النفس لما تنسما

إلى أن يقول :

ويممت دار الملك أحسب أنها ... إلى الآن لم تبرح إلى المجد سلما
فألفيتُها قد أقفرت من ربوعها ... ولم يبق فيها الفضل إلا توهما[3]
حوت قوم سوء أسلمو – أي نفوسهم – ... إلى الكفر إلا من له الله سلما[4]
وألقيتَ فيها أمة عربية ... يرى القوم منها أمة الزنج أكرما
وما نقموا منا بني العرب خصلة ... سوى أن خير الخلق لم يك أعجما

---

(١) الدرير المكتنز الخلق . المقتدر أو السريع من الدواب والمقصود هنا المال الدرير أي الكثير .

(٢) الشيخ يوسف النبهاني ١٨٤٩-١٩٣٢ ولد في أجزم – فلسطين وتدرج في وظيفة القضاء حتى أصبح رئيساً لمحكمة الحقوق العليا في بيروت كان شاعراً مجيداً ومعروفاً بطول النفس شارك في قضايا عصره من محاربة التبشير النصراني في بيروت وقد شهر بمدائحه النبوية وميوله الصوفية بلغت مؤلفاته ثمانية وستين مؤلفاً وجميعها مطبوع .

(٣) إشارة إلى السلطان عبد الحميد وأنصاره .

(٤) إشارة إلى حزب الاتحاد والترقي .

ولكن حجـــاب الحقـــد أعمى قلـــوبهم　　فلم ينظرونـــــا من ورا حجب العمى
بنـو اللـؤم إني مـــا تكلمت هـــاجيـــا　　ولكن قلبي من جفـــــاكم تكلمـــــا
ولـو لم يكن قصـدي مـديـح أبي الهـدى　　لجرعتكم لـــــو ذقتم المجـــــو علقما

فـــــإني على رأي لـــزوم هجـــــاءكم　　أرى المـدح في فرع النبـوة ألـزمـــا[١]

كل هـنا يجعلني أجزم بوجود قصيدة للشيخ يوسف النبهاني توضح موقفه من خلع السلطان عبد الحميد[٢].

وأخيراً يتضح أن شخصية السلطان عبد الحميد لم تتم دراستها على حقيقتها[٣] حتى الآن ذلك أن الدعاية المضادة التي بثها حزب الاتحاد والترقي والجهات الأخرى لأهداف دينية وسياسية صورت السلطان عبد الحميد بالطاغية وصاحب الملذات بالإضافة إلى أن المصادر الأصلية لدراسته قد ملكها الاتحاديون فزيفوها أو أتلفوها وما كان منها في البلاد العثمانية قد استولى عليها الاستعمار البريطاني أو الفرنسي أو الإيطالي الحاكم الجديد ونقلها إلى جامعاته ومعاهده . أما عن الدعاية المضادة فيقول الجنرال جواد رفعت أتلخان ... وأدى هذا الرفض – إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين – إلى إثارة دعاية يهودية عالمية ضد الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية متخذة من الافتراءات والأكاذيب سلاحاً لها وكانت هذه الأكاذيب والافتراءات من القوة بحيث لا يمكن للإنسان أن يقف أمام تيارها الجارف ... وكانت تتضمن أمثال هذه الكلمات « لا حرية في الدولة العثمانية » « الاستبداد يخيم عليها » « السلطان يفتك بالعناصر المثقفة ويرميهم من نوافذ القصر إلى البحر » .

يقول الجنرال جواد رفعت أتلخان وهو أحد أبطال الجيش التركي في حرب البلقان والقرم « ... وفي الواقع أن جمعية الاتحاد والترقي التي خلعت السلطان عبد الحميد عن عرشه هي التي أقامت الاستبداد بعد ذلك وشهدت البلاد من المآسي ما لم تشهده خلال

---

(١) فرع النبوة «أبو الهدى الصيادي» لأنه من العترة النبوية الطاهرة . عثرت على هذه القصيدة لدى الأستاذ أكرم زعيتر سفير الأردن في بيروت وقد اجتمعت به في شهر ديسمبر ١٩٧٤ في بيته وقد حصل عليها الأستاذ زعيتر من الشيخ عبد الهادي عبد الهادي راوية شعر الشيخ النبهاني وأستاذ السفير الأردني المذكور .
(٢) وقصائد مثلها لرجال الدين في العالم الإسلامي خصوصاً بعد أن اتضح عداء رجال الانقلاب للإسلام .
(٣) راجع كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر جـ٢ ص٩٦–٩٧ الهامش .

ثلاثة وثلاثين سنة من حكم السلطان ولفظ مواطنون مخلصون كثيرون أنفاسهم الأخيرة على أعواد المشانق التي نصبت في مختلف أنحاء البلاد . المصيبة الحقيقية الكبرى هي وقوع إدارة الحاكم تحت تأثير النفوذ الماسوني اليهودي وكأن الأرض قد انشقت مرة واحدة عن مستعمرات يهودية ذوات أبنية شاهقة من مناطق حيفة ويافة والرملة والكرمل وهكذا نرى أن أسس إسرائيل قد أرسيت بأيدينا وإن طلعت باشا (مأمور البريد السابق) رئيس وزراء الحكومة العثمانية المسكين لم يكن على علم بخفايا الأمور لأنه كبقية الغافلين كان قد صدق المزاعم الماسونية التي تتغنى بالحرية والمساواة والإخاء البشرى والسلام العالمي ولقد انهارت الدولة العثمانية ولفظ طلعت أنفاسه الأخيرة غريباً في بلاد أجنبية برصاص الماسونية اليهودية[1].

هذا وقد أشارت المجلة الانجليزية التي نشرت نص رسالة السلطان عبد الحميد إلى شيخه أبي الشامات أشارت إلى مصادر دراسة السلطان عبد الحميد وما دار حولها من شبهات وأخيراً يقول الأستاذ محمد الفرجاني :

« وليس أبلغ ما رثي به السلطان عبد الحميد مما رواه المجاهد التركي المغفور له جواد رفعت أتلخان من أنه بعد اندحار الجيوش العثمانية في كافة الجبهات وانفراط جمعية الاتحاد والترقي زار القائد جمال باشا أنور باشا في داره الكائنة في أورطة كوى في استانبول وكان جميع رفاقه قد هربوا – وتذاكرا معاً في الهزائم وحللا أسباب هذه الاندحارات فقال وزير حربية الاتحاديين – أنور باشا – وقائد جيوشهم موجها كلامه إلى زائريه « أتعرفون ما هو ذنبنا الحقيقي ...؟ لقد كان ذنبنا أننا لم نقدر السلطان عبدالحميد حق قدره فأصبحنا آلة بيد الصهيونية واستثمرتنا الماسونية ... هذا فظيع جداً ولكنه في الواقع مع كل أسف كنا ألعوبة في أيدي اليهودية العالمية »[2]

الحركة العربية الحديثة :

عندما بُعث الرسول ﷺ إلى كافة الشعوب وهو آخر الرسل كان من الطبيعي ألا يفاضل بينها إلا بمقدار ما تستجيب لهذه الدعوة متمثلة لها بأفعالها وأقوالها والآيات

---

(١) أسرار الماسونية ص٥٨–٦٠ .

(٢) الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ص١٢٠ .

والأحاديث في هذا الخصوص كثيرة منها قوله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1] وقد كانت الشعوب راضية بتساويها أمام هذا الدين ولما بدأت السياسة العربية تظهر واضحة في أواخر العصر الأموي وقف الفرس إلى جانب العباسيين للإطاحة بالأمويين وأخذت الشعوبية تظهر بشكل واضح على لسان شعرائها وأدبائها ممجدة لشعوبها في الظاهر نابذة للإسلام في الباطن[2].

وقد كان الفرس يطلقون لفظ العرب على كل من يدخل الإسلامَ منهم .

يقول الدكتور عبد العزيز الدوري « إن الفتوحات نشرت السيادة للعرب وفتحت أبواب المعمورة أمام التدفق العربي ولم تكن الشعوب المغلوبة تميز في البدء بين العروبة والإسلام في هذا التوسع بل بقي المفهومان مترادفين لديها خلال القرنين الأولين حتى إن الداخلين في الإسلام من الشعوب الأخرى اعتبروا (عرباً) في نظر من بقي على دينه منهم ويبدو أن العرب أنفسهم كانت لديهم أو لدى أكثرهم مثل هذه النظرة [3]

كما أورد الطبري أن «أشرس بن عبد الله السلامي» – أمير خراسان وما وراء النهر – وعد بإعفاء من يسلم من الضريبة فأقبل الكثيرون على دخول الإسلام فشكا دهاقين بخارى إلى الأمير فقالوا « ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً »[4].

من هنا نفهم أن المفهوم الأول للعروبة والإسلام شيء واحد . فمن أسلم من غير العرب فهو في طريقه لأن يصبح عربياً بقراءة القرآن والعلوم الإسلامية المكتوبة بلغة العرب وفي العصر الحديث انضم العرب للحكم العثماني ولم يروا غضاضة في ذلك لأن السلاطين العثمانيين لم يفرقوا بين رعاياهم خصوصاً العرب الذين هم معدن الإسلام الذي باسمه تخضع الشعوب الإسلامية للسلطنة العثمانية وقد كان العرب يتميزون بنوع من التقديس والاحترام لدى السلاطين وقد لاحظنا ذلك لدى السلطان عبد الحميد . ولأن العرب كانوا يفاخرون بأنهم عثمانيون كما أنهم عرب[5].

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) راجع مجلة العربي عدد ٥٤ ص٩٨–١٠٠ مقال بقلم أنعام الجندي بعنوان شعوبية ابن المقفع .

(٣) الجذور التاريخية للقومية العربية ص١٧ .

(٤) تاريخ الطبري جـ٥ ص٢٩٨ راجع أيضاً حول الحركة العربية الحديثة للأستاذ محمد عزة دروزة جـ١ ص١١–١٤ .

(٥) راجع مذكرات أحمد الشقيري «حوار وأسرار» .

وقد تبدلت الأمور منذ أن بدا الترك يفاخرون بطورانيتهم حيث استيقظ العرب يفاخرون بمجدهم القديم وأن الرسول ﷺ عربي والقرآن الكريم بلغة العرب إذن لا يفضلهم غيرهم من الشعوب . وقد كانت هذه بداية الوعي العربي الذي عرف فيما بعد بالوعي القومي .

أما الدعوة الطورانية التي أعلنها حزب الاتحاد والترقي – بعد أن أطاح بالسلطان عبد الحميد فقد كان مدفوعاً من قبل الماسونية اليهودية الهادفة إلى تفتيت دولة الخلافة العثمانية عن طريق إثارة القومية الطورانية مما يؤدي إلى ثورة القوميات الأخرى التي لم يعد شيء يربطها بدولة الخلافة بعد أن أعلنت انحيازها لأصلها الطوراني وتميزها عن شعوبها .

ومن جهة أخرى أخذت الدول الأوروبية تساعد هذه القوميات على الاستقلال لإضعاف الدولة العثمانية تمهيداً لتنفيذ أطماعها في الاستيلاء على أجزاء منها مدفوعة بدوافع نفسية صليبية أظهرها قوادها العسكريون عندما دخلوا القدس ودمشق .

هذا وقد ظهرت الروح القومية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقريباً وقد كانت تتخذ شكل المناداة بالاصلاحات الداخلية أو الحكم اللامركزي ضمن الإطار العثماني العام ولم يكن أحد يجاهر بالانفصال عن دولة الخلافة قبل اعلان سياسة التتريك من قبل حزب الاتحاد والترقي مما أدى إلى نشوء (الحزب الائتلافي) مكوّناً من العناصر غير التركية ومنهم العرب وانضم إليهم بعض الترك من خصوم الاتحاديين[1] فتولدت لدى السلطنة العثمانية مشكلتان :

الأولى : هي ثورة العناصر العثمانية مطالبة باستقلالها مثل الكرد والألبان والعرب والعناصر المسيحية من البلغار والأرمن واليونان كا قامت النمسة واحتلت الهرسك والبوسنة واحتلت اليونان جزيرة كريت واحتلت إيطالية ليبية وأطلقت يد فرنسة في مراكش بعد إرضاء المانية باعطائها بلاداً أخرى في إفريقية[2].

---

(١) قوافل العروبة ومواكبها محمد جميل بيهم ص٢٠-٢١ جـ٢ .

(٢) فلسفة التاريخ العثماني جـ٢ ص١٨٦ يقول الأستاذ بيهم في مقابلة أجريتها معه في بيته في ١٩٧٥/١/١٥ «أنشئت القومية العربية للتفريق بين العرب والأتراك وكانوا يسلكون كل السبل إلى هذا الهدف ومنها التفريق بين العناصر العثمانية والأتراك الحاكين وقد كان هذا مَسْهّلاً للدعايات الأجنبية التي كانت تدعو بصورة سرية للتفريق بين العناصر العثمانية » .

والثانية : هي شروع الاتحاديين في العمل على جمع شمل الأتراك حولهم حيث كانوا في روسية ويوغسلافية والمجر وبلغارية وغيرها فأثاروا بذلك حفائظ الدول ذوات العلاقة بالموضوع وقد ساعدت هذه المشاكل الحزب الائتلافي لاستلام مقاليد الحكم وعهد إلى كامل باشا تأليف الوزارة وهو من رجال السلطان عبد الحميد غير أن هذا العهد كان قصيراً إذ سرعان ما أسقطت الحكومة الائتلافية وأبعد الضباط العرب عن البلاد العربية وتدخلوا في انتخاب المجلس النيابي سنة ١٩١٣ حيث لم يمكنوا العرب من ارسال أكثر من خمسين نائباً بدلاً من سبعين ومنذ هذه اللحظة أصبح العرب يطلبون الاستقلال التام بعد أن كانوا يطلبون الاصلاح واللامركزية ضمن نطاق السلطنة[١] وتولد فراغ لظهور الحركة العربية الاستقلالية المثله ولكن سرعان ما نشبت الحرب العالمية الأولى فوجد الاتحاديون دولتهم بحاجة إلى رعاياها من كل الشعوب فأخذوا ينادون بالخلافة الإسلامية والجهاد المقدس وأخذت جريدة الشرق[٢] التي تصدر في دمشق وهي لسان حالهم في البلاد العربية تنشر لجمال باشا قائد الجيش الرابع في الشام أقواله التي يصرح بها أن لا فرق في نظر الإسلام بين تركي وكردي وعربي وتلوح باستقلال الشرق ولكن هذه الدعوة لم تلق صدى لدى المسلمين لأن تركية كانت تحارب إلى جانب المانية وربما لأن خلع السلطان عبد الحميد ترك مكانه شاغراً في قلوب المسلمين الذين استطاع أن يستلهم مشاعرهم نحو الجامعة الإسلامية .

كان النصر في سني الحرب الأولى إلى جانب المانية وتركية فأيقن الاتحاديون أن النصر النهائي سيكون من نصيبهم فكشفوا عن دخائلهم وإذا بجمال باشا ينقلب على العرب انقلاب غيره من الولاة والقادة على بقية الرعايا في الولايات الأخرى وإذا بالحكومة الاتحادية تستأنف نشاطها أيضاً في الدعوة الطورانية[٣] بشكل جدي ولكن الكلمة الأخيرة كانت للحرب حتى إذا خسرت تركية الحرب خسرت كل شيء واحْتُلَّت الآستانة من قبل الانجليز عام ١٩١٨ .

---

(١) قوافل العروبة ومواكبها جـ٢ ص٢٢ .

(٢) قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور جـ٢ ص٢٥ .

(٣) يقول الأستاذ المؤرخ محمد عزة دروزة في مقابلة معه في بيته في دمشق في ١٩٧٤/٢/١٥ « وما كان السلطان عبد الحميد يفرق بين العرب والأتراك فالظلم عام والجهل عام والأتراك خلافاً للفرس لم يكن لهم فكرة تهديم العرب ولا تهديم الإسلام تسلطهم ليس كتسلط الفرس سلوك الأتراك مع العرب سلوك أصدقاء وسلوك الفرس سلوك أعداء .

وليكن معلوماً أننا إذا كنا قد بدأنا الكلام عن الحركات العربية الحديثة منذ سقوط عبد الحميد وإعلان سياسة التتريك من قبل الاتحاديين فنحن لا ننكر وجود أوليات لهذه الحركة كما لا يعقل أن تكون قد انطلقت من الصفر بل كان لهذه الحركة جذور غذتها وساعدت على تكوينها فاتخذت طابع الوعي والتنبيه فمنذ القرن الثامن عشر اتخذت اتجاهاً إسلامياً ينادي بإصلاح المجتمع وبالعودة إلى الإسلام وقد تمثل هذا الاتجاه في الدعوة الوهابية وفي القرن التاسع عشر أخذت مظهر «التجديد» وذلك بتوضيح الإسلام بروح عصرية والاستفادة من المدنية الغربية وبالتالي اتخذت طابع الحركة القومية المعروفة وكانت حركة الشيخ محمد عبده اصلاحية تدعو إلى استعمال الاجتهاد والفكر مع التأكيد على التراث[1] وقد كان الاهتمام باللغة العربية الفصحى ظاهراً في هذا الاتجاه فابن تيمية[2] قديماً دعا لجعل العربية لغة المسلمين ويرى في تعدد اللغات نكوساً ومحمد عبده حديثاً دافع عن العربية الفصحى في اللهجات المحلية وضد توسع اللغات الأجنبية وأكدت هذه الحركة على دور العرب في التاريخ ودعت إلى تجديده وقد لاحظ محمد عبده ورشيد رضا أن العرب هم الشعب البارز بين الشعوب الإسلامية لذا هم أفضل هذه الشعوب للقيادة ولإعادة الإسلام لمكانته فالنهضة العربية ضرورية لنهضة الإسلام ويأتي دور الكواكبي في ابراز دور العرب التاريخي في المدينة وركز على عرب الجزيرة بالذات فهم أعرق الأمم في أصول الشورى وفي الشؤون العمومية وهم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية كما دعا إلى نهضة اجتماعية سياسية وحمل حملة شعواء على ظلم العثمانيين ودعا إلى خلافة عربية[3] ويتخذ الكواكبي في دعوته نبرة «قومية» مبكرة حين يقول « أيها العرب المسلمون إن أنكر المنكرات بعد الكفر هو الظلم فانهوا عن المنكر إن كنتم مؤمنين وأنتم أيها العرب من غير المسلمين أدعوكم إلى تناسي الأحقاد وأجلكم عن ألا تهتدوا إلى وسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه أمم أمريكا قد هداها العلم إلى الاتحاد الوطني دون الديني فما بالنا نحن لا نفكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الأعاجم والأجانب بيننا دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا دعونا نجتمع على كلمة سواء ألا

---

(١) يقول فيليب حتي في كتابه «تاريخ العرب المطول» : « وكان محمد عبده لا يرى تناقضاً أساسياً بين الإسلام والعلم الحديث ولقد فسر بعض الآيات تفسيراً عقلياً أدرك قصور المدرسة الإسلامية : وقد ساهم كلاهما محمد عبده والأفغاني أكثر من أي كاتب عصري في تمزيق ثوب المحافظة والرجعية التي التف به الإسلام منذ العصور الوسطى وهو أول من هاجم بعنف تعدد الزوجات والطلاق والحجاب ص٨٨٧–٨٨٨ .

(٢) الصراع بين الموالي والعرب محمد بديع شريف ص١٢٢–١٤٥ .

(٣) كتاب أم القرى للكواكبي ص٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٨ .

وهي فلتحيا الأمة فليحيا الوطن ولنحيا طلقاء أعزة » . وهو يجاهر بالاستقلال اللامركزي في قوله « من أهم الضروريات أن يحصل كل قوم من أهالي تركيا على استقلال نوعي إداري يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم » وفي أقوال الكواكبي دلالة على تدخل الأجانب في شؤون العرب الداخلية وفيها تمهيد للدعوات اللامركزية ثم الاستقلالية عن الدولة العثمانية[1] كل هذا كان وعياً عربياً خالصاً وجاءت حملة نابليون في النصف الأول من القرن التاسع عشر تحمل معها الفارق الحضاري بين أوروبا الحديثة والشرق «العربي» المتأخر أضف إليها الإرساليات التبشيرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كل هذا أدى إلى تغلغل الأفكار والعادات الغربية وبالتالي فرضت السيطرة الغربية فرضاً وفي هذا تبدو المفارقة بين الوعي العربي والوعي القومي ثم الحركة القومية[2].

يقول الدكتور فيليب حتي «كان في حياة الشعوب العربية في هذا الزمن شيء من التناقض الظاهر فقد كانوا يصدون تدخل الأوروبيين في شؤون بلادهم بيد ويتقبلون الأفكار الجديدة الكثيرة التي استوردوها من أوروبا فكرتا القومية العربية والديمقراطية السياسية[3].

ويقول الأستاذ محمد جميل بيهم في مقابلة معه في ١٩٧٥/١/١٥ : « ... الدول الأجنبية بوساطة مؤسساتها أسهمت في إنشاء القومية العربية»[4].

ويقول الدكتور فيليب حتي « وقد بدأت حركة القومية العربية أول الأمر كحركة فكرية صرفة كان دعاتها الأول بالأكثر المفكرين السوريين وبنوع خاص اللبنانيين المسيحيين الذين تعلموا في جامعة بيروت الأمريكية وعملوا في مصر[5] هكذا نشأت الحركة القومية بجذور ثقافية وطابع ثقافي متميز ثم اتجهت إلى ناحية سياسية كانت البدايات في الانتباه إلى الإرث الثقافي والاعتزاز بدور العرب الحضاري وفي التركيز على اللغة العربية فقد كان للمطابع الموجودة في سوريا ومصر دوراً إيجابياً في نشر بعض كتب التراث كما أن

---

(١) طبائع الاستبداد للكواكبي نقلاً عن الجذور التاريخية للقومية العربية ص٥٩-٦٠ .

(٢) راجع كتاب حول الحركة العربية الحديثة محمد عزة دروزة جـ١ ص٥-٨ فقد ألقى أضواء على هذه الفكرة .

(٣) تاريخ العرب مطول ص٨٨٧ .

(٤) راجع أيضاً كتاب حول الحركة العربية الحديثة جـ١ ص٤-٥ فيه توضيح وربط بين الحركة القومية العربية والتركية والأوروبية .

(٥) تاريخ العرب مطول ص٨٨٩ .

دور الثقافة واللغة العربية كبير في تكوين الأمة وفي تراثها تجد شخصيتها التاريخية وقد تمثل النشاط الثقافي في الجمعيات الأولى التي تأسست في البلاد العربية كالجمعية العلمية السورية التي تأسست في بيروت سنة ١٨٥٧ والحلقة الثقافية في دمشق حول الشيخ طاهر الجزائري في أواخر القرن التاسع عشر وأثرت في جمعية النهضة العربية ١٩٠٦ . كل هذه جمعيات ثقافية في أساسها ثم ثقافية سياسية فقد ضمت الجمعية العلمية السورية أعضاءها من مختلف الطوائف الدينية[1].

وكانت حلقات دمشق تدعو إلى دراسة تاريخ العرب وقواعد العربية وآدابها وكذلك النهضة السورية أولت هذا الاهتمام الثقافي نفسه لنهضتها مع إثارة الهمم لتحرير الأمة العربية . ومن أوليات فكرة الخلافة العربية ما صرح به أحد أقطاب جمعية النهضة العربية – الأستاذ محب الدين الخطيب – إذ يقول « ليس بين الأتراك فيا أحسب من لا يعلم أن الأمة التركية ما علت إلا على آثار الأمة العربية وما شيدت من دعائم ملكها وما وطدت من أسسه إلا على أنقاضها وهم يخشون أن تسرى فكرة الخلافة العربية فتتسرب في فكر الكبير والصغير ومن ثم تقوم الأمور بعضها على بعض وهناك الطامة الكبرى »[2].

وفي هذا تحول في أغراض الجمعيات الثقافية إلى أغراض وأهداف سياسية وكان التأكيد على اللغة العربية من أهم مطالب هذه الجمعيات لمواجهة انتشار الإرساليات التي كلفت ألا تدخر جهداً في تعليم اللغات الأجنبية وبعد سياسة التتريك زاد التأكيد على أهمية اللغة العربية قومياً حيث يقول أحد أعضاء جمعية النهضة العربية « ولقد ثبت بالاختبار أن الرجل إذا أخذ بنصيب من العلم بغير لغته لأمته لا يرجى منه في الأعم الأغلب من أحواله أي خير لقومه ولا بدع فاللغة من الذرائع الكافية لتقويم الحياة القومية » ويقول أيضاً « وبعد : فإن العناية بغير لغتنا والاضراب عن لغة آبائنا هوالذيسبب لنا هذا العجز الكبير في ميزان التقدم وإن هو إلا نتيجة سوء التربية والتعليم »[3].

وكان التأكيد على الدور التاريخي للعرب من أهم مظاهر الوعي القومي خصوصاً في الحقبة بين ظهور الإسلام وسقوط بغداد وقد كان للفوضى والتأخر في الدولة أثر في

---

(١) القومية العربية مصطفى الشهابي ص٤٦–٤٧ .

(٢) محب الدين الخطيب – الدكتور صلاح الدين القاسمي ص٧٤ .

(٣) محب الدين الخطيب الدكتور صلاح القاسمي ص٤٥–٤٦ .

مقاومة السلطان عبد الحميد من قبل هذه الجمعيات[1] ثم الموجات الغربية الهادفة للنيل من رسالة العرب القومية وتدخل الدول الغربية في الشؤون العربية كل هذا كان له أثر في تعميق الوعي القومي . ويبدو أن السلطان عبد الحميد بذكائه ودهائه شعر بقوة هذا الوعي فأخذ يقرب العناصر العربية ويوليها المناصب الهامة في الدولة في محاولة لصد هذا الشعور ولأن العرب أقوى عناصر الدول العثمانية من جهة الخلافة الإسلامية . وقد تجلت الدعوة القومية الانفصالية في أجلى صورها في المنشور الذي أصدرته الجمعية الوطنية السورية في باريس سنة ١٩٠٥ موجهاً إلى الدول العظمى جاء فيه « أن العرب الذين تحكم فيهم الأتراك بتفريقهم على مسائل ثانوية تتصل بالعقيدة والشعائر أصبحوا داعين لوحدتهم القومية والتاريخية والعنصرية يرغبون في الانفصال عن الشجرة العثمانية النخرة لإقامة دولة مستقلة لأنفسهم وستمتد حدود هذه الامبراطورية العربية الجديدة إلى حدودها الطبيعية من وادي دجلة والفرات إلى قناة السويس ومن البحر الأبيض المتوسط إلى بحر عمان وستحكمها حكومة دستورية حرة على رأسها سلطان عربي[2] .

وأخيراً نجح حزب الاتحاد والترقي – وكان من أعضائه بعض دعاة الإصلاح من العرب[3]– في التخلص من السلطان عبد الحميد وأعيد اعلان الدستور وتوهم العرب أن عهد الحرية والازدهار تحت الراية العثمانية قد جاء واعتقدوا أن الوقت حان ليحقق العرب ذاتهم ويرفعوا كيانهم[4] في أن الدستور يفرض صهر العناصر المختلفة في بوتقة عثمانية لغتها التركية وهذا يهدم الكيان الثقافي والقومي[5] .

ولذلك جوبهت الحركة القومية بتحد وإصرار خصوصاً بعد خلع السلطان عبد الحميد وسيطرة الاتحاديين سيطرة مطلقة مما أدى إلى أن تعمل بعض الجمعيات جهراً وهي معتدلة وبعضها تعمل سراً وهي أقرب للتعبير عن النوايا الحقيقية فمن الجمعيات الناشئة بعد اعلان الدستور جمعية المنتدى الأدبي في الأستانة[6] وحزب اللامركزية الإدارية العثمانية شكلته الجالية السورية في مصر ١٩١٢ وقامت جمعية بيروت الاصلاحية في أواخر

---

(١) راجع فلسفة التاريخ العثماني محمد بيهم ص١٧٢ جـ٢ .

(٢) الجذور التاريخية للقومية العربية ص٧٠ .

(٣) راجع مجلة المنار جـ١٢ ص٩١٢-٩١٩ .

(٤) محب الدين الخطيب ص٣٦-٤٠ .

(٥) التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة محمد رفعت ص١٤ .

(٦) كتاب (المؤتمر العربي الأول) ص٩-١٠ القاهرة ١٩١٣ .

سنة ١٩١٢ . هذه الجمعيات علنية كانت تنادي باللامركزية وعدم الانفصال عن الدولة العثمانية . أما الجمعيات السرية أهمها الجمعية القحطانية تألفت في الأستانة سنة ١٩١٥ والجمعية العربية الفتاة ١٩٠٩ وتأسست جمعية العهد سنة ١٩١٣ وهي جمعية عسكرية وكانت تنادي بالاستقلال التام والعمل على الوصول باللغة العربية إلى مصاف الأمم المتمدنة وكان رأي الجمعيات السرية هو الرأي السائد للعرب وقت الحرب .

ثم دعت الجمعية العربية الفتاة إلى عقد مؤتمر وجهت الهيئة التحضيرية للمؤتمر منشور جاء فيه «دعوة إلى أبناء الأمة العربية المنتشرة في أقطار الأرض تحت كلمة التضامن الاجتماعي والسياسي لهذه الأمة حيث نبسط للأمم الأوروبية أنا أمة متمسكة ذات وجود لا ينحل ومقام عزيز لا ينال وخصائص قومية لا تنزع ... ونصارح الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا »[1]. وكانت الاستجابة سريعة وعقد المؤتمر العربي الأول في ١٨ حزيران ١٩١٣ . وكان في قراره تأكيدٌ لحقوق العرب السياسية وإسهاماتهم الفعالة في إدارة الامبراطورية والنص على جعل اللغة العربية اللغة الرسمية في البلاد . وفي محاضر جلسات المؤتمر تظهر لنا القومية العربية بخصائصها المميزة .

قال عبد الغني العريسي « إن العرب تجمعهم وحدة لغة ووحدة عنصر ووحدة تاريخ ووحدة عادات ووحدة مطمع سياسي »[2] وهنا نلاحظ استبعاد العقيدة والدين من حيث هو رابطة قوية عربية وإسلامية . قال الشيخ عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر حين سأله مراسل الطان الفرنسية فقال « هل أنتم تريدون الوحدة العثمانية لأجل الرابطة الدينية؟ » فأجاب « إن الرابطة الدينية قد عجزت عن إيجاد الوحدة السياسية فنحن لا نتمسك بالوحدة السياسية لأجل الرابطة الدينية بل رغبة منا في إيجاد مجموع عثماني قوي يرتقي فيه مجموعنا العربي بدون حائل في طريقه وأملاً في قيام حكومة رشيدة تكون لنا مشاركة في أمورها »[3]. ثم جرت مفاوضات مع الاتحاديين ووعدوا بالاستجابة لأهم المطالب ثم سوفوا والتزموا بقدر ضئيل منها ثم أعقبه اضطهاد صارم لكل القوميين كل هذا أدىَ إلى صقل الفكرة الاستقلالية واتخاذ الحركة القومية طابعاً استقلالياً تحررياً

---

(١) راجع كتاب الوحدة العربية محمد عزة دروزة ص١١٩، القومية العربية للشهابي ص٧٠-٧١ ، الثورة العربية الكبرى أمين سعيد جـ١ ص٨-٩ .

(٢) كتاب المؤتمر العربي الأول ص٦-١٠ القاهرة ١٩١٤ .

(٣) كتاب المؤتمر العربي الأول ص١٨-١٩ .

كل هذه كانت ارهاصات[1] تهيء لثورة عربية فكانت ثورة الشريف حسين التجسيد العملي لآمالها ونواياها فما أن أصبحت تركية شريكاً في الحرب إلى جانب المانية ضد الحلفاء حتى أوقف الوطنيون العرب كل نشاط لهم ضدها .

يقول الأستاذ محمد رفعت « أما الوطنيون العرب فقد استلهموا موقفهم عند نشوب الحرب من صادق وطنيتهم وما كانت تمليه عليهم الحكمة السياسية والظروف الدولية . وكان أول استجابة منهم لنداء الوطنية أن أوقفوا نشاطهم السياسي ضد تركية ما دام الأتراك يحاربون ضد الغرب والاستعمار ذلك إلى أن يستبين لهم الطريق السوي وأكثر من ذلك أن جمعياتهم السرية قد أخطرت أعضاءها عند إندلاع نيران الحرب بأن عليهم أن يعاونوا تركية في محنتها ضد الغرب[2]. وهو الموقف نفسه الذي وقفه الشريف حسين أيضاً فهو على الرغم من سوء العلاقة بينه وبين حكومة الاتحاد والترقي التي كان يتوقع منها عزله كما صرح ولده وسفيره المتجول الأمير عبد الله[3] وعلى الرغم من المفاوضات الجارية له مع الانجليز عن طريق ولده المذكور مع «السير رونالد ستورزه السكرتير الشرقي بدار المندوب السامي البريطاني في مصر أثناء لعبة الشطرنج ثم المفاوضات الرسمية بالمكاتبة بعد دخول تركية الحرب مع السير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر التي أصبح بموجبها ملكاً على الجزيرة العربية والعراق وسوريا مع بعض الاستثناءات ومع هذا لم يسارع الشريف حسين لاعلان الثورة على تركية بل بقي يناور ويداور ، بل أرسل العلم النبوي الشريف في صحبة بعثة شرفية سافرت إلى دمشق حيث استقبلها أحمد جمال باشا ورجال الحكومة بالتكبير والتهليل وجثا جمال باشا أمام البيرق النبوي مقبلاً طرفه وقام حامل البيرق من الأسرة الهاشمية يدعو للجيش التركي ويباركه قبل رحيل الجيش لغزو مصر عام ١٩١٥ حتى إذا قامت الحملة على مصر بقيادة جمال باشا يساعده القائد الألماني كونشتين وفشلت الحملة في هجومها في ٢-٣ فبراير ١٩١٥ وعاد جمال باشا إلى سورية مهزوماً وحكم على أحد عشر من زعماء ووجهاء البلاد بالاعدام في مارس وأغسطس سنة ١٩١٥ حيث عثر جمال باشا على الأوراق التي يطلب هؤلاء فيها وضع سورية تحت الحكم الفرنسي والذي أرشده إليها هو « فيليب زلزل » ترجمان القنصلية

---

(١) الارهاص الاثبات أرهص الشيء إذا أثبته وأسسه .

(٢) التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة ص١٠٤-١٠٥ .

(٣) المصدر السابق ص١١٠ .

الفرنسية في بيروت والذين ذهبوا ضحية بريئة وشنقوا ظلماً ثلاثة فقط هم شكري العسلي وعبد الوهاب الانجليزي وعبد الغني العريسي ويروى أن يوسف الهاني عندما صعد حبل المشنقة هتف وقال « أموت في حب فرنسا والوطن »[1]. ولعل هذا أن يكون من قبيل ما حدث في تركية كما يقول الأستاذ دروزة « ... وكان هناك بعض الرجال والنساء يرون الخلاص الحقيقي في الانتداب الأمريكي والحصول عليه اعتقاداً منهم بأن البلاد في حاجة إلى مساعدة علمية واقتصادية لن يجدوها نزيهة إلا في أمريكة كما كانوا يعتقدون أن مثل هذا الانتداب قد يحفظ للدولة وحدتها وكيانها[2].

وفي إبريل ١٩١٦ زحف الأتراك على قناة السويس مرة أخرى بقيادة الضباط الألمان بجيش عدده ١٨٠٠٠ جندي قابلهم الانجليز بجيش عدده ٣٠,٠٠٠ جندي فانهزم الأتراك وكانت آخر محاولتهم .

وفي مايو ١٩١٦ أعدم واحد وعشرون آخرون حتى إذا علم الشريف حسين أن جيشاً تركياً متألفاً من ٣٥٠٠ جندي على وشك أن يخترق شبه الجزيرة العربية لتهدئة الحال في اليمن عندها أوجس الشريف حسين خيفة من قدوم الحملة ونادى بالثورة على الأتراك في يونية ١٩١٦[3]. من هذا يتضح لنا أن الشريف حسين وقف الموقف نفسه الذي وقفه وطنيو الجمعيات العربية وبقي يماطل في اعلان الثورة على الرغم من اتفاقه مع الانجليز على قيامها وهذا يدل على شخصية الشريف حسين وحنكته فقد كان رجلاً عنيداً أوتي كثيراً من الحنكة والدراية السياسية وقد أمسك العصا من الوسط مدة طويلة على الرغم من توالي الأحداث متيحاً لنفسه الاستفادة من الطرفين الحلفاء والمحور ولعله انضم إلى الحلفاء تعبيراً عن المشاعر السياسية العربية التي كانت أمام موقفين :

الأول : أن يغتنموا فرصة دخول تركية الحرب فيساندوها ويطالبوها باستقلالهم بعد الحرب ثمناً .

الثاني : أن ينضموا إلى الحلفاء للحصول على الاستقلال إذا كسب الحلفاء الحرب[4].

وقد تحقق الموقف الثاني نتيجة لمواقف الأتراك السابقة في اتجاه القضايا العربية وكان

---

(١) راجع كتاب الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ص١٢٤-١٢٧ وكتاب حياة الشرق لمحمد لطفي جمعة ص٢٢٩-٢٣٠ .

(٢) تركيا الحديثة ص١٤ .

(٣) التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة ص١١٧ .

(٤) المصدر السابق ص١٠٤-١٠٥ .

خاتمة هذه المواقف اعلان السياسة الطورانية من قبل الاتحاد والترقي لذلك كان وقوف الشريف حسين إلى جانب الحلفاء تجسيداً للسياسة العربية العصرية على أسس ثقافية واجتماعية أسهمت في تكوينها جهود الحلفاء عن طريق سفاراتهم وبعثاتهم التبشيرية في المنطقة[1] كما أن القيادة العربية كانت تتطلع إلى حياة أفضل بمساعدة الحلفاء لهم في مختلف المجالات متى كسبوا الحرب .

كل هذا لم يمنع وجود تيار عربي مضاد لثورة الشريف حسين حدد موقفه نتيجة لشعوره الإسلامي اتجاه دولة الخلافة .

فهذا مصطفى كامل يقول « ... ولذلك رأت انجلترا أن بقاء السلطنة العثمانية يكون عقبة أبدية في طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر وأن خير وسيلة تضمن لهم البقاء في مصر ووضع يدهم على وادي النيل هي هدم السلطنة العثمانية ونقل الخلافة العثمانية إلى أيدي رجل يكون تحت وصاية الانجليز وبمثابة آلة في أيديهم . ولذلك أخرج ساسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية مؤمنين به استمالة العرب لهم حتى يقوموا بالعصيان في وجه الدولة العلية[2].

ويقول شوقي من قصيدة ضجيج الحجيج التي رفعها إلى السلطان عبد الحميد في ١٤ ابريل ١٩٠٤ شاكياً فيها اضطراب الأمن في ربوع الحجاز بسبب تمرد شريف مكة :

ضج الحجيج وضج البيت والحرم ... واستصرخت ربها في مكة الأمم
قد مسها في حماك الضر فاقض لها ... خليفة الله أنت السيد الحكم
لك الربوع التي ريع الحجيج بها ... أللشريف عليها أم لك العلم
أدبه أدب أمير المؤمنين فما ... في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقاراً للرسول فما ... بين البغاة وبين المصطفى رحم
في كل يوم قتال تقشعر له ... وفتنة في ربوع الله تضطرم
من الشريف ومن أعوانه فعلت ... نعمى الزيادة ما لا تفعل النقم
عز السبيل إلى طه وتربته ... فمن أراد سبيلاً فالطريق دم

إلى أن يقول :

---

(١) راجع فلسفة التاريخ العثماني جـ٢ ص٧٦ .

(٢) المسألة الشرقية مصطفى كامل ص١٩ .

رب الجـزيرة أدركهـا فقـد عبثت ... بهـا الـذئـاب وضـل الراعي الغنم
أزرى الشريف وأحـزاب الشريف بهـا ... وقسمـوه كإرث الميت واقتسمـوا
فجرد السيف في وقت يفيـد بـه ... فـإن للسيف يـومـاً ثم ينصرم[1]

هنا ولا يعقل أن يكون الشريف حسين راضياً عن قطع الطريق على الحجاج وإنما هو ضعف سلطة الشريف على أطراف الحجاز بالإضافة إلى مبالغات الشعراء .

ويقول حافظ إبراهيم يهنىء السلطان عبد الحميد في عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يشير إلى ما يضمره شريف مكة من عصيان :

مني على دار السـلام تحيـة ... وعلى الخليفـة من بني عثمان
وعلى الأولى سكتـوا إلى الحسنى سـوى ... ذاك الـذي يـدعـو إلى العصيـان
مـا للشريف المنتمي حسبـاً إلى ... خير البريـة من بني عـدنـان
أمسى يحـالفـه وينصر غيـه ... وضـلالـه بحثـالـة العربـان
والله لـو جنـدتمـا رمـل النقـا ... ونـزلتما بمـواطن العقيـان
وغرستما أرض الحجـاز أسنـة ... وأسلتمـا بحراً من النيران
وأقمتمـا فيهـا المعـاقـل منعـة ... من أرض نجـد إلى خليـج عمـان
لـدهـاكما ورمـاكما وذراكما ... مـاحي الحصـون ومـاسح البلـدان
أن تـأتيـا طـوعـاً وإلا فـأتيـا ... كرهـاً بـلا حـول ولا سلطـان[2]

ويقول محرم في قصيدة له في حرب طرابلس سنة ١٩١٢ :

ألا أن من شـق العصـا لمـذمم ... وإن الـذي يبغي الفسـاد لآثم
ومن كان يـأبى أن يـوالي إمـامـه ... طـواعيـة والاه والأنف راغم
سيعلم من خـان الخليفـة أنـه ... مـواقـع أمر سره متفـاقم
أطـاع هـواه واستزلتـه فتنـة ... عضـوض تلـوى في لهـاهـا الأراقم
لـه الـويـل مـاذا هـاج من نـزواتـه ... فثـار يرامي ربـه ويراجم
تبـاركت ربي كيف يعصيـك مسلم ... فيـوقـع بـالإسـلام مـا أنت عـالم

---

(١) الشوقيات جـ١ ص٢٦٢-٢٦٦ .

(٢) الديوان جـ١ ص٤٩ .

تبـــــــــــــاركت إن المسلمين كما ترى تفــــاريــق منهـــــا مستطير ورازم[1]

ويقول الكاشف من قصيدة قالها في عيد الدستور العثماني :

مــــا أختص أحمـــد في الخــلافــة أمــة علمـــاً يـــأن الـــدائرات تـــــدور
أولى بهـــا من صـــانهـــا من بعـــد مـــا عبثت مقـــــادير بهــــــا وعصـــور[2]

ويقول من قصيدة أخرى يهنيء الخديوي إثر عودته من الديار الحجازية حاجاً سنة ١٩١٠ :

يـــــا نــــاصر الإســلام كيف مكانـــــه من عرب تلـــك البيـــد وهـــو العـــادل
أينــــازعــون على الخــلافـــــة قــــادة لـــولا هم غــــال الخــلافـــة غــــائـــل
الله قـــــــــدرهــــــــا لهم وأعـــــــزهم مـــَــا دام فيهم قـــــانت ومقـــــاتـــل
فليسكن العرب الكرام إليهم وليرِ بـــــأن بنفســـــــه المتطــــــاول
هــل يفتـــديهــا والخطـــوب جــلائــل من لم يصنهـــــا والخطـــوب قــلائــل[3]

ولعل في هجيات كرومر الدائمة على المسلمين في بعض تقاريره وفي كتابيه الذين ظهرا بعد مغادرته مصر «مصر الحديثة» و«عباس الثاني» وتصويرهم في صورة الهمج المتخلفين ومهاجمة الإسلام وتصويره ديناً رجعياً لا يصلح لأن يقوم على أساسه نظام اجتماعي راق[4] كل هذا قد مكن كراهية الانجليز في قلوب المسلمين خصوصاً في مصر التي اكتوى شعبها بالاحتلال الانجليزي ، ولذلك لم تجد ثورة الشريف حسين تأييداً لها في مصر كما وجدته في بلاد الشام وربما كان ذلك لأن مصر لم تكن تحت الحكم العثماني مباشرة بل خرجت منه منذ زمن بعيد أو لأن المصريين بقوا على فطرتهم وإيمانهم حيث لم تنشط بينهم المدارس التبشيرية ومؤثرات الحضارة الغربية ليستيفوا الوقوف ضد الدولة العثمانية في جانب دولة أجنبية بالإضافة إلى المشانق التي نصبت لوجهاء البلاد في الشام على يد الوالي العثماني أحمد جمال باشا مما أوغر الصدور وجعلهم أحوج الناس ليمدوا أيديهم لكل من ينقذهم . كما أن هناك علماء الدين من المسلمين الذين لا يهتاجون إلا لما يمس

(١) الديوان جـ٢ ص٣٧ مستطير من الطيران رازم : البعير يعجز عن النهوض من الأعياء والضعف مستطير ورازم : كناية عن تفريق الكلمة وتشتيت الرأي .
(٢) الديوان جـ٢ ص٢٨ .
(٣) الديوان جـ٢ ص٦١ .
(٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر جـ١ ص٦١ .

دينهم ولا يرون من يستطيع أن ينهض بعبء الذود عن الإسلام غير تركية لأنها أقواها وأقدرها على مواجهة مطامع الدول المسيحية بالإضافة إلى ورود الأحاديث العديدة التي تنهى بل وتزجر عن الخروج على السلطان . علماً بأن نوايا الاتحاديين الخفية ضد الخلافة الإسلامية في تركية لم تكن قد ظهرت بعد فما كاد الاتحاديون ينجحون بثورتهم عام ١٩٠٩ ويظهروا مقدمات نواياهم حتى واجهتهم الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ مما اضطرهم إلى اعلان الجامعة الإسلامية من جديد والدعوة إلى الجهاد الديني وتقريب العرب بل والتودد إليهم كما ذكرنا .

ومن هؤلاء العلماء الشيخ يوسف النبهاني والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا والأمير شكيب أرسلان الذي يقول « لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية سوى اعتقادنا أن هذه البلاد العربية سوف تصبح نهباً مقسماً بين انجلترة وفرنسة وتكون فلسطين وطناً قومياً لليهود »[1]. وهناك عامة الناس الذين لا يرضون لهم راعياً غيرالخليفة إمام المسلمين كانوا لا يعرفون ما الوطن وما الوطنية فهذا والدي الذي جاوز الخامسة والثمانين من عمره ما سمعته مردداً في دعائه إلا « اللهم انصر الإسلام » أو « اللهم انصر المسلمين » وما سمعته قط يدعو « اللهم انصر العرب » أو « اللهم انصر العروبة » .

وقد ذكر الأستاذ رشيد رضا من محاسن الخديوي « أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى في عرف العصر بالوطنية »[2].

ويذكر الأستاذ محمد الفرحاني ما دار من حديث له مع المغفور له رمضان باشا الشلاش الذي كان من أوائل الملتحقين بالثورة العربية يقول الأستاذ الفرحاني سائلاً رمضان باشا : « وماذا تقول في الشهداء الذين أعدمهم الطاغية السفاح جمال باشا؟» فأجابني رمضان باشا بكل رضاء وهدوء « جمال باشا يا ولدي ليس طاغية ولا سفاحاً والشهداء ليسوا شهداء بل خونة مجرمين لقوا جزاءهم العادل ولو كنت مكان جمال باشا لما كنت فعلت غير ما فعل ... بل ما كان جمال باشا ليستطيع أن يوجه إليهم من الأذى قيد أنملة وفيهم النواب وفيهم الوجوه البارزة في المجتمع لو لم يجد في الوثائق التي وقعت في

---

(١) الحروب الصليبية الأوروبية التاسعة ص١٣٥ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص٥٩٢ راجع أيضاً كتاب عبد العزيز جاويش الأستاذ أنور الجندي ص١٥ حيث يوضح أوليات «الوطنية» و«القومية العربية» .

يديه ما يدينهم » وهتفت وشريف مكة يا باشا فقال « لقد أغري بالذهب ... نعم ... أغري بالذهب الكثير ولا حول ولا قوة إلا بالله »[1].

ويقول الأستاذ الفرحاني أيضاً « وجلست يوماً إلى الرئيس السوري الجليل السيد الحكيم فقلت له :« هل هناك من وعود وعهود مكتوبة غير الرسائل المتبادلة بين شريف مكة ومكماهون فأجابني بالنفي ثم قال « الواقع لقد وّجدْنا أطفالاً في السياسة » ويضيف الأستاذ الفرحاني فيقول ومثل هذا الكلام نسب إلى النجل الأكبر لصاحب رصاصة مكة حيث قال « لم نكن سوى بداة بسطاء لم يسبق لنا قبل الثورة أن دخلنا في الحياة الدولية أو عاملنا الأجانب أو اتصلنا بهم من قريب أو بعيد ولقد جاءنا الانجليز إلى الحجاز ولم نذهبْ إليهم ، جاءونا بورقة بيضاء في ذيلها ختم الامبراطورية وقالوا لنا هذه ورقة فاكتبوا فيها ما تشاؤون ونحن مستعدون للتنفيذ والتلبية فصدقناهم وقاتلنا إلى جانبهم ولكنهم ما لبثوا أن خانونا وغدروا بنا »[2].

ولكني أعود لأؤكد ما قلته في السابق من أن شريف مكة بقي ينتظر وذلك بالإضافة إلى ما كان قد أعلنه الاتحاديون من عداء العرب والإسلام وسلب الخليفة كل سلطانه حتى الختم ولم يكن الشريف حسين يقصد ابدال «الطغيان العثماني» بطغيان فرنسي أو بريطاني» ولم يكن انتصار الحلفاء بسبب مساعدة الشريف حسين لهم فقد ارتدت جيوش جمال باشا مع الألمان مرتين عن قناة السويس قبل أن يعلن الشريف ثورته والحقيقة كما أعلنها النجل الأكبر للشريف أنهم كانوا على الفطرة صادقين ليس لهم ممارسة بالسياسة الدولية وألاعيبها وموقف شريف مكة من الحرب يشبه موقف تركية من الحرب أيضاً . يقول الأستاذ دروزة « إن عدم دخول الدولة العثمانية الحرب كان الأفضل ولكنه ليس ممكناً لأنه لا بد أن تكون الدولة الحيادية مسلحة وأن تسد المضايق وهذا وذاك ليس في مقدورها »[3]. كذلك نقول إن مساعدة الشريف حسين للحلفاء لم تكن هي الفيصل في الحرب وقد كان من الطبيعي أن ينضم للحلفاء للحصول على الاستقلال من الحكم التركي كما وعدت بريطانية في تجربتها الأولى مع الشريف حسين . والحقيقة أننا لا نستطيع أن نحكم على الأحداث بعد وقوعها فقد كان الرأي العام ضد

---

(١) الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ص١٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص١٣٦-١٣٧ .

(٣) تركيا الحديثة محمد عزت دروزة ص٢٥ .

تركية ولو انضم الشريف حسين إلى تركية ثم خسرت الحرب لكان اللوم عليه لأن الحلفاء كانوا يتظاهرون بالحرص على مساعدة العرب نحو الأخذ بأسباب المدنية الحديثة عن طريق بعثاتهم التعليمية والتبشيرية وإبراز كيانهم القومي المستقل مما حدا بالبعض أن يستدعي فرنسة لحكم سورية كما قدمنا أما القلة المتبصرة فقد كان لسان حالهم يقول :

مخطىء من ظن يـــــومـــــــاً   أن للثعلب ديـنـــــــــــا

وأخيراً استسلمت تركية ووقعت معاهدة الصلح في ٢٩ تشرين الأول ١٩١٨[١] وبذلك خرجت سورية والعراق من الحكم العثماني لتدخل في حكم جديد فقد أصبحت فلسطين والأردن والعراق تحت الاستعمار البريطاني[٢] وسورية ولبنان تحت الاستعمار الفرنسي . وكانت حال العرب الذين وقفوا مع الحلفاء لمساعدتهم على التخلص من الحكم العثماني كما قال الشاعر :

والمستجير بعمر عنـــــد كربتـــــه   كالمستجير من الرمضـــاء بـــالنـــار

ضيـــاع فلســطين :

الحقيقة أنه كان هناك عقبتان أمام إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين العقبة الأولى وجود السلطان عبد الحميد ولذلك عملوا على إسقاطه ونجحوا عن طريق تغلغلهم في جمعية الاتحاد والترقي بعد أن أعيتهم كل السبل للتحايل على السلطان عبد الحميد حتى ضاق بهم ذرعاً ونفذ صبره وقال للوسطاء (على رواية هرتزل في مذكراته) « انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه فليحتفظ اليهود بملايينهم . إذا مزقت امبراطوريتي فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ، ولكن يجب أن يبدؤوا ذلك التمزيق أولاً في جثثنا فإني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة »[٣].

أما العقبة الثانية فهي وجود روسيا القيصرية فقد كانت الحكومة الروسية في العهد

---

(١) المرجع السابق ص١١ .

(٢) راجع أثر اليهود في صياغة صك الانتداب البريطاني على فلسطين وهو من وضع المستر فيلكس فارنكفورتر الصهيوني الأمريكي قضية فلسطين العربية ص٢٠ .

(٣) الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية فسطنطين خمار ص٢٨-٢٩ .

القيصري شديدة التمسك بالتقاليد المسيحية الأرثوذكسية وكان الكثيرون من الروس يرنون إلى الأماكن المقدسة في فلسطين بعيني الإيمان العميق والخشوع الشديد ومنهم من كان يحج إليها سيراً على الأقدام وهذا ما جعلهم يؤمنون بأن تحويل فلسطين إلى دولة يهودية يدنس الأراضي المقدسة ولذا كانت الحكومة القيصرية تقاوم أي مشروع يرمي إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين ولا ريب أن هذه المقاومة كانت عاملاً في تأخير صدور تصريح بلفور إلى ما بعد انهيار الحكم القيصري مباشرة ولهذا يقول المؤرخ البريطاني «أرنولد توني» في كتابه (دراسة التاريخ) ما معناه « إن انهيار حكم آل رومانوف الامبراطوري الروسي قد أزال بالفعل حماية أخرى عن العرب الفلسطينيين »[1]. لذلك أسهم اليهود في إسقاط أسرة رومانوف القيصرية وقيام الثورة الشيوعية في روسيا في ٢٤ أكتوبر ١٩١٧ . يقول الجنرال جواد رفعت أتلخان نقلاً عن كتاب المؤامرة اليهودية « إن المحفل الأمريكاني الماسوني الذي يدير الماسونية الكونية وكل أعضائها من أعاظم زعماء اليهود عقد مؤتمراً قرر فيه خمسة من اليهود أصحاب الملايين خراب روسية القيصرية والذين تبرعوا بالمال هم إسحق موتير ، مشستر ، وليفي ، وروق ، وشيف وكان المال مرصوداً للدعاية وإثارة الصحافة العالمية على أثر المذابح الدائرة ضد اليهود حوالي نهاية القرن التاسع عشر[2] ونتيجة للجهود المكثفة التي بذلها زعماء اليهود وأنصارهم أمثال هرتزل ، وايزمان ، لويد جورج ، بلفير ، هربرت صموئيل ، سكوت مارك سايكس ، موسى جاستر ، جيمس مالكولم ، برانديز وغيرهم استطاع اليهود أن يحصلوا على وعد من الحكومة البريطانية للعمل على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود وهو ما عرف بـ«وعد بلفور» الذي وجهه إلى اللورد ولتر روتشيلد في ٦ تشرين الثاني ١٩١٧ هذا نصه :

« عزيزي اللورد روتشيلد : يسرني أن أنقل إليك بالنيابة عن حكومة جلالته التصريح التالي متضمناً العطف على الأماني الصهيونية اليهودية وكان هذا التصريح قد رفع إلى المجلس الوزاري فوافق عليه « إن حكومة جلالته تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسوف تبذل أقصى جهودها لتسهيل بلوغ هذه الغاية وعلى أن يكون مفهوماً بصورة واضحة أنه لا يجوز القيام بأي عمل من شأنه أن يكون مجحفاً بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين . ولا بالحقوق

---

(١) الوجيز في تاريخ القضية الفلسطينية ص٢٩ .

(٢) كتاب أسرار الماسونية ص٥٧-٥٨ طبع دار المختار الإسلامي القاهرة .

والأوضاع السياسية التي يتمتع بها اليهودي في أي قطر آخر وسأكون شاكراً إذا أنبأتم الاتحاد الصهيوني بهذا التصريح » . أما عن دوافع بريطانيا من جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود فمنها الظاهر والمباشر مثل مكافأة الدكتور وايزمن على اختراعه مادة الأسيتون لانتاج مادة ت.ن.ت والذي رفض المكافأة الشخصية بالإضافة إلى الجهود المكثفة التي بذلها زعماء الصهيونية والمحافل الماسونية . أما عن الدافع الحقيقي الذي دفع لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا للموافقة على صدور وعد بلفور فيما أشار إليه الأستاذ أنيس الصايغ إذ يقول « ولكن الواقع أن رئيس الحكومة البريطانية لم يكن يهتم باليهود كثيراً ولم يكن يحبهم يعترف مؤرخ في حياته وصديق سكوت بأن لويد جورج لم يأمر بإصدار الوعد إلا ليحصل على فلسطين البريطانية وقد أثبتت الأحداث العسكرية التي سبقت الوعد أن مركز بريطانيا الحربي كان قد أخذ يتحسن فكانت القوات الحليفة قد أنقذت السويس ودخلت فلسطين وانضمت الولايات المتحدة إلى الحلفاء وبدأت القوات الالمانية والتركية تتراجع في بعض الجهات »[1] وكما جاء في رسالة وايزمن إلى صحفي يناصر الصهيونية « إن إقامة دولة يهودية قوية إلى جانب مصر يصنع حاجزاً ضد أي خطر يستهدف مصر من الشمال »[2] وكانت الخطوة العملية لتحقيق وعد بلفور هي وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية وانتزاعها من الوطن الأم سوريا وقد وضعت فلسطين تحت الحكم العسكري البريطاني خلال عام ١٩١٩-١٩٢٠ وكانت وزارة الحربية البريطانية تصدر تعليماتها إلى قوادها العسكريين مؤكدة لهم أن الحكومة البريطانية متمسكة بتصريح بلفور ومن واجبهم تقديم المساعدة الفعالة للصهيونية وكثيراً ما كانت تستبدلهم بآخرين من ذوي الميول الأكثر تأييداً للحركة الصهيونية . يقول الأستاذ قسطنطين خمار : « بعد كل هذا تأكد عرب فلسطين أن مخاوفهم من تصريح بلفور أصبحت حقيقة واقعة فهبوا يعقدون المؤتمرات الوطنية والاجتماعات السياسية ويؤلفون الجمعيات القومية للإعراب عن استنكارهم للحركة الصهيونية وعزمهم على مناهضتها »[3] فقد ابتدأت المظاهرات العنيفة والاضرابات الشاملة ونشبت الاصطدامات الدامية في غزة والقدس وطبرية خلال ١٩١٩ وكانت الثورة اللاّهبة صباح ٤ نيسان ابريل ١٩٢٠ في مدينة القدس حيث اصطدم فيها العرب مع اليهود والشرطة وقامت (لجنة بالن) بالتحقيق وأدانت اليهود في تقريرها الذي

---

(١) الهاشميون والقضية الفلسطينية أنيس الصايغ ص٢٧ .
(٢) المرجع السابق ص٢٩ .
(٣) الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية ص٥٧ .

لم ينشر ثم استبدل الحكم العسكري لفلسطين بالحكم المدني في تموز ١٩٢٠ تلبية لرغبة اليهود وعين اليهودي الصهيوني السير هربرت صموئيل مندوباً سامياً لفلسطين وحاكماً مطلقاً لجميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وكان وايزمن يدعوه دائماً «صموئيلنا» فلأ الوظائف الكبرى باليهود حتى بلغ عدد الموظفين اليهود أربعة أمثال الموظفين العرب وقام بتسهيل الهجرة حتى وصلت إلى ٣٠ ألف يهودي في العام ولهذا يمكن حسبانه بسهولة «الباني الحقيقي والمؤسس الفعلي للدولة اليهودية» وتخوف العرب من النفوذ اليهودي وكانت ثورة ١٩٢١ في صبيحة أول مايو حيث أخذ شبان اليهود وشاباتهم يسيرون في الشوارع وهم ينشدون الأناشيد الطائفية فاصطدم فريق من الشبان العرب بهم وبالقوات البريطانية وراح فريق آخر يهجم على بلدة تل أبيب ثم هجموا على المستعمرات اليهودية الواقعة بين يافا وطولكرم وامتدت الثورة إلى سائر المدن الفلسطينية واستشهد فيها من العرب ٣٨ شهيداً وجريحاً وبلغ عدد قتلى اليهود ٤٧ وجرحاهم ١٤٦ وقد استخدمت السلطات البريطانية الحاكمة أبشع وسائل الانتقام من فرض الغرامات وإتلاف المؤن وحرق المزارع وانتصر وزير المستعمرات ونستن تشرشل للصهيونيين وسمى ثورة عرب فلسطين هذه الاضطرابات القذرة ثم شكلت لجنة تحقيق برياسة قاضي القضاة «توماس هيكرافت» واكتشفت المجرم الحقيقي «الصهاينة» ولكن بدلاً من الحكم عليهم طلبت منهم الاعتدال والرأفة وجعلت توصي العرب واليهود أن يتفقوا .

وفي ٢٢ حزيران عام ١٩٢٢ أصدرت الحكومة البريطانية كتاباً سماه العرب الكتاب الأسود وقد اشتمل على دستور وسياسة عامة لفلسطين على أساس تصريح بلفور والانتداب مؤكداً أنها لا يقبلان التغيير وقد رفضه العرب رفضاً باتاً مع أنه ينص على أن يكون لهم في المجلس التشريعي ١٠ أعضاء من بين ٢٣ عضواً مع إنهم يؤلفون ٩١٪ من سكان فلسطين آنئذ . وقد رحبت الجمعية الصهيونية بالكتاب الأبيض وتعهدت بتسيير أعمالها وفقاً للسياسة المبسوطة فيه وقد اعترف وايزمن في مذكراته أن الحكومة البريطانية عرضته على الجمعية الصهيونية قبل إصداره للاطلاع عليه وإبداء وجهات النظر التي يراها اليهود بشأنه . وقد عقد العاملين في حقل الحركة الوطنية بين عامي ١٩١٩-١٩٢٢ خمسة مؤتمرات كانوا في كل منها يؤكدون تمسكهم بالوحدة السورية ورفضهم لتصريح بلفور والمطالبة بحكومة وطنية في فلسطين وهي :

المؤتمر الأول : في مدينة القدس - رفض تصريح بلفور والهجرة اليهودية

والانتداب البريطاني وطالب بالوحدة وبتسمية فلسطين (سورية الجنوبية) .

المؤتمر الثاني : دعت إليه «الجمعيات الإسلامية المسيحية» ولكنه منع بأمر السلطة البريطانية فلم يعقد .

المؤتمر الثالث : في حيفة أكد مطالب المؤتمر الأول مع المطالبة بقيام حكومة وطنية مستقلة .

المؤتمر الرابع : أكد فيه المطالب السابقة وأرسل وفداً إلى لندن فأكد تشرشل وزير المستعمرات للوفد أن الحكومة البريطانية مصممة على الوفاء بعهودها للشعب اليهودي .

المؤتمر الخامس : في نابلس قرروا بإجماع الآراء رفض الكتاب الأبيض وعدم التعاون مع حكومة الانتداب على أساسه .

ثم دعت حكومة الانتداب في فبراير سنة ١٩٢٣ لإجراء انتخابات للمجلس التشريعي فقاطعها الشعب الفلسطيني مقاطعة إجمالية . ووقعت اضطرابات في يافة ١٩٢٤ لتهكم اليهود على الشعائر العربية أثناء احتفالهم بعيد «المساخره» وفي عام ١٩٢٥ زار اللورد بلفور القدس لافتتاح الجامعة العبرية فأضربت البلاد اضراباً شاملاً . ولما سافر بلفور إلى دمشق تظاهرت في وجهه بشدة فخرج إلى ميناء بيروت حيث ركب الباخرة رأساً إلى انجلترة حتى جاء عام ١٩٢٩ وقامت دائرة الأوقاف الإسلامية باصلاحات حول حائط البراق في حزيران ١٩٢٩ فثارت ثائرة اليهود وأخذت صحفهم تنشر مقالات مهيجة تدعو فيها إلى أعمال العنف والثورة وقاموا بحملة دعائية في الصحف العالمية على أوسع نطاق يتهمون فيها العرب بالاعتداء على مقدساتهم وفي ٤ آب أغسطس سارت مسيرة من ستة آلاف يهودي في تل أبيب تصيح «الحائط حائطنا» وفي ١٥ آب أغسطس سارت حشود اليهود مخترقة الأحياء العربية نحو البراق وهناك قاموا برفع العلم اليهودي وإنشاد نشيدهم الطائفي صاخبين هاتفين «الحائط حائطنا» وقد كانت هذه المسيرة هي السبب المباشر للاضطرابات كما أقرت (لجنة شو) فيما بعد .

وقد واصل اليهود مسيراتهم الاستفزازية مقترفين الأعمال العدوانية مما أثار الشعور العربي الفلسطيني إلى أقصى الحدود وكان اليوم التالي ١٦ آب ١٩٢٩ عيد المولد النبوي الشريف فخرج المصلون من الحرم الشريف في صلاة نحو البراق حيث قلبوا منضدة

للشماسي اليهودي ، ودفعوا به جانباً وأحرقوا بعض الكتب والاسترحامات[1] وفي الأيام التالية هجموا على اليهود في القدس وضواحيها وقامت المسيرات في معظم المدن الفلسطينية ووزعت الحكومة السلاح والعصي على المدنيين اليهود ثم هجم عرب الخليل على الحي اليهودي فقتلوا ٦٠ شخصاً وقام أهل نابلس بالهجوم على مخفر الشرطة بغية الاستيلاء على السلاح وهجم أهل بيسان على بعض المستعمرات اليهودية وهجم العرب على يهود صفد فقتل منهم ٤٥ شخصاً وقام اليهود بقتل إمام جامع في ضواحي يافة مع أفراد عائلته الستة ومثلوا بجثثهم تمثيلاً فظيعاً كما قاموا بتدنيس قبور الصحابة فاستقدمت بريطانية بعض قواتها من قناة السويس ومالطة وقبرص واستعملت أشد الأساليب وأعنفها للقضاء على الثورة . وفي آخر آب (أغسطس) كانت حصيلة الاضطرابات ١٣٣ قتيلاً و٣٣٩ جريحاً من اليهود ومن العرب ١١٦ شهيداً و٢٣٢ جريحاً . وأخيراً صدرت الأحكام من قبل الحاكم البريطانية على الوجه الآتي :

١ - حكم على عشرين عربياً بالإعدام وتم تنفيذ الحكم في ثلاثة منهم ، وحُوّل الحكم على السبعة عشر الباقين إلى السجن المؤبد .
٢ - حكم على ٨٠٠ عربي بالسجن لعدة سنوات .
٣ - حكم على يهودي واحد بالاعدام (قاتل إمام الجامع وعائلته وهو شرطي نظامي ثم خفض الحكم عليه إلى عشر سنوات قضى بعضها في السجن ثم أُطلق سراحه) .
٤ - فرضت الحكومة غرامات باهظة على بعض المدن العربية وقامت بتحصيلها بشتى الوسائل .

وفي النهاية قرر العرب مقاطعة اليهود على أن السلطات الحكومية أخذت في التشدد في معاقبة كل من يشرف على تنفيذ هذه المقاطعة أو يحرض عليها . وألفت الحكومة المنتدبة لجنة (شو) كعادتها وكتبت توصيات لصالح العرب ولم تنفذ بريطانية منها أي شيء كما قضت لجنة ثلاثية وافقت عليها عصبة الأمم بملكية المسلمين لحائط البراق وملكية الرصيف الذي أمامه ثم ألفت الحكومة البريطانية ثلاثة لجان هي لجنة سمبسون - لجنة فرنش - لجنة كروسبين فجاءت تقاريرها كلها مؤيدة للحق العربي .

فأصدرت الحكومة البريطانية بياناً عن خطتها السياسية عرف بـ(الكتاب الأبيض)

---

(١) الاسترحامات هي أوراق دعوات كان اليهود يلفونها ويدسونها في ثقوب جدران حائط المبكى .

سنة ١٩٣٠ فثارت ثائرة اليهود لأنه لم يتضمن تحيزاً ظاهراً لهم فسخروا الصحافة العالمية خصوصاً الانجليزية والأمريكية للهجوم على الكتاب الأبيض واستقال الدكتور حاييم وايزمن من رياسة الوكالة اليهودية فاضطرت الحكومة البريطانية إلى التراجع فأصدر رئيس وزرائها مكدونالد في ١٧ شباط ١٩٣١ رسالة إلى الدكتور وايزمن فيها تراجع بل نسخٌ للكتاب الأبيض وقد أطلق عليه اسم (الكتاب الأسود) لأنه وثيقة شؤم وخزي وعار في تاريخ السياسة البريطانية .

وقد كان عام ١٩٣٣–١٩٣٦ سلسلة متتابعة من الاضطرابات والمظاهرات حتى كان اضراب عام ١٩٣٦ الذي استمر ١٨٣ يوماً ابتداء من ١٩ نيسان ١٩٣٦ وأخيراً أنهي الاضراب بواسطة الساسة والحكام العرب . وأخيراً تم لليهود تحقيق أملهم في إنشاء وطنهم القومي في فلسطين وصدقت بريطانيا في وعدها لهم ونفذت المادة الثانية من صك انتدابها على فلسطين التي نصها « تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي[1].

وأخيراً استجابت الدول العربية لقرار مجلس الأمن ووقعت الهدنة الدائمة بين إسرائيل وكل من مصر وسوريا والأردن ولبنان وفي « آيار قُبِلَت إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة باعتراف معظم الدول ومعارضة الدول العربية الست وأفغانستان وباكستان والهند وإيران وسورية والحبشة وارتيرية . وبذلك نجحت الصهيونية وعملائها في إقامة دولة إسرائيل . وما كانت الصهيونية تنجح لولا اصرار وتصمم بريطانية الدولة المُنْتَدَبة الحاكمة على قيام هذه الدولة حتى إذا انتهت مدة انتدابها وأوشكت الجيوش العربية على تخليص فلسطين رأينا الدول الغربية مجتمعة تضغط على الساسة العرب لقبول الهدنة الأولى والثانية وأخيراً الهدنة الدائمة ورأينا دول المعسكر الاشتراكي تقدم الأسلحة والرجال لليهود كان هنا تآمراً مشتركاً لدول المعسكرين الشرقي والغربي على قيام دولة إسرائيل وقد أفصح الدكتور ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي في محاضرة له في مدينة مونتريال في كندا عام ١٩٤٧ قال « ولم يختر اليهود فلسطين لمعناها التوراتي والديني بالنسبة إليهم ولا لأن مياه البحر الميت تعطي بفعل التبخير ما قيمته ثلاثة آلاف مليار دولار من المعادن وأشباه المعادن وليس أيضاً لأن مخزون أرض فلسطين من البترول يعادل عشرين مرة مخزون

---

(١) راجع قضية فلسطين وضع الهيئة العربية العليا ص٣٠ راجع أيضاً حاضر فلسطين تأليف الياهو جراند ص٣٠–٣٤ .

الأمريكتين مجتمعتين . بل لأن فلسطين هي ملتقى طرق أوروبة وآسية وأفريقية ولأن فلسطين تشكل في الواقع نقطة الارتكاز الحقيقية لكل قوى العالم ولأنها المركز الاستراتيجي العسكري للسيطرة على العالم »[1] ﴿ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[2].

---

(1) تاريخ فلسطين القديم ظفر الإسلام خان ص٧ .

(2) سورة مريم آية ٣٥

« الخاتمـــــة »

مما سبق يتبين لنا أن فلسطين قد عاشت في ظروف اقتصادية وسياسية وثقافية أوصلتها إلى ما انتهت إليه من ضياع أرضها وتشتت شعبها ، إن القوى التي ساندت قيام إسرائيل أقوى بكثير من القوى التي دافعت عن فلسطين وأهم مظاهر هذه المفارقة أن القوى العربية لم تكن حرة في حركتها لذلك كانت تتحرك إلى الخلف في حقيقتها كما نلاحظ أن الأوضاع التي تعيشها أمتنا اليوم هي نفس الأوضاع التي عاشها الشعب الفلسطيني والتي أدت إلى فشله في بقائه في أرضه وهي نفسها ستوصل الأمة للفشل في الوصول إلى أي عمل إيجابي لأن المعادلات واحدة لم تتغير ومن يفكر – من واقع هذه المعادلات – في أوضاع أمتنا اليوم يستولي عليه القنوط واليأس في مقدرة هذه الأمة أن تعيد حقاً لأهله وستبقى فلسطين هي الميزان الذي تقاس به نهضة الأمة وتقدمها . أذكر عندما استولت إيران – زمن حكم الشاه – على الجزر العربية الثلاث في الخليج العربي عام ١٩٧١ طنب الصغرى وطنب الكبرى وأبي موسى ، كنت طالباً في معهد البحوث والدراسات العربية – في القاهرة – تابع لجامعة الدول العربية وكان الدكتور سيد نوفل السكرتير العام للجامعة العربية – وقتها – يدرسنا مادة العمل العربي المشترك وكان الطلاب متلهفين لسؤاله عما ستعمله الجامعة العربية لإعادة الجزر الثلاث المغتصبة قال الأستاذ الجليل بلغة الواقع « ما دامت فلسطين محتلة فلن يعمل أحد شيئاً » وهو يريد أن يقول ليست الجزر الثلاثة بأفضل من فلسطين أرض الأنبياء التي باركها الله فما دام العرب لم يعملوا شيئاً لإعادتها فلن يعملوا شيئاً لإعادة غيرها والحرب العراقية الإيرانية شاهد على ذلك واليوم في ١٤٠٦/١/١٧[1] نقلت الأخبار قيام إسرائيل بتدمير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في تونس ومعسكر للقوات الفلسطينية أيضاً واكتفى العرب بالإيعاز إلى مندوبيهم في هيئة الأمم المتحدة في نيويورك لتعبئة الرأي العام العالمي ضد إسرائيل وكأنه هناك رأي عام عالمي ، والعرب ما زالوا يذكرون عام ١٩٦٧ لما احتلت إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة – ما تبقى من فلسطين – أن مندوب إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة قال أمام اجماع الأعضاء على انسحاب إسرائيل وعودتها إلى حدودها :

---

(١) أثناء كتابة هذه السطور .

« لو أن جميع الأعضاء صوتوا ضد إسرائيل إلا صوتاً واحداً وهو صوت إسرائيل لما انسحبت إسرائيل » .

وهذا شاهد ثانٍ على صدق كلام الدكتور سيد نوفل والشواهد كثيرة في هذا المجال . ولكن ما الحل ؟ وكيف الخلاص ؟

وهنا ينفتح لنا القول في أن ما حدث لفلسطين لم يكن خارجاً عن القدرة الإلهية فهي ملك لله يهب ملكه لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء . ونحن عبيد الله فإذا لم يرض علينا فليس لنا منه أن يمتعنا بملكه ولو أعددنا كل ما استطعنا من قوة للاحتفاظ به ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ .

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بلغة العرب وجعل إعجازه بلغته وبذلك شرف العرب بهذا الاختيار كما حمّلهم مسؤولية تبليغه للناس كافة لأنهم أقدر الناس على فهمه والتأثر بإعجازه والإيمان به ولذلك قيل « أفصح العرب أكثرهم إيماناً »وشهد التاريخ على صحة ذلك لما ارتد العرب عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ قامت مكة والطائف - مع المدينة المنورة تقاتلان المرتدين مع قرب عهدهما بالإسلام ويجمع أهل اللغة أن قريشاً أفصح العرب ونلاحظ أن كبار الصحابة من قريش وعليه فإن العرب أصحاب رسالة سماوية ومسؤوليتهم الأساس هو تبليغها للعالم لأنهم أقرب الناس إليها وأكثرهم فهماً لها فإذا ابتعدوا عن مسؤوليتهم - هذه التي اختارهم لها وشرفهم بهذا الاختيار فليس لهم عند الله عهد فيما فضلهم به ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ويظهر أثر ذلك بأن يجعل الله بأسهم بينهم ويقذف الوهن في قلوبهم وتتداعى عليهم الأمم كما يتداعى الأكلة على القصعة ، وتفشل جهودهم في كل ما يسعون إليه إذ لو حسن حالهم وهم بعيدون عن الإسلام لما أصبح الإسلام معجزاً لأن مفهوم الاعجاز هو أن لا يصلح غيره مكانه في كل زمان ومكان . ولعل هذا المفهوم يكون تفسيراً لفشل البشرية اليوم في الوصول إلى ما تبغيه من سعادة مع توفر آلتها بما تملكه من وسائل الانتاج . ولا شك أن القارئ الكريم يلاحظ المفارقة الواضحة اليوم بين أمتنا والأمم الكبرى مما يجعله يستبعد نهوض هذه الأمة للدعوة إلى دينها ويجعله ضرباً من المستحيل ، ولنا أن نقول إنها قضية إيمانية أولاً وأخيراً وليست قضية إمكانيات فقد نهض الرسول ﷺ يدعو إلى الإسلام وقال (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر أو أهلك دونه) ... وأخيراً جاء عام الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً وجاءت وفود العرب من مختلف أنحاء

الجـزيرة العربيــة تبــايــع الرسـول ﷺ وخرج العرب من جـزيرتهم في قلــة من عـددهم وعُـددِهم يقـاتلـون الفرس والروم في وقت واحـد ولـو أن العرب فكروا بمفهوم المعادلات المادية بين قوتهم وقوة أعدائهم لأصابهم الوهن ولحسبوا أن فعلهم هـذا ضرباً من الجنون ولكنهم آمنوا وصَدّقوا في إيمانهم وباعوا أنفسهم لله فإن أقصى درجات الفشل هو الموت وهو ما يطلبونه مفتاحاً لملاقاة ربهم وهـذا درس تعلموه من حياتهم مع رسول الله فقد صَدّقوه في كل ما أخبر به من مغيبات ولم يرتـابوا لأنـه من لوازم الإيمان ففي غـزوة الخنـدق يحدثنـا ابن كثير ، أن رسول الله ﷺ خـط الخنـدق بين كل عشرة أربعين ذراعاً قال : اختصم المهاجرون والأنصار في سلمان فقال رسول ا ﷺ – سلمان منا أهل البيت قال عمر بن عوف فكنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً فحفرنا حتى إذا بلغنا المدى ظهرت لنا صخرة بيضاء مروة[1] فكسرت حديدنا وشقت علينا فذهب سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو في قبة تركية ، فأخبره عنها فجاء فأخذ المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها – يعني المدينة – حتى كأنها مصباح في جوف ليل مظلم فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون ثم ضربها الثانية فكذلك ثم الثالثة فكذلك . وذكر ذلك سلمان والمسلمون لرسول الله ﷺ وسألوه عن ذلك النور فقال : لقد أضاء لي من الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ومن الثانية أضاءت القصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ومن الثالثة أضاءت قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فابشروا واستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعود صادق . قال ولما طلعت الأحزاب[2] قال المؤمنون : هـذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً . وقال المنافقون : يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزلَ فيهم ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾[3].

وفي القرآن الكريم عِبَرٌ كثيرة من أخبار الأنبياء ومن أرسلوا وكلها تحكي عوامل النصر

---

(١) المروة : الأصمعي المرو حجارة بيض براقة تقد منها النار الواحدة مروة (الصحاح مادة مرا) .
(٢) يقصد جيوش الأحزاب .
(٣) سورة الأحزاب آية ١٢ البداية والنهاية جـ٤ ص٩٩–١٠٠ لقد ورد هذا الخبر في عدة روايات أخرى .

والخذلان وهي واحدة في كل زمان ومكان ، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون وكيف يسر الله له السير في البحر لموسى وقومه فضرب بعصاه البحر فانفلق ونجا موسى عليه السلام وقومه وغرق فرعون والعبرة في جعل الماء الذي نجا منه موسى عليه السلام هو نفسه قد هلك فيه فرعون .

يقول سبحانه وتعالى ﴿ وأنجينا موسى ومن معه ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[1] إن معجزات الله وقدراته لن تنته وما نخافه من عدونا من كثرة عَدده وعُدده قد يجعله الله نكالاً عليه وسبب هزيمته وقد تكفل الله سبحانه بنصر المؤمنين بل ألزم نفسه به بقوله تعالى ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾[2] ولن نكون مؤمنين حتى نُحَكِّم شرع الله بيننا يقول سبحانه ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾[3] وقد شرط سبحانه نصر الله للمؤمنين بنصرهم لله وذلك بطاعته سبحانه أولاً حتى تتمثل فيهم صفة العبودية لله لأن العبد ملتزم بأوامر سيده فإذا خرج عنها تحرر من هذه العبودية بمقدارها فهو إما أن يتلقى أوامره وقوانينه من نفسه فيكون عبداً لنفسه أو من مخلوقٍ غيره فيكون عبداً لهذا المخلوق . وقد نبه سبحانه المؤمنين إلى أن النصر لا يكون إلا من عنده ﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾[4] وقوله تعالى ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾[5] والآيات في هذا المعنى كثيرة وكلها تدور حول معنى واحد وهو أن النصر من عند الله فإذا نصر الكفار على المسلمين فهذا نكاية بالمسلمين وتذكير لهم ليعودوا إلى ربهم ، ولعل قضية فلسطين تكون منبهاً للقلوب الغُفل لتفهم سبب هزيمتها ونصرها وإني أرى أن هناك توافقاً بين البعد عن الله والهزيمة ولو حصل غيرها لكان استدراجاً منه سبحانه ليزداد ضلالنا فتزيد عقوبتنا : إن ارتفاع درجة حرارة المريض وألمه تعد ظاهرة صحية لأنها ينبهانه ليبحث عن العلاج قبل أن يستفحل المرض ولو سألنا أنفسنا أمام كل مصيبة تحل بأمتنا من أعدائنا هل نستحق النصر ونحن نجاهر بالمعاصي والموبقات ؟! على أية حال من يستعرض الأحداث المعاصرة اليوم يلاحظ أن الأمة الإسلامية بدأت تفيق وتحاسب نفسها .

ونسأل الله أن يرحمنا ويقبل توبتنا ورجاءنا إنه سميع مجيب .

---

(١) سورة الشعراء آية ٦٦ (٢) سورة الروم آية ٤٧ (٣) سورة النساء الآية ٦٥

(٤) سورة الأنفال آية ١٠ (٥) سورة آل عمران آية ١٦٠

« فهـــرس المراجـــع »

مسلسل　　　　اسم المـرجـع

١　القـــرآن الكـــريم .

٢　إبراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب ، زكي المحاسني ، مصر ١٩٥٦ .

٣　الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثالثة .

٤　أسرار الماسونية ، جواد رفعت أتلخان ، منشورات المختار الإسلامي ، القاهرة ١٩٧٥ .

٥　الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني محمد عمارة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة .

٦　افتراها الصهاينة وصدقها العرب ، فهد المبارك ، الطبعة واسم المطبعة ومكان الطبع وتاريخه غير موجود .

٧　أم القرى عبد الرحمن الكواكبي ، حلب ١٩٥٩م .

٨　أوليات سلاطين تركيا ، محمد جميل بيهم ، مطبعة العرفان ، صيدا ١٩٣١ .

٩　بلادنا فلسطين ، مصطفى مراد الدباغ ، دار العودة ، الطبعة الأولى ، بيروت .

١٠　بوشكين أمير شعراء روسيا ، نجاتي صدقي ، سلسلة اقرأ رقم ٢٨ ، القاهرة ١٩٤٥ .

١١　تاريخ الأستاذ الإمام السيد رشيد رضا ، دار المنار بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ .

١٢　تاريخ الجمعية الأرثوذكسية ، شكري خليل سويدان ، القدس ١٩١٠ .

١٣　تاريخ الدولة العلية ، محمد فريد ، مطبعة التقدم بمصر ، الطبعة الثالثة ١٩١٢م .

١٤　تاريخ العرب ، مطول فيليب حتي وجماعة ، مطابع غندور ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٦٥ .

١٥　تاريخ الصحافة العربية ، فيليب طرازي ، المطبعة الأدبية ١٩٢٦ ، بيروت .

١٦　تاريخ فلسطين ، خليل طوطح وعمر صالح البرغوثي ، مطبعة بيت المقدس ، القدس ١٩٢٣ .

١٧　تاريخ الناصرة ، أسعد منصور ، مصر ١٩٢٤ .

١٨ تركيا الحديثة ، محمد عزة دروزة ، مطبعة الكشاف ، بيروت ١٩٤٦ .
١٩ التعلم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني ، نبيل أيوب بدران ، سلسلة الدراسات الفلسطينية رقم ٦٣ .
٢٠ تقرير اللجنة التي عُينت لدرس حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين ، أصدرته حكومة فلسطين ، القدس .
٢١ تقرير سمبسون القدس ١٩٣٠ .
٢٢ التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة ، محمد رفعت ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .
٢٣ الثورات ، سلامة موسى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٥ .
٢٤ الثورة العربية الكبرى ، أمين سعيد ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .
٢٥ جغرافية فلسطين ، محمد سلامة النحال ، دار العلم للملايين ، بيروت .
٢٦ الجذور التاريخية للقومية العربية ، د. عبد العزيز الدوري ، سلسلة الدراسات القومية ، دار العلم للملايين ، بيروت .
٢٧ الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ، محمد الفرجاني ، بيروت ١٣٩٣هـ .
٢٨ حسر اللثام ، المؤلف مجهول ، القاهرة ١٨٩٥ .
٢٩ حقيقة الماسونية ، محمد علي الزعبي ، مؤسسة معتوق اخوان ، بيروت ١٩٧٤ .
٣٠ حولية الثقافةالعربية ، ساطع الحصري ، طبع لجنةالتأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ .
٣١ حول الحركة العربية الحديثة ، محمد عزة دروزة ، صيدا ١٩٥٠ .
٣٢ حياة الأدب الفلسطيني حتى النكبة ، عبد الرحمن ياغي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت .
٣٣ حياة الشرق دوله وشعوبه وماضيه وحاضره ، محمد لطفي ، جمعية دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٣٢ .
٣٤ ديوان شكيب أرسلان ، مطبعة المنار ، القاهرة ١٩٣٥ .
٣٥ ديوان مشاهد الحياة ، اسكندر الخوري ، القدس ١٩٢٧ .
٣٦ الشعر الحديث في مأساة فلسطين والأردن ، ناصر الدين الأسد ، طبع معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة .
٣٧ الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين ، محمد توفيق جانا ، دمشق ١٩٣٧م .
٣٨ الشوقيات ديوان أحمد شوقي ، مطبعة مصر ، القاهرة .

٣٩ الصراع بين الموالي والعرب ، د. محمد بديع شريف ١٩٤٥ .
٤٠ ضياء السالك إلى أوضح المسالك ، ابن هشام ، تحقيق محمد عبد العزيز النجار ، القاهرة ١٩٧١ .
٤١ طبائع الاستبداد ، عبد الرحمن الكواكبي ، حلب ١٩٥٦ .
٤٢ عبد العزيز جاويش ، أنور الجندي ، سلسلة أعلام العرب رقم ٤٤ ، القاهرة .
٤٣ العروة الوثقى ، جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، المكتبة الأهلية ، القاهرة ١٩٢٧ .
٤٤ فلسفة التاريخ العثماني ، محمد جميل بيهم ، مطبعة الفرقان ، صيدا ١٩٢٨ .
٤٥ فن التمثيل في خلال قرن ، يوسف أسعد داغر ، بيروت ١٩٤٩ .
٤٦ في الأدب الحديث ، عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
٤٧ القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، محمد عزة دروزة ، مطبعة الاتحاد ، دمشق .
٤٨ قضية فلسطين ، وضع ونشر الهيئة العربية العليا ، مطبعة السعادة ، القاهرة .
٤٩ القومية العربية ، مصطفى الشهابي ، القاهرة ١٩٥٩ .
٥٠ قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور ، محمد جميل بيهم ، شركة فرج الله للمطبوعات ، بيروت ١٩٤٠ .
٥١ كتاب مفتوح إلى اللجنة المالية الانجليزية ، محمد عزة دروزة ، مطبعة دار الأيتام الإسلامية في القدس .
٥٢ كتاب المؤتمر العربي الأول ، القاهرة ١٩١٣م .
٥٣ كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ، جمع سليم فارس الشديان ، مطبعة الجوائب ، الآستانة طبعة ١٢٩٥هـ .
٥٤ مستقبل التربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية ، عبد القادر يوسف ، القاهرة ١٩٦٢ .
٥٥ محب الدين الخطيب ، صلاح الدين القاسمي ، القاهرة ١٩٧٤ .
٥٦ المسألة الشرقية ، مصطفى كامل اللواء ، القاهرة ١٩٠٩ ، الطبعة الثانية .
٥٧ مجالي الغرر لكتاب القرن التاسع عشر ، يوسف صفير ، بعبدا ، لبنان .
٥٨ الماسونية في العراء ، محمد علي الزعبي ، مؤسسة معتوق اخوان ، بيروت ١٩٧٢ .
٥٩ مصطفى كمال ، جوبرت فون ، تعريب كامل مسيحة ، بيروت ١٩٣٣ .
٦٠ مذكرات أحمد الشقيري «حوار وأسرار» ، دار العودة ، الكويت .
٦١ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، مصطفى صبري

مطبعة عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ١٩٢٥ .

٦٢ من تاريخنا ، محمود العابدي ، المطبعة التعاونية ، عمّان ١٩٦٤ .

٦٣ محمد عبده ، عباس محمود العقاد ، سلسلة أعلام الإسلام ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

٦٤ مصطفى كامل ، عبد الرحمن الرافعي ، مطبعة الشرق ، القاهرة ١٩٣٩ .

٦٥ مذكرات أحمد عرابي ، كتاب الهلال ، فبراير مارس ١٩٥٣ ، القاهرة .

٦٦ النظام الاقتصادي في فلسطين ، سعيد حمادة ، الجامعة الأميريكية في بيروت ١٩٣٩ .

٦٧ الوحدة العربية ، محمد عزة دروزة ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ١٩٥٨ .

٦٨ وحي الشاطئ ، مصطفى درويش ، نابلس ١٩٥٩ .

٦٩ ولاية بيروت ، محمد رفيق ومحمد بهجت ، بيروت ١٣٣٥ .

فهـرس الدوريـات

١ – مجلة الأديب تصدر في بيروت .

٢ – صحيفة الأهرام ، أنشأها سليم وبشارة تقلا في القاهرة .

٣ – مجلة ثمرات الفنون ، أصدرها الشيخ عبد القادر القباني في بيروت عام ١٨٦٠م .

٤ – صحيفة الجوائب ، أنشأها أحمد فارس الشدياق في الآستانة عام ١٨٦٠ .

٥ – مجلة الزهرة ، أنشأها جميل البحري في حيفا .

٦ – مجلة الطريق ، أنشأها عمر فاخوري في بيروت .

٧ – مجلة الطليعة ، أنشأها رشوان عيسى في بيروت .

٨ – مجلة العربي ، أنشأتها حكومة الكويت في الكويت .

٩ – مجلة الفتح ، أنشأها الشيخ محب الدين الخطيب في القاهرة .

١٠ – مجلة الشرق ، أنشأها لويس شيخو في بيروت .

١١ – مجلة المقتطف ، أنشأها الدكتور يعقوب صروف وفارس نمر في بيروت ثم انتقلت إلى القاهرة .

١٢ – مجلة المنار ، أنشأها السيد رشيد رضا في القاهرة .

١٣ – مجلة النفائس العصرية ، أنشأها خليل بيدس في حيفا .

١٤ – مجلة النفير ، أنشأها إيليا زكا في القدس .

١٥ – هيئة الإذاعة البريطانية في لندن .

١٦ – مجلة الهلال ، أنشأها جورجي زيدان في القاهرة .

17 – Impact International Fortnight , London.

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

الفصل الأول : المؤثر الاقتصادي

الفصل الثاني : المؤتمر الثقافي

الفصل الثالث : المؤثر السياسي

مكتبة المعلا
الكويت

ص.ب : ١٩٦٧٢ خيطان 83807 الكويت
تلفون : ٤٧٣٧٨٢٨

مطبعة الفيصل
ت : ٢٤٤٦٨١٢ ، ٢٤٤٦٨٢٨